من هدى القرآن

٢

تفسير سورتي
النساء والمائدة

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العـالمين وصـلى الله على محمد وآله الهداة الميامين.

فضل السورة :

في مصباح الكفعمي عنه (ع) :

(من قرأها فكأنما تصـــدّق على كل من ورث ميراثا ، وأعطي من الأجر كمن اشترى محرّرا وبرىء من الشـرك ، وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم)

(تفسير نور الثقلين ج 1 ص 429)

عن زرّ بن جيش عن أمـــير المؤمـــنين علي بن أبي طالب (ع) قال :

(من قرأ سورة النساء كل جمعة أومن ضغطة القبر)

(ـ تفسير العياشي ج 1 ص 215 ـ)

الإطار العام

(أ) ـ اسم السورة :

اختار القرآن اسم «النساء» ليضعه على هذه السورة لأنها تتحدث عن حقوق المـرأة في بـدايتها ، ثم عن علاقة المرأة بالرجل ، وعن جوانب من حياة المرأة.

والمــرأة هي : وجه حضــارة البشر ، والــتي تعكس مدى التزام الحضارة بالقيم السامية التي تأمر بالمحافظة على حقـوق الضـعفاء ، ولأن الإسـلام يوليها اهتماما كبـيرا كـان من المفــروض أن يعـالج موضـوعها في سـورة من القرآن ، وكانت سورة النساء بحكم موضوعها الاجتمـاعي أفضل موقع للحديث عنها.

(ب) ـ موضوعات السورة :

من الآية الأولى وحـتى الآية (25)ـ ، ثم من آية (33) الى (35)ـ ، ثم من (127) الى (130) ثم في الآية الأخيرة تتحـدث السـورة عن حقـوق المـرأة (وبالمناسـبة حقــوق الأيتــام والســفهاء) ، وطريقة تقســيم الإرث بين الرجل والمرأة ، والمعادلة السيئة ، والشهادة الباطلة عند وارث المرأة كرها ، واستلاب حقوقها

في المهر ، وحرمة الــزواج من نســاء معينة بينهن زوجة الأب السابقة.

ثم عن ســـيطرة الرجل على المـــرأة في حـــدود الشريعة ، وعن النساء الفاضلات ، والصلح بين الزوجين ، ثم عن التزام العدالة والواقعية في بنـاء الأسـرة ، وأخـيرا عن بعض موارد الإرث.

أما الموضــوع الآخر الـذي تتحـدث عنه الســورة في الآيـــات (26 ـــ 32) يرتبط بحرمة المـــال ، والنفس ، وضــرورة المحافظة عليهما ، والأســباب الــتي قد تــدعو البشر الى الاعتداء عليهما كالجهل والحسد.

أما الموضوع الثالث ، فتتحـدث السـورة في الآيـات (36 ــ 40) عن ضـرورة الإحسـان الى الضـعفاء ، وحرمة البخل ، أو إنفاق المال رياء.

بيد ان الموضــوع الرئيسي الـذي تتحـدث عنه معظم آيات سورة النساء يكـاد يكـون موضـوع الحكم الاسـلامي بوجوهه المختلفة ، ففي الآيـات (41 ــ 42) نجد الحـديث عن أن الرسول شاهد على أمته ، بمعنى أنه حاكم عليها ، وحرمة عصيان الرسول ، وحرمة كتمان الشهادة.

وفي الآيــات (44 ـــ 57) نجد حــديثا مفصلا عن دور العلم في اقامة الحق ، ومســئولية رجــال العلم في أداء أمانة العلم ، ببيــان الحقــائق من دون تزييف أو تحريف ، ومدى جريمة الذين يفـترون على الله الكـذب ، وصـفاتهم السيئة التي تكشف زيفهم ، وتفضح نياتهم الفاسدة.

وفي الآيات (58 ـ 70) يتحدث القرآن عن القيم التي تعتمد عليها السياسة الاسلامية ، وأبرزها أداء الأمانة (أداء حقوق الناس) ، والحكم بالعدل.

ثم تتحــدث الآيــات ذاتها عن طاعة الرســول وأولي الأمر ، وحرمة الاحتكام الى

الطاغوت ، ونعت الذين يتبعون الطاغوت بـأنهم منـافقون ومثل عن الطاعة الصـعبة الـتي يتهـرب منها المنـافقون ، وهي طاعة الرسول في الحرب.

ثم حــديث عن قيمة الــدفاع عن المستضــعفين في السياسة الاسلامية.

أما الآيات : (77 ـ 79) ثم (80 ـ 87) فهي تتحدث :

أولا : عن ضــرورة الانضــباط في القتــال ، والــتزام الطاعة التامة في كل الأوامر.

ثانيا : عن دور القائد في التحـــريض على القتــــال ، وحمل الناس على طاعة الأوامر.

وفي الآيات (88 ـ 91) نجد الحديث يتركز حول اتخاذ موقف موحد وحازم من المنافقين ، فيحدد القـرآن طبيعة المنافقين وأنواعهم ، ثم يحدد الموقف منهم.

ثم يتحدث خلال الآيـات (95 ــ 100) عن المجاهـدين والقاعــدين والمهــاجرين كطبقــات متمــيزة في المجتمع الاسلامي ، ومتقابلة مع طبقات المنافقين السالفة الذكر.

ويعود القرآن في الآيات (105 ــ 111) الى الحــديث عن قيم السياسة الاســــلامية وكيف انها دولة القــــانون البعيدة عن الفســاد الاداري ، فينهى الرســول عن الجــدل مع الخائنين والمختانين الذين يحاولون تضليل الرسول.

وفي الآيــات التالية (117 ـــ 126) يتنــاول القــرآن جـــوانب شـــتى عن النفـــاق منها أصل النفـــاق ، ودور الشـــــيطان فيه بأمانيه الخلابة الكاذبة ، واســـــاطيره الساذجة.

وبعد أن يــبيّن القــرآن في الآيــات (131 ـــ 134) ضرورة التقـوى والالـتزام ، واقامة القسط والشـهادة لله لكي يزكي النفوس عن عوامل النفـاق ، بعدئذ يعـود مـرة اخرى في الآيـات (136 ـ 146) ليـبين أن الايمـان حقيقة بسيطة لا تتجـزأ ، وان الـذين يفرقـون بين فكـرة واخـرى في الايمان فهم كفار ومنافقون يخادعون أنفسـهم ، لأنهم يتخـذون الكـافرين أوليـاء ، وهم في الـدرك الأسـفل من النار.

ثم يبين السبيل الوحيد لإخراج هؤلاء من حـالتهم وهو التوبة والإصــلاح ، ثم الشــكر والايمــان ، وعــدم الجهر بالسوء من القول ، وابتغاء مرضاة الله بالأعمال الصالحة.

ويكرر القرآن وبتفصيل أكثر هذه المرة بيـان بسـاطة الايمان ، وانه حقيقة لا تتجزأ ، ويـبين في الآيـات (150 ـ 160) ان الذين لا يؤمنون ، بحجة عدم الاقتنـاع هم أنـاس كاذبون ومثلهم بنو إسرائيل حين سـألوا موسى أن يـريهم الله جهرة ، ثم اتخذوا العجل بعد أن توضحت لهم الآيات ، وانهم نقضوا الميثاق ، واختاروا الكفر بآيات الله ، واتهموا مــريم بالفحشــاء ، وادعــوا أنهم قتلــوا عيسى ، وظلمــوا أنفسهم وأخذوا الربا.

وفي الآيات الاخيرة من السـورة يتحـدث القـرآن عن ضرورة الايمان بالله وبالرسول بشكل كامل ، والاعتصــام بالنور الذي أنزله ، وكمثل لهذا الايمان يذكر القـرآن حكما في الإرث وينهي به سورة النساء.

هـذا الاسـتعراض المـوجز لتفصـيل سـورة النسـاء ، يكشف لنا الخيط الـذي يربط بين موضـوعاته الرئيسـية ، وهو المجتمع الاســـلامي بما فيه من قيم الحق ، والعدالة والتقوى ، وبما فيه من حقوق المرأة ، واليـتيم ، والسـفيه والفقير ، والـدفاع عن المستضـعفين والمحـرومين وما له من قيادة حكيمة ، وسياسية واضحة ، وإرادة

حازمة ، معتمـــدة على قواعد راســخة من ايمـــان الامة بالرسول وبأولي الأمر من بعده.

وبـــالطبع لا يتحـــدث القـــرآن عن المجتمع المســـلم بطريقة علمية فحسب ، بل وتربوية أيضا ، فنكشف من خلال حديثه المبـــارك كيف نبـــني هـــذا المجتمع وما هي الدواعي التي تدفعنا الى اختياره؟

سورة النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـــــــوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجـالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحـامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1)**

---

1 [بث] : نشر.

[رقيبا] : من الترقب وهو الانتظار ويكون بمعنى الحفيظ الــذي لا يغيب عنه شيء.

الخطوط العامة للمجتمع الاسلامي

بينات من الآيات :

المجتمع الاسلامي مبني على قاعدة التوحيد ، وشعار التوحيد اسم الله ، والمجتمع الجـاهلي طـافح على غـرور الطاغوت ، وشعارهم اسم الطاغوت.

وتوحيد الله يعطي المجتمع الاسلامي فضلا من الله ، ورحمة شاملة ودائمة ، وشعار الرحمة الشاملة (الرحمن) وشعار الرحمة الدائمة (الرحيم).

وهذا يعني ان المجتمع الاسلامي : مستقر ومسـتمر ، متكامل ودائم ، فهو خير ورفاه ، وتقدم لجميع النـاس في جميع العصور.

الالتزام المبدئي

[1] الخط العـام الـذي تتفـرع عنه سـائر الخطـوط المميزة للمجتمع الاسلامي انه مجتمع ملـتزم بمنهج الله ، وقد عـبر القـرآن عن هـذه الفكـرة في آية : (**وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْـوى**) فهو مجتمع مبـدئي ، وحين نقـول مجتمع مبدئي فاننا نتصور شرطين أساسين

هما :
أ) انه لا يـــؤمن بالفوضى في أي حقل من حقـــول المجتمع ، بل يــؤمن بـــالتنظيم في كافة الابعــاد الخاصة والعامة.
ب) انه ينطلق في تنظيمه من بصائر ســماوية ليست فيها تحديدات قومية أو اقليمية أو عنصرية أو غيرها .. لان السماء هي التي اوحت بهذه البصائر.
من هنا جـاءت الكلمة الاولى في هـذه السـورة نـداء الى النــاس : ان يتقــوا الله ليبنــوا على أساسه مجتمعهم الفاضل ..
(**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ**).
ومعـــروف ان الخطـــاب للنـــاس الواقعـــيين الـــذين يتحركون في أرض الواقع ، وليس الخطـاب الى الإنســان أو البشر كصـفات تجريدية ، ان هـذا الخطـاب تعبـير عن روح الواقعية في الرؤية الاســلامية ، وبالتــالي روح توجيه الحياة مباشرة ، ومن دون الالتفات حولها بمسائل نظرية.
والسؤال هو : لماذا قال الله «ربكم»؟
الجواب : ان كلمة الرب تدل على معـنى التربية فهي أقرب الى التشريع الذي يأمر الله عبـاده باتباعه ، ولـذلك ترى ان القرآن ، لا يكتفي بكلمة رب ، بل يضيف قائلا :
(**الَّذِي خَلَقَكُمْ**)
ليــذكرنا بــأن الله الــذي ربّــاكم من بعد أن خلقكم ، أجدر أن يتبع الناس تشريعه ويتقونه في حياتهم.

التوحيد منطلق التشريع :

والميزة الاساسـية في تشـريع السـماء ، انطلاقه من مبدأ التوحيد ، والـذي يعـني فيما يعـني الارتفـاع فـوق كل الحواجز المصـطنعة بين النـاس ، اننا نفهم اليـوم وبعد ان اكتشفنا ان أكثر الـويلات الـتي أصـابت البشـرية ولا تـزال تصيبها حتى اليوم آتية من هذه الحواجز.

(العنصريات ، القوميات ، الاقليميات ، الطبقيـات و... و... وهكذا ..) نحن نعـرف انها هي العقبـات الحقيقية في طريق الإنسان الى السعادة والتقدم.

ولـذلك يركز القـرآن على ان الله خلق النـاس جميعا من نفس واحدة ويقول :

(**الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِـــــدَةٍ وَخَلَـــقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً**)

النساء كالرجال :

والسـؤال : كيف خلق الله زوج الإنسـان من نفسـه؟ وهل يعني هذا ان الإنسـان الاول كـان ذا طبيعة مزدوجة ، ثم انفصــلت طبيعة الــذكر عن طبيعة الأنــثى في ســائر الأجيال؟

أم هل يعـني هـذا ان الله خلق آدم (ع) ثم انـتزع من اضلعه صلصالا وخلق منه حواء؟

لا اعلم ذلك بالضبط ، ولكن هذا التعبير يوحي بفكـرة علمية تهمنا في تلاوة آيات القرآن وهي ان الذكر والأنـثى جنس واحد ، وليست الأنـثى أقل شـأنا من الـذكر ، لا في الطبيعة ولا في منهج الله ، وقد تكررت في آيـات القـرآن هذه الفكرة

مثل قوله تعالى :

«**خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً**»

وقد نسف القـرآن هـذه الفكـرة العنصـرية الجنسـية (كما اسميها) التي تقـول : ان للـذكر سـلطة مطلقة على الأنــثى بســبب انه من جنس أعلى ، والفــارق بينه وبينها يشبه تماما الفارق بين الإنسان والحيوان!!

لقد نسف القرآن هـذه الفكـرة وبيّن ان كل الحـواجز بين الناس مصطنعة ، ولا رصيد لها من الحق أبدا.

الاسرة تنظيم ايجابي :

بين القـرآن إن فكـرة التسـاوي بين النـاس لا تعـني الانفلات والفوضى ، انما يجب ان يكـــون داخل المجتمع تنظيم متقن ، ونقبل بالحواجز بقــدر أدائها لعملية التنظيم الايجـــابي ، فالاســـرة مثلا كأطـــار ينظم علاقة مجموعة بشــرية بــأخرى ، ويجعلها أكـثر تعاونا وتفـاعلا ... مقبولة وضـــرورة ، ولكن الاســـرة كأطـــار لضـــرب الأسر الثانية واشاعة العصبية والقبلية بين المجتمع مرفوضة أساسا.

ولذلك أكد القرآن على الاسرة وقال :

(**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ**)

أي اتقوا الله واتقوا الأرحام.

ان التعــاون مع الاســرة يجب ان يبقى ضــمن اطــار منهج الله ، فلا يصـبح وسـيلة للفسـاد والرشـوة ، وغصب الحقوق ، واشاعة الفحشاء ، لذلك بدأ الحديث بذكر

تقوى الله وجعلها ركيزة البنـاء الاجتمـاعي ، ثم بين اهمية الأرحام (الأقارب) وتعبير القرآن ب (تسـاءلون بـه) يعـني ان الله هو المقياس النهائي والأخير الـذي يمكن ان يجعل ركيزة التعاون الاجتماعي ، فاذا تساءل أحد شـيئا من آخر هل فعله أم لا ، كيف يسـتطيع ان يثبت انه سـيقول له الصحيح أم يكذب عليه.

لا طريق له الى ذلك الا ان يحلفه بالله ، ويسـتثير ضـميره وفطرته المؤمنة بالله ، ويجعل من ذاته على ذاته رقيبا.

ان المجتمع الـذي يتمتع بالايمـان ، هو القـادر على إيجـاد تعـاون حقيقي بين ابنائه على أسـاس من العدالة والمسـاواة ، وان لم يكن المجتمع مؤمنا فكل الانظمة الموضـوعة تصـبح حـبرا على ورق يتلاعب بها النـاس كما يتلاعب الرياضيون بالكرة.

من هنا لا بد ان يبـنى المجتمع المسـلم على ركـيزة الايمان والتقوى.

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**)

قيم المجتمع الاسلامي :

ان هذه الاية استهلت الحديث عن المجتمع الاسـلامي ببيان قيم المجتمع بايجاز وهي :

أ) تقوى الله.

ب) المسـاواة التامة بين جميع عبـاد الله الـذكر منهم والأنثى.

ج) اعتماد التنظيم الاسري (وغـيره) في اطـار تقـوى الله.

وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (3) وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (4) وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ

---

2 [حوبا] : إثما والحوبة الحزن.

3 [تقسطوا] : تعدلوا وتنصفوا.

[تعولوا] : تميلوا عن الحق وتجوروا وقيل عال يعول يحتاج ويفتقر.

4 [صدقاتهن] : مهورهن.

[نحلة] : عطية من غير المثامنة يقال نحلت الرجل إذا وهبت له نحلة.

[هنيئا مريئا] : الهنيء الطيب المساغ والمريء المحمود العاقبة يقال هنأني الطعام ومرأني أي صار لي دواء وعلاجا شافيا.

قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (5) وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (6) لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (7) وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (8) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً

---

5 [قياما] : العماد والسناد لما يعمد ويسند به.

6 [انستم] : الإيناس الأبصار من قوله «انس من جانب الطور نارا» وقيل انستم اي أحسستم بمعنى وجدتم.

[إسرافا] : تجاوزا للحد المباح الى ما لم يبح.

[بدارا] : مسارعة.

[حسيبا] : محاسبا وشاهدا.

خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَـدِيداً (9)
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتـامى ظُلْمـاً إِنَّما يَـأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (10)

التشريعات المالية في الإسلام

هدى من الآيات :

النظـــام الاقتصـــادي وجه بـــارز من أوجه المجتمع ، ولــذلك بــدأ القــرآن حديثه عن المجتمع الاســلامي ببيــان النظام الاقتصادي في هـذا المجتمع ، الـذي يكفل الملكية الفردية في اطــــار من الرقابة الاجتماعية ، فهو يشــــجع النـاس على العمل والانتـاج ، وتطـوير التجربة الذاتية في التنعم بالحياة.

كل ذلك عن طريق كفالة الملكية الفردية ، كما انه يحافظ على دور المـال البنّـاء لئلا يتحـول الى صـخرة في طريق الحرية الاجتماعية أو القيم السامية للمجتمع.

من هنا نجد ان الاية الأولى تركز على ضــــــــــرورة المحافظة على حقـوق اليتـامى والنسـاء لأنهما العضـوان الضـعيفان في المجتمع ، ولهـذا اقتضى التركـيز عليهما ، والمجتمع الذي يحافظ على حقوق الضعفاء يحافظ طبيعيا على حقوق الأقوياء.

ولكن القــرآن عــاد فــبيّن حــدود الملكية الفردية في الآية الخامسة ، ومنع إعطاء

السفهاء امـوال المجتمع ، لان السـفهاء يخـالفون فلسـفة المـال وهي تنظيم حيـاة المجتمع به ، ومن هـذا المنطلق اشـترط الرشد في اليـتيم الـذي يبلغ ، ويريد ان يتسـلم أمواله.

وتحـدث بعدئذ عن الإرث باعتبـاره من توابع الملكية الفردية ، وركز حديثه على ضرورة المحافظة على حقوق الضـعفاء «النسـاء والأيتـام واولو القـربى واليتـامى والمساكين»

وخلال الحـديث في الآيـتين (3) تحـدث القـرآن عن الزواج تمهيدا للحديث عن حقوق المرأة في امتلاك المهر ، وضرورة المحافظة عليها.

بينات من الآيات :

[2] اليـتيم هو أضـعف الحلقـات الاجتماعية ، والـولي عليه (الوصـي) هو أقـوى الحلقـات في قدرته على أكل أمواله من دون رادع اجتماعي ، لذلك حذر القرآن الأولياء من ظلم اليتيم ظـاهرا أو خفيا ، والظلم الخفي هو تبـديل أموال اليتامى بالتي هي أسوأ لحساب الولي عليهم.

ومن يأكل أموال اليتامى يتعود على التبذير ، لأنه يجد أمامه مـالا لا تعب فيه فيلتهمه بـدون تـدبير ، فـاذا انتهت أموال اليتيم دفعته عـادة التبـذير الى تبديد أمواله الخاصة بذات الكيفية السـابقة ، فـاذا به يخسر ماله الحلال أيضـا. من هنا قال الله تعالى :

(**وَآتُـوا الْيَتـامى أَمْـوالَهُمْ وَلاتَتَبَـدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاتَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ**)

اي انكم تبــدأون بأكل أمــوال اليــتيم وتنتهــون بأكل أموالكم :

(**إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً**)

انه ظلم عظيم.

علاج اليتم :

[3] لحل مشكلة اليتيم وضع الإسلام حلا اجتماعيا هو الزواج بالأرملة «صاحبة الأيتام».

ومن هنا نعـرف ان فلسـفة تعـدد الزوجـات هي حل لبعض المشاكل الاجتماعية.

ذلك انه لا يوجد شـاب يقـدم على الـزواج ابتـداء من أرملة عجـــوز ، الا إذا جعلها زوجته الثانية لكي يســـترها ويحافظ على حقوقها وحقوق ابنائها ، لان الـزواج من الام يعطي الــزوج دافعا نفســيا الى المحافظة على حقــوق أولادها (اليتــامى) باعتبــار انهم ســوف يصــبحون كـأولاه بالنسب ، وسوف ينفعونه عند الكبر ، ويرفعون اسمه عند الناس وهكذا.

من هنا ربط القرآن بين الخوف من ظلم اليـتيم وبين تعدد الزوجات فقال :

(**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَـانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ**)

ثم عـاد وحــذر من الـزواج بنية ســيّئة ، أو مع عــدم القدرة على الوفاء بحقوق الزوجية فقال :

(**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً**)

وعـــدم العدالة قد يكـــون بالاهتمـــام بزوجة وتـــرك الاخريات كالمعلقـات لا يحظين بحقـوق الزوجية الجنسـية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا هن مطلقات حـتى يـتزوجن غيره.

ومن الناس من يتزوج أرملة بهـدف التهـام أموالها ثم يتركها تعـاني الأمـرين ، ولقد حـذّر القـرآن من ذلك وأمر هؤلاء بالاقتصار على زوجة واحدة.

(**أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ**)

أي التسري بالإمـاء بهـدف تفريغ الشـهوة الجنسـية ، والامتنـاع عن الفسـاد ، وهـذا جـانب من واقعية التشـريع الاسلامي الذي يمنع بشدة الفوضى الجنسية ، ومن جانب آخر يفتح طريق اللذة الحلال بالزواج أو الملك.

(**ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا**)

فالاكتفـاء بزوجة واحـدة ، أو بالتسـري بالإمـاء ، يمنع الميل عن الحق الى الباطل ، بينما تعـــدد الزوجـــات قد يتسبب في الظلم والفقر والمسكنة.

المهر حق المرأة :

[4] بعد الحديث عن اليتيم جـاء دور حقـوق المـرأة ، وأبرزها المهر ، لأنه مال ثابت تمتلكه أغلب النساء. فـأمر الإسـلام بإعطـاء المهر للنسـاء ، وبيّن بـذلك ان المـرأة تمتلك تماما كالرجل ، ســواء كـــانت متزوجة أم عانسا ، وقد كانت الانظمة البشرية تنفي حق المـرأة في الامتلاك خصوصا المتزوجة ، وقريبا جدا استطاعت المـرأة الغربية ان تحافظ على حريتها في التملك بعد الــزواج ، بــالرغم من ان

الإسلام أعطاها هذا الحق منذ اليوم الاول.

والواقع ان الجاهلية لا تستطيع إلّا ان تظلم الضعفاء ، والمرأة هي العضو الضعيف في المجتمع ، ولا يزال العالم الغربي يظلمها في شخصيتها وحقوقها العامة.

ويسمي القرآن المهر صداقا ليبيّن فلسفته التي هي : المصادقة على عهد الزوجية ، ذلك ان الرجل يغري فتاة بحلم الزواج ، وعند ما يقضي ووطره منها يتركها للفحشاء ، فكان عليه ان يقدم دليلا على صدق حبه لها ، وحسن نيته في ادعاء الزواج ، وذلك الدليل هو المهر ، من هنا قال ربنا :

(**وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**)

النحلة هي : العطاء ، أي قدموا لهن المهر عطاء لا رجعة فيه ، والهنيء ما يسبب الراحة النفسية ، والمريء ما يسبب الراحة الجسدية.

ولا ريب ان المال الحلال الذي يأكله الإنسان براحة نفسية يعطي الجسد راحة جسمية أيضا لطبيعة العلاقة بين النفس والجسم.

البعد الاجتماعي في الحق المالي :

[5] المال حق من حقوق الفرد ، ولكنه ملك لجميع الناس ، وللناس أن يفرضوا الرقابة عليه لئلا يصبح أداة فساد ، ولذلك فان السفهاء يحرمون من حق التصرف في أموالهم ، لان تلك الأموال هي أموال المجتمع قبل أن تكون للسفهاء.

ولأن المال وضع ليؤدي دور المنظم لا نشطة المجتمع ، والحافظ لجهود الناس ،

فــاذا اســتغله صــاحبه في الفوضى والفســاد والســلبية والســـرف فانه يفقد دوره ويصــيب الضـــرر جميع أبنـــاء المجتمع ، ولنتصور سفيها بـدأ يشـتري البضـاعة بأضـعاف ثمنها ، انه ســـوف ينشر الخلل في مـــوازين الســـوق ، وبالتالي يصاب الكثيرون من المحتاجين الى تلك البضـاعة بالضرر الفادح.

من هنا يخط الإســلام خطا وســطا بين الرأســمالية والشيوعية ، فيحفظ للفرد حقوقه ، ويعطيه دوافع للإنتـاج ومجالا للاختيار والتحـرك ، كما يحفظ للمجتمع حقوقه في الرقابة على نشـاطات الفـرد ، وتوجيهها حسب مصـلحة الجميع ومن أجل البناء والازدهار.

من هنا تجد التعبير القرآني يؤكد على ان المـال ملك للجميع بالرغم من ان السفيه مختص به أكـثر من غـيره ، وبين فلسفة ذلك بقوله :

(**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللــهُ لَكُمْ قِياماً**)

هذا الغـني الـذي يصـرف أمـوال المجتمع على متاعه الخاصة ، بينما كـان عليه ان يصـرفها في بنـاء المشـاريع العمرانية والانسانية ، وهذا المستكبر الذي يســتثمر ثروته في محاربة الرسـالة ومقاومة اصـلاحاتها ، وهـذا المـترف الذي يشجع الفاحشة ويبني دور اللهو والبغاء والمخــدرات ، وهذا المفسد الذي يحتكر التجارة لذاته ، ويعمل بطريقة انانية تضر بمصلحة سـائر التجـار والجمـاهير ، انهم جميعا يتجــاوزون حــدّهم ، ويتصــرفون في أمــوال المجتمع بما يخالف النظام الذي يسـتقيم بالمـال ، ويضـارون بالنـاس. وهنا عليهم ان يقفـوا ضـدهم ويحجــروا على أمــوالهم ولا يعـني ذلك مصــادرة أمــوالهم حــتى لا يعطي ذلك مــبررا لبعض المنتفعين بالحكومات ان يتهموا النـاس ببعض هـذه التهم لمصــادرة أمــوالهم : كلا ... بل يعـني وضع أمــوالهم تحت رقابة هيئة مخلصة تقوم هي باستثمارها في الصــالح العام ، وتضع الأرباح في

حسـابهم ، بعد أن تأخذ من أمـوالهم قـدرا معروفا لقـاء أتعابها.

وتقـوم الهيئة بتوجيه هـؤلاء نفسـيا ، وتحـاول تـربيتهم على الأفكار التجارية السليمة تمهيـدا لإصـلاحهم ، واعـادة أموالهم إليهم.

لذلك تجد القرآن يستخدم كلمة (في) ويقول :

(**وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ**)

بينما كـان من المنتظر ان يسـتعمل كلمة (من) وهـذا التغيير جاء للدلالة على ضرورة صـرف هـذه الأمـوال في مصلحة السفهاء ، والرزق هو مثل للحاجة الطبيعية ، بينما الكسوة مثل للحاجة الكمالية (الاجتماعية).

ثم قال ربنا عن الجانب التربوي لهؤلاء :

(**وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**)

حتى لا تتحطم نفسيتهم ، ولا يعودوا يصـلحون للحيـاة أبدا.

يبقى ان نقول : ان السفيه هو الذي يخالف مصـالحه الحقيقية حسب رؤية الشـرع ، ومقيـاس العـرف الصـالح. والقيـام اسـتخدم في القـرآن بمعـنى النظـام ، أو ما به استمرار الشيء وبقاؤه.

المراهقة الفكرية جذر السفه ...

[6] السفه قد يكون بسبب آفة عقلية أو نفسية تطرأ على صـاحبه ، وقد يكـون بسـبب المراهقة ، وعن هـذه الثانية تتحدث الآية :

(**وَابْتَلُـوا الْيَتـامى حَتَّى إِذا بَلَغُـوا النِّكـاحَ فَـإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ**)

فانما يعاد لليتيم أمواله بعد أن يختبر ، ليكشف بلوغه سن النكاح ، وتمتعه بالرشد الكافي للتصرف في أمواله بما يخدم مصلحته ومصلحة مجتمعة.

ويؤكد القرآن هنا مرة اخرى ضرورة المحافظة على حقوق اليتامى ويقول :

(**وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا**)

ذلك ان الذي يأكل أموال اليتيم يسرف فيها ، ويسابق الزمن في التهامها قبل ان يكبر اليتيم فيطالبه بالأموال ، بدارا : أي مبادرة قبل ان يكبر اليتيم.

ولكن مع ذلك يبقى لولي اليتيم الحق في أخذ أجرته في المحافظة عليه وعلى أمواله ان كان فقيرا أو محتاجا الى ذلك.

(**وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً**)

اى ان الأهم من الاشهاد هو الوازع النفسي الذي يرى الله عليه حسيبا ، فيمنعه عن أكل مال اليتيم.

الإرث لماذا؟ لمن؟ كيف؟

[7] من مظاهر الاقتصاد الموجه الذي يؤمن به الإسلام هي حقوق الإرث ، والتي تشجع الإفراد على العمل والانتاج باثارة غريزة حب الأبناء لديهم ، حتى إذا كان الفرد غنيا عن المال بالنسبة الى حاجاته الخاصة ، عمل من أجل إسعاد

ابنائه بعد موته.

ثم ان الإنسـان معـرض للمـوت في أية لحظة ، وقد تراوده فكرة خبيثة فيفكر : لما ذا اعمل ولمن؟

وبـالرغم من بعض العـادات والانظمة الجاهلية الـتي منعت الإرث عن النســاء ، يؤكد القــرآن هنا على مخالفة تلك العادات والانظمة ويقول :

(**لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَـرَكَ الْوالِـدانِ وَالْأَقْرَبُـونَ ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**)

أي لكل رجل أو امـرأة حق مفـروض في تركة الميت القريب منهما في الرحم.

[8] وللمجتمع حق معلوم في تركة الميت ..

(**وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى**)

ممن لا تربطهم بالميت صلة قرابة تقتضي توريثهم.

(**وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَـارْزُقُوهُمْ مِنْـهُ وَقُولُـوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً**)

والقـول المعـروف هنا وفي كل مناسـبة تشـبه الإرث يعـني : ضــرورة العمل من أجل رفع مســتوى الطبقــات المحرومة نفسيا وتر بويا حتى لا يشعروا بالـذل والمهانة ، بل ولكي يساعدهم مستواهم الرفيع على محاربة واقعهم ، والعمل الجاد على إصلاحه وتطويره.

فهـذا اليـتيم الـذي اضـطرته الحاجة المؤقتة الى ان يحضر قســمة الإرث ، يرمق ببصــرة تركة الأمــوات ، انه سيصبح غدا شابا قويا قادرا على العمل البناء ، لو لم

تحطم نفسيته أيام فقـره وحاجته ، ولو لم تحطم سـمعته امــــام النــــاس وينظر اليه كطبقة هابطة ومنبــــوذة في المجتمع ، وكـذلك المسـكين العاطل عن العمل اليـوم قد يجد غــدا عملا يناســبه ، فيصــبح عضــوا فعــالا في جسم المجتمع ان لم يشــعره المجتمع أيــام مســكنته بأنه من طبقة منبوذة.

من هنا يركز القـرآن على ضـرورة إعطـاء الطبقـات المحرومة جرعـات روحية بالاضـافة الى توفـير الحاجـات المادية لهم ، لتســــاعدهم تلك الجرعــــات على مقاومة واقعهم بأنفســهم ، أو لا أقل لكي يحظــوا بالســعادة من تقدير المجتمع لهم ، وعدم النظر الى وضعهم الاقتصــادي المنحط.

كما تدين تدان :

[9] وبمناسـبة الحـديث عن الإرث بيّن القـرآن مـرة أخرى حكم اليـتيم باعتبـار ان كثـيرا من الأمـوات يـتركون ذرية صغارا من ورائهم ويتعرض هـؤلاء لطمع الجشـعين ، وأخذ القــرآن يحــرك فينا خوفنا الفطــري من المــوت ، وضياع ذريتنا من ورائنا وقال لو لم يحترم المجتمع حقوق اليتامى فكل فرد مهدد ان تغتصب حقوق يتامـاه غـدا كما يغتصب هو حق اليتــامى اليــوم. إذا ... فــان لم يكن لله فلأنفسنا نحافظ على حقوق اليتامى.

(**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ**)

اذن فلا يظلمـون ذرية النـاس ما دامـوا هم أصـحاب ذرية يخشون عليهم لو ماتوا ... أفلا يعرفون ان من طرق باب الناس طرق بابه.

(**فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**)

فلا يخــالطون في حســاب الإرث ويقســمونه بحيث يظلمون حق اليتامى.

[10] ثم هـدد القـرآن الحكيم الـذين يـأكلون أمـوال اليتامى وقال :

(**إِنَّ الَّذِينَ يَـأْكُلُونَ أَمْـوالَ الْيَتـامى ظُلْمـاً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**)

ما هـذه النـار الـتي يأكلونهـا؟ هل هي هـذه المـواد الحرام التي تتحول ـ بقـدرة الله ـ الى نـار لاهبة في يـوم القيامــة؟ أم انها الآلام النفســية ومن ثم الجســدية الــتي تلاحقهم بســبب ظلمهم اليتــامى؟ أم انها الانحرافــات الاجتماعية التي سوف تحرق حضارتهم وتخـرب عمـرانهم عاجلا أم آجلا؟

المهم انها نار في الدنيا وسـعير في الآخـرة ... وكفى بذلك رادعا عن الاقتراب من حق الضعفاء.

يُوصِيكُمُ اللـهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَـإِنْ كُنَّ نِسـاءً فَـوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَـرَكَ وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْـهِ لِكُـلِّ واحِـدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَـدٌ وَوَرِثَهُ أَبَـواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَـإِنْ كـانَ لَـهُ إِخْـوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّـدُسُ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ يُوصِـي بِها أَوْ دَيْنٍ آبـاؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَـةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً (11) وَلَكُمْ نِصْـفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ يُوصِـينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ

فَإِنْ كـانَ لَكُمْ وَلَـدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَـرَكْتُمْ مِنْ بَعْـدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَـةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِـدٍ مِنْهُمَا السُّـدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِـكَ فَهُمْ شُـرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْـرَ مُضَـارٍّ وَصِـيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12) تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِـعِ اللهَ وَرَسُـولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها وَذلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (14)

---

12 [كلالة] : أصل الكلالة الاحاطة ومنه الإكليل لاحاطته بالرأس ومنه. الكل لاحاطته بالعـــــدد فالكلالة تحيط بأصل النسب الـــــذي هو الولد والوالد.

الإرث بين الاهداف والالتزام

هدى من الآيات :

في الآيات هذه بعض احكام الإرث ، والـتي تكشف ما وراءها من النظـــرة الاســـلامية في الطبقـــات المتدرجة للتنظيم الأسرى ، وللحقوق المتبادلة فيها.

والإرث عموما رابطة وثيقة تشد أبناء الاسرة ببعضـها ، كما انه في الاقتصاد الاسلامي طريقة لتوزيع الـثروة في المجتمع.

وأهم حكم يعكسه أحكـــام الإرث في هـــذه الآيـــات وأشده إثـارة للجـدل هو : تفضـيل الـذكر على الأنـثى في أغلب مـــوارد الإرث ، إذ ان الإســـلام يعطي الـــذكر دورا قياديا أكـــبر في الاســـرة ، وتحميله نفقـــات العائلة دون الأنـــثى فيضـــاعف نصـــيبه من الإرث ومع ذلك فانه عند التعمق نجد ان المــرأة تشـارك الرجل في ارثه ، دون ان يشـــاركها الرجل فيتعـــادلان ، أو تميل كفة المـــرأة قليلا فتحصل على قدر أكبر من الإرث.

وتتحدث الآية الاولى عن ارث أبناء العائلة التي تتكون من الوالدين والأبناء

والاخوة.

بينما تتحـــدث الآية الثانية عن العلاقة الزوجية وكيفية تبادل الزوجين الإرث من بعضهما.

اما الآيتان الثالثة والرابعة ، فهي تبين ضرورة الالتزام الدقيق بأحكام الله التي يسميها القـرآن بالحـدود ، ويوعد من تجاوزها بأشد العذاب.

بينات من الآيات :

حكمة الإرث :

[11] انطلاقا من طبيعة الـدور الـذي يكلف الـذكر به في الحيـاة العامة وفي الحيـاة الزوجية وهو دور الإنفـاق والتوجيه الأشد صـعوبة والأكـثر جهـدا ، فقد حـدد القـرآن للـذكر ضـعفي نصـيب الأنـثى من الإرث ، وعـبر عن ذلك بقوله تعالى :

(**يُوصِـيكُمُ اللـهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**)

ويبـدو هـذا التعبـير رؤية حياتية أكـثر من ان يكـون قاعدة قانونية.

فالذكر في طبيعة ودوره الفطري الـذي خلق له ، هو ان يصبح له مثل حظ الأنثيين في المجال الاقتصادي ، كما ان الأنثى تملك مثل حظ الـذكرين في المجـالات الاخـرى العاطفية والجاذبية ، والقدرة على التربية.

واسـتعاض الله (بالوصـية) عن صـيغة الأمر فقـال (يوصيكم) للدلالة على ان في ذلك فائـدة كبـيرة لكم قبل ان تكون امرا عليكم.

هذا إذا كانوا أولادا مختلطين من ذكور وإنـاث ، اما لو كن إناثا فقط فإنهن يقتسمن ثلثي التركة بينهن بالسوية.

(**فَـإِنْ كُنَّ نِسـاءً فَـوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَـرَكَ وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ**)

اما بقية المال : فان كـان للميت أبـوان فإنهما يرثـان الثلث فيما إذا كانتا اثنـتين وأكـثر ، وتــرث الام السـدس ويــرث الأب البقية فيما إذا كــانت واحــدة فلها النصف ، وكذلك يشاركهما الزوجان حسب التفصيل القادم.

اما إذا لم يكن للميت أبوان ولا زوج فـان بقية المـال يرد على البنات أو البنت بطريقة الرد.

(**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِـدٍ مِنْهُمَا السُّـدُسُ مِمَّا تَـرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلَـدٌ وَوَرِثَـهُ أَبَـواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ**)

اما الأب فنصـيبه غـير محـدود فهو يأخذ البقية الباقية أنّى كـانت قلّت أم كـثرت ، فمثلا. إذا مـاتت البنت فللأم الثلث أن كــــان للميت أم من دون أولاد وللأب الثلثـــان الباقيـان ، اما لو كـان الميت امـرأة فلزوجها النصف مما تركت ، ولأمها الثلث ، ويبقى لأبيها السدس فقط.

(**فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ**)

لان اخوة الميت يحجبـون الأم عن سـدس إرثها ، كل هذه التفاصيل والفروضات تحسب ...

(**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها**)

الميت يتصـرف في حـدود ثلث المبلغ الـذي خلفه لا أكـثر ، الا إذا رضي الورثة بالزيـادة فتعطى لمن وصى به حقه ، ثم تقسم التركة كذلك بعد الدين.

(**أَوْ دَيْنٍ**)

فالـدين المتعلق بـالميت مقـدم على الوصـية ، وعلى الورثة حتى ولو غطى التركة كلها.

ان الإنسان يجب ان يرث أبنــاؤه كل ثروته دون أبويه ، وهما على شـفا المـوت بينهما أبنـاؤه يسـتقبلون الحيـاة الحافلة بالمشـاكل والصـعوبات ، من هنا يتسـاءل : لمـاذا وضع الله نصـيبا مفروضا للأبـوين؟ ويجب القـرآن الكـريم على ذلك :

(**آبــاؤُكُمْ وَأَبْنــاؤُكُمْ لا تَــدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْـرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**)

فربما يكون الآبـاء هم أقـرب الى نفعكم من الأبنـاء ، فلو لا جهــود أولئك ومســاعيهم ، ولو لا رعــايتهم ولو لا خــبرتهم لكــانت حيــاتكم جحيما ، فلا بد ان تكــون لهم مكافأة رمزية.

(**فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً**).

موارد الإرث :

[12] بعد الحـديث عن القرابة «الرحميـة» جـاء دور القرابة الزوجية «السـببية» وبين القـرآن ان الـزوج يـرث نصف تركة الزوجة ان لم يكن لها ولد ، والا فــالربع ، اما الزوجة فترث الربع ان لم يكن له ولد ، والا فالثمن.

وأكـدت الآية أكـثر من مـرة ضـرورة أداء دين الميت واحترام وصيته ، وأكدتها هنا أكثر من الآية السابقة باعتبار ان العلاقة الزوجية لا تكــون قوية فيســتأثر الــوارث منها بالمال دون ان يعير وصية الميت انتباها.

(**وَلَكُمْ نِصْــفُ ما تَــرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ**

الرُّبُـعُ مِمَّا تَـرَكْنَ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ يُوصِـينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كـانَ لَكُمْ وَلَـدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَـرَكْتُمْ مِنْ بَعْـدِ وَصِـيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ)

اما ارث الاخـوة الـذين يسـميهم القـرآن كلالة ، لأنهم في طبقته يشكلون زينته كالاكاليل فان اخوة الإنسان من الام يرثـون هكـذا : إذا كـان أخ الميت واحـدا فانه يـورث سـدس التركة ، اما إذا كـان له أخـوان أو ثلاثة فـان ثلث المـال يخصص لهم فيتقاسـمونه بينهم بالسـوية ، لا فـرق بين الذكر والأنثى (اي بين الاخت والأخ).

لذلك قال ربنا :

(**وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ**)

اي ان كـــــان ميت يرثه أقاربه على طريقة الكلالة سواء كان الميت رجلا[أو امرأة]

وهنــاك مثل لارث الكلالة هو ان يكــون للميت وارث واحد.

(**وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ**).

اما إذا كان له أكـثر من ذلك اى اثنـان فزائد فـالحكم يختلف :

(**فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُـرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ**)

انما قــدمت الوصــية على الــدين لان أكــثر النــاس يوصون بينما قد لا يكون الأمر كذلك بالنسبة الى الدين.

والا فان الـدين مقـدم على الوصـية لان الـدين يتعلق بحقوق الناس.

ولكن الوصية يجب ان لا تكون بقصد الإضـرار بالورثة ، وفي هذه الحالة تلغى

الوصية بسبب قانون «الضرار».

كما ان من كتب على نفسه دينا كاذبا بهدف الإضــرار بورثته فان اعترافه هــذا لا يؤخذ به ، ويتحقق القاضي في الأمر ليرى هل هو مديون فعلا أم لا؟ ...

(**وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ**)

عليم بما يفعله العباد ببعضــهم من الظلم ، لكنه يحلم عنهم لفــترة دون ان ينســاهم ، إذ ســيأتي يــوم يؤخذ فيه المسيء بأشد الجزاء.

[13] يسمي القرآن احكام الدين ب (الحــدود) تعبـيرا عن الدقة المتناهية التي تتمـيز بها هـذه الأحكـام ، والـتي من الضـــروري ان يراعيها المـــؤمن فليس من الصــحيح الزيادة أو النقيصة فيها باجتهادات خاصة أو حسب مصالح مؤقتة ، لأن أية زيـــادة أو نقيصة تحمل في طياتها عقوبة تجاوزها.

(**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللـهَ وَرَسُـولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها وَذلِـكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

[14] (**وَمَنْ يَعْصِ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَيَتَعَـدَّ حُـدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ**)

ان الاســتخفاف بحــدود الله ينتهي الى الهــوان في الآخـــرة ، ولأنه في الواقع يصل الى درجة معصـــية الله والتهاون به.

وَاللاَّتِي يَـأْتِينَ الْفاحِشَـةَ مِنْ نِسـائِكُمْ فَاسْتَشْـهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَـةً مِنْكُمْ فَـإِنْ شَـهِدُوا فَأَمْسِـكُوهُنَّ فِي الْبُيُـوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَـوْتُ أَوْ يَجْعَـلَ اللـهُ لَهُنَّ سَـبِيلاً (15) وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَـإِنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللهَ كـانَ تَوَّابـاً رَحِيمـاً (16) إِنَّمَا التَّوْبَـةُ عَلَى اللـهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السُّـوءَ بِجَهالَـةٍ ثُمَّ يَتُوبُـونَ مِنْ قَـرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُـوبُ اللـهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيمـاً (17) وَلَيْسَـتِ التَّوْبَـةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قـالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُـونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَـدْنا لَهُمْ عَـذاباً أَلِيمـاً (18) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا يَحِـلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُـوا النِّسـاءَ كَرْهـاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ

19 [تعضلوهن] : العضل التضييق بالمنع من التزويج وأصله الامتناع.

لِتَـذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُـوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَـأْتِينَ بِفاحِشَـةٍ مُبَيِّنَــةٍ وَعاشِــرُوهُنَّ بِــالْمَعْرُوفِ فَــإِنْ كَرِهْتُمُــوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِـيراً (19) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْــتِبْدالَ زَوْجٍ مَكــانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُـكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (21)

---

20 ـ [قنطارا] : المال الكثير.
[بهتانا] : كذبا.
21 [أفضى] : الإفضاء الى شيء هو الوصول اليه بالملامسة.

المرأة والمجتمع حقوق وعلاقات

هدى من الآيات :

من الحقــوق الثابتة للمــرأة الحصــانة عن القــذف والتهمة ، ذلك أن رأسمال المرأة سـمعتها وعفتها ونظافة حصنها ، ولا بد أن تبقى هـذه السـمعة مصـونة من ألسـنة العابثين.

الا إذا اخترقت حجاب العفة ، ومارست الفاحشة علنا ، وبصـورة جلبت أنظـار أربعة شـهود من المؤمـنين آنئذ يجب ان تحجز بعيـــدة عن أصـــحاب الشـــهوات الـــذين يتخذونها سلعة ومتاعا رخيصا.

وابعاد المرأة عن ممارسة الفحشاء ، وتوفـير حاجاتها من بيت المال ، حق آخر من حقوقها على المجتمع.

وبمناسـبة الحـديث عن القـذف ، ولأنه جريمة تشـتهر في المجتمعات الجاهلية ، ويستهين بأبعادها النــاس ، فقد ذكر القـرآن التوبة ، وبين ان بـاب التوبة مفتـوح لمن أراد أن يدخله ، ولكن بشـرط أن يسـارع اليه قبل ان يحضـره الموت ، فاذا حضره

فان التوبة لن تقبل.

بعد حق الحصانة الاجتماعية بيّن القرآن مرة اخرى حق المرأة في الملكية وحرمة أكل إرثها جبرا ، أو الضغط عليها لتتنازل عن بعض مهرها للزوج كما بين حق العشرة المعروفة معها بالرغم من سلبياتها.

وعاد وبيّن حق المرأة في المهر بمجرد الزوجية ، وانه لا يحق للزوج استرجاع المهر ان أراد أن يطلقها.

وعموما : يتحدث هذا الدرس عن جانب من حقوق المرأة بالنسبة الى علاقتها الزوجية والاجتماعية.

بينات من الآيات :

التشريعات حصن المجتمع :

[15] اهتمام الإسلام بالاسرة يفوق اهتمامه بأية روابط اجتماعية (غير المبدئية) ، لأنها الإطار الطبيعي المتين للتعارف والتعاون والتفاعل من أجل بناء حضارة الإنسان ، ولكي يحافظ الإسلام على الاسرة حصّنها بسور منيع من الانظمة والتعليمات ، ومن أهمها تحريم الفاحشة والقذف.

فلا يحق للمرأة في أي وجه من الوجوه أن تتجاوز حدود الاسرة ، وبينها هو بين الزوج في علاقاتها الجنسية أو العاطفية.

وإذا امتنعت الأنثى عن تعاطي الجنس اللامشروع ، فان الرجل يضطر الى أن يبحث عن الزواج المشروع ، وان يقدم في سبيله الكثير من التنازلات ، وبالتالي أن يحافظ على كرامة المرأة من جهة ، وعلى متانة الاسرة وقوتها وتماسكها من جهة

ثانية.

وإذا سقطت المرأة في أحضان الفاحشة فان عقوبتها التي ذكرها القرآن في هذه الآية هي حجزها في البيت ، لماذا؟

لأنها تجاوزت حدود البيت حين منحت الحرية ، فمن الطبيعي ان تعاد الى هذه الحدود جبرا ، ولأنها إذا تركت حرة بين الناس فان رجالا كثيرين قد يسقطون في أحضان الجريمة ولا يجدون دافعا قويا للزواج ، وبالتالي فان نساء كثيرات يحرمن من نعمة الزواج ، وأسر كثيرة تتحطم على صخرة الفاحشة.

من هنا فان الوسيلة الجيدة هي حجز المرأة الزانية في البيت.

(**وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**)

والتعبير القرآني يستخدم كلمتين (يأتين) و (استشهدوا) للدلالة على ان المرأة التي تعمل الفاحشة فعلا ، والتي تتعاطى في المجتمع هذه الجريمة على عين السلطة وسمعها ، انها مع ذلك لا تعاقب بمجرد وجود أدلة خفية على جرمها بل يجب ان تكون هناك أدلة ظاهرة ، فيستشهد عليها أربعة من المؤمنين أي يطلب منهم الأدلاء بشهاداتهم ليكون العقاب بعد حجة ظاهرة.

وهذا يفسر ضرورة توفر شهادة أربعة من الرجال في هذه الجريمة التي تعتبر عادة من الجرائم الخفية ـ خصوصا في أجواء المجتمع الاسلامي ، حيث ان شهادة هؤلاء انما هي ممكنة بحق المرأة المعلنة بالفاحشة ، واما التي تسقط مرة ثم تتوب فلا يمكن عادة ان يلاحظها أربعة من الشهود.

والسبيل الذي أشار اليه القرآن في نهاية الآية : (**أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**) : هو

اقامة الحد عليها واطلاق سـراحها كبـديل عن حجزها في البيت.

حرمة القذف :

[16] ولكي يعطي القـرآن حصـانة للأسـرة وللمـرأة بالـذات ، ولكي يسـتر على السـقطات الجنسـية الـتي قد تتعرض لها نساء شـريفات ، ولكي يقضي على الشـائعات الجنسـية الـتي يتسـلى بها خبثـاء النفـوس في سـهراتهم الليلية ويستعرضون بها عن حرمـانهم الجنسي أو عقـدهم الاجتماعية.

لكل ذلك حرّم وعاقب على القـذف بالزنا ما لم يصل الى مستوى شهادة أربعة من الرجال وقال :

(**وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَأَصْـلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً**)

الأذى قد يكون بأشهارهما أمـام النـاس ، أو بضـربهما بالسياط ، أو حتى بسـجنهما أو تقريعهما من قبل الحـاكم وهكذا.

لمن التوبة؟ وكيف؟

[17] ولان القذف والتهمة بالسقطات الجنسـية تكـثر في المجتمع ، ويمارسها كثير من الناس في بعض فـترات حياتهم ، لـذلك فقد اسـتعمال القـرآن المؤمـنين ودعـاهم الى التوبة وقال :

(**إِنَّمَا التَّوْبَـةُ عَلَى اللـهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السُّـوءَ بِجَهالَـةٍ ثُمَّ يَتُوبُـونَ مِنْ قَـرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُـوبُ اللـهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**)

ثم قال :

[18] (**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**)

فهناك صنفان من الناس : صنف يتوب بسبب روحه الايمانية ، وتذكره عذاب الله وخوفه وتقواه ، وصنف لا يتوب إلّا بعد اضطراره الى التوبة ، والتوبة تقبل فقط من الصنف الاول.

وليس هناك صنف ثالث ، ذلك لان الذين يسوّفون التوبة ويؤجلونها من يوم لآخر ، انهم لا يضمنون حياتهم حتى يتوبوا قبل موتهم بأيام مثلا ، كلا بل لا يصدقون بالموت إلّا حين يحضرهم فعلا وهناك لا تنفعهم التوبة.

ومثل هؤلاء مثل الكفار الذين يؤمنون قبل موتهم بلحظات ، ولذلك ساقهم القرآن بعصا واحدة مع الكفار فقال :

(**وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

من حقوق المرأة الزوجية :

[19] في حصن الأسرة يجب ان تسود العدالة ، لأنها لو سادت في الاسرة استطاعت ان تسود في المجتمع كله وأبرز مظاهر العدالة المحافظة على حقوق المرأة في حياتها وبعد موتها ، فلا يمكن خلط حسابها مع حسابه حتى يلتهم أموالها بعد موتها ، انه لا يرث إلّا جزءا من مالها قد لا يتجاوز الربع ، فلا يجوز أن يأكلها جميعا.

كما لا يجوز الضغط على المرأة حتى تتنازل عن بعض حقوقها أو كلها في

سـبيل إنقـاذ نفسـها من إرهـاب الـزوج الوحشي (هنـاك قـانون في الطلاق يسـمى بـالخلع ويكـون ذلك بعد تنـازل المرأة عن مهرها لقاء فك سـراحها) كما لا يجـوز له أيضا أن يرث نكاح النساء كما هو المعمول في الجاهلية.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسـاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَ**)

يبدو لي ان التعبير (لتـذهبوا ببعض) يـوحي بـالطلاق ، لان كلمة الـذهاب به يـدل على الابتعـاد مع الشـيء مثل ذهب السارق بالمال.

(**إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**)

هنالك يحق للزوج ان يضغط على زوجته حتى تتنـازل عن بعض مهرها ويطلقها ، وذلك جزاء خيانتها به.

ومن الحقـوق الثابتة للمـرأة أن تعاشر بـالمعروف ، فتعطى لها الحقوق التي يراها العرف وبالقدر الذي يحكم به ، والا تخضع حقوق المرأة للانفعالات المؤقتة.

(**وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**)

إن النظـام الاسـلامي يعتمد في كثـير من تفصـيلات تشـريعه على العـرف العـام بعد أن يضع إطـارا عاما له معتمـــدا على القيم الرســالية ، وفي عشـــرة الزوجة وحقوقها اعتمد التشريع الاسـلامي على العـرف ليحـدد ما هي المعاشرة السليمة.

[20] الصداق الذي يقدمه الـزوج هل هو رهن في يد الزوجة مقابل استمرار عقد الزواج فـاذا أرادت الزوجة أو الزوج فسخ العلاقة الزوجية يستعيد الزوج

الصداق؟!

كلا ... بل هو تصـديق على صـدق الـزوج في ادعـاء الزواج ، وبناء الاسرة وعليه فـان المهر يصـبح ملكا كـاملا للزوجة بمجـــرد الـــدخول بها ، ولا ولا يحق للـــزوج أن يسترجع المهر أنى كان كثيراً إذا أراد أن يطلقها.

(**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْـــتِبْدالَ زَوْجٍ مَكـــانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً**)

[21] (**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَـهُ وَقَـدْ أَفْضى بَعْضُـكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**)

أي كيف يحق لكم أخـــذه بعد إتمـــام العملية الزوجية بالـدخول الـتي كـانت مقابل المهر في العقد ، واتخذ عليه الميثاق.

وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كـانَ فاحِشَـةً وَمَقْتـاً وَسـاءَ سَـبِيلاً (22) حُـرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهـــاتُكُمْ وَبَنـــاتُكُمْ وَأَخَـــواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ وَبَناتُ الْأَخِ وَبَنـاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهـاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَـواتُكُمْ مِنَ الرَّضـاعَةِ وَأُمَّهـاتُ نِسـائِكُمْ وَرَبـائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُـورِكُمْ مِنْ نِســائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَـإِنْ لَمْ تَكُونُـوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنــاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ

23 [ربــائبكم] : الربــائب جمع ربيبة وهي بنت زوجة الرجل من غــيره وسميت بذلك لتربيته إياها.
[حلائل] : الحلائل جمع الحليلة وهي بمعنى المحللة مشتقة من الحلال.

مِنْ أَصْــلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُــوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَــدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُـوراً رَحِيمـاً (23) وَالْمُحْصَـناتُ مِنَ النِّسـاءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمـانُكُمْ كِتـابَ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْـرَ مُسـافِحِينَ فَمَا اسْـتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِنْهُنَّ فَـآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَـةً وَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَـيْتُمْ بِـهِ مِنْ بَعْـدِ الْفَرِيضَـةِ إِنَّ اللـهَ كـانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً (24) وَمَنْ لَمْ يَسْــتَطِعْ مِنْكُمْ طَــوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَــناتِ الْمُؤْمِنــــاتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمــــانُكُمْ مِنْ فَتَيــــاتِكُمُ الْمُؤْمِنـاتِ وَاللـهُ أَعْلَمُ بِإِيمـانِكُمْ بَعْضُـكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَلا مُتَّخِذاتِ

---

25 [المحصنات] : من حصنت المرأة فرجها من الفجور والسفاح يقـال أحصن الرجل زوجته ، أي حفظها من الفجور ..
[مسافحات] : من السفاح وهو الزنا وأصله من السفح وهو صب الماء

أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْـفُ ما عَلَى الْمُحْصَـناتِ مِنَ الْعَـذابِ ذلِـكَ لِمَنْ خَشِـيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (25) يُرِيدُ اللـهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْـدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُـوبَ عَلَيْكُمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللـهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الشَّـهَواتِ أَنْ تَمِيلُـوا مَيْلاً عَظِيمـاً (27) يُرِيـدُ اللـهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (28)

لأنه يصب الماء باطلا.

[طولا] : الطول الغنى وهو مأخوذ من الطول خلاف القصر شبه الغـنى به لأنه ينال به معالي الأمور.

[أخدان] : جمع خدن وهو الصديق.

[العنت] : الجهد والشدة من جهة ترك الزواج.

المحرمات الزوجية ومفهوم الزواج

هدى من الآيات :

في هـــذا الـــدرس ينظم التشـــريع القـــرآني الحكيم العلاقة الزوجية بين الـــذكر والأنـــثى ، فيـــبيّن النســـاء المحرمات ابتداء بزوجة الأب وانتهاء بالجمع بين الأختين ، أو التفكير في الزواج من امرأة ذات بعل.

ثم تتحـدث الآيـات عن العلاقة المشـروعة بين الـذكر والأنـثى الـتي تتم عن طريق الـزواج كعقد يتراضى عليه الطرفـــان ، وان من الضـــروري الالـــتزام بكافة بنـــوده ، وليست الزوجية امتلاكا للأنـثى من قبل الـذكر كما كـان يتصوره الجاهليون.

وتتحدث عن الزواج من الإماء ، وكيف يجب ان تنظم العلاقة معهن حتى لا تتحـول الامة الى باغية بحكم حاجتها الى المـــال والى الحماية الاجتماعية بســـبب انها امـــرأة غريبة عن المجتمع المسلم.

ويشـدد الإسـلام على ذلك في الآيـات الثلاث الاخـيرة من الدرس حين يقول :

ان هذه التشريعات هي عمـاد حضـارتكم ، وان الاسـتهانة بها يهدد كيانكم بالدمار كما فعل بالذين كانوا من قبلكم.

ويـبين ان التشـريع الاسـلامي تشـريع واقعي يلاحظ ضـعف الإنسـان ، وحـدود قدراته على الضـبط ، وانه لو لا واقعية هـذا التشـريع لانهـار كثـير من النـاس في بـؤرة الفساد واتباع الشهوات.

بينات من الآيات :

النساء المحرمات ...

[22] كـانت العـادات الجاهلية تقضي بتـوريث زوجة الأب لأكبر أبنائه ، وكأنها سـلعة من السـلع ، فجـاءت الآية الأولى من آيات تنظيم العلاقة الزوجية في هذا المجال :

(**وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آبـاؤُكُمْ مِنَ النِّسـاءِ إِلَّا ما قَـدْ سَلَفَ**)

اي ما ســلف منكم في الجاهلية ، فانه بــالرغم من حرمته يعتـبر نكاحا في ذلك العـرف ولا يوصم أبنـاء هـذا النكاح بأنهم أولاد زنا ، أما الآن فيجب الفـراق والابانة بين الزوجين.

وبيّن القــرآن ان هــذا النكــاح عمل جنسي حــرام (فاحشــة) وانه يجلب الــذل والهــوان (مقت) وانه ليس السبيل السوي في العلاقة الزوجية.

(**إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً**)

ان الحاجة الجنسية تجري في الإنسان كالسـيل تكـاد تتـدفق من جوانبه ، فلو لا وجـود قنـوات تمتصـها وتنظم مسيرتها لفاضت في كل اتجاه ، ونشأت منها

الصراعات والخلافات وهدمت الاسرة الواحدة.

وقد جعل الله في الإنســـان وفي مـــوازاة الحاجة الجنســية الهائلة جعل حـــواجز الحيــاء الفطــري لتمنع الفوضى الجنســية ، ولكي يـدعم الحيـاء الفطـري وضع قوانين شـرعية منظمة لهـذه الحاجة ، وحرمة زوجة الأب على الابن من تلك القــوانين ، ذلك لأنها ترفع الزوجة الى درجة الام ، وتجعلها مصونة من حاجات الأولاد الجنســية ، وبالتالي من صراعاتهم عليها ، ومن معـاملتهم لها كسـلعة تورث.

ومن هنا قـــال الله انه مقت يـــورث الهـــوان ، لأنه تحطيم لكرامة المرأة ، وهدر لحق الأب.

فلسفة التحريم :

[23] ويسـرد القـرآن المحرمـات من النسـاء وهن : القريبات في الطبقة الاولى والثانية ، وفلسـفة الحرمة ان ذلك الـزواج يهـدد الاسـرة بالخلافـات الداخلية ، ويسـبب شيوع علاقات فاحشة بين الأقارب في الاسـرة الواحـدة ، ويسبب نقل الأمـراض الوارثية بشـكل فظيع الى الأجيـال التالية ، ويسبب بالتالي ضـعف النسل البشـري الى درجة خطيرة ، وتحول نظرة الأقـارب في الاسـرة الواحـدة من نظرة تعاون بنّاء الى نظـرة جنسـية شـاذة وهكـذا .. قـال ربنا :

(**حُــرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهــاتُكُمْ وَبَنــاتُكُمْ وَأَخَــواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخــالاتُكُمْ وَبَنــاتُ الْأَخِ وَبَنــاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهـاتُكُمُ اللاّتِي أَرْضَـعْنَكُمْ وَأَخَـواتُكُمْ مِنَ الرَّضـاعَةِ وَأُمَّهاتُ نِسـائِكُمْ وَرَبـائِبُكُمُ اللاّتِي فِي حُجُـورِكُمْ مِنْ نِســائِكُمُ اللاّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَــإِنْ لَمْ تَكُونُــوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ**)

بنت زوجة الإنسـان (من غـيره) محرمة عليه إذا دخل بأمها ، فلا يحق له ان

يستعيض زوجته بابنتها من أب غـيره بعد ان تكـبر وتكـون صالحة للزواج.

ان ذلك يشـــكل اهانة بحق الزوجة حيث ان الــزوج ، يريد منها ان تكون فقط اداة لإشباع غرائزه وحين استنفذ حاجته منها استبدلها ببنتها المولودة من غيره.

اما قبل ان يـــدخل بها فـــان ذلك يجـــوز لأن هـــذه الفلسفة لا تحكم فيه.

ولا يجـوز ان يـتزوج الإنسـان من زوجـات ابنائه لأنهن يصبحن بحكم بناته ، ولا يجـوز ان ينظر الأب إليهن نظـرة جنسية حتى لا تنمو الكراهية في الاسرة الواحدة ، وتؤدي الى الصراعات العائلية.

(**وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ**)

أما الابن المتبنى فانه يجـوز لأبيه (بـالتبني) ان يـتزوج زوجته بعد طلاقها ، خلافا للاعـراف الجاهلية الـتي نسـخها القرآن الحكيم في قصة «زيد» ابن رسـول الله بـالتبني ، حيث طلق زوجته زينب فزوجها الله لرسوله.

(**وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ**)

لما في ذلك من إثارة للصراعات في الأسرة الواحدة بسبب تنافس الضرتين في ود الـزوج ، ويتحـول التنـافس الى خلاف بينهما ينعكس بالتالي على اسرتهما.

(**إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ**)

في الجاهلية.

(**إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**)

[24] لا يجـــوز للإنســـان ان ينظر بريبة الى زوجـــات الناس اللاتي دخلن في

حصن الزواج وحريم البيت ، فان ذلك يهدد البناء الاسـري للمجتمع ، ويجر اليه رياح الفوضى والخلاف.

ان الرجل الذي يعـتز بماله وجماله ويحـاول ان يخـدع نساء الآخرين لا بد ان يعرف ان في المجتمع من هو أكـثر مالا وأروع جمالا ، وارفع شهرة منه ، وانه من الممكن ان يطمع في زوجته فهل يرضى؟

(**وَالْمُحْصَـناتُ مِنَ النِّسـاءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمـانُكُمْ كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ**)

ان كتاب الله يشهد عليكم لو انكم تجاوزتم حدود الله في المحرمـات من النسـاء ، حيث لا يجـوز مباشـرتهن الا في حدود احكام الله بالعقد أو بملك اليمين.

(**وَأُحِـلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُـوا بِـأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ**)

اي يحل لكم إنشـاء علاقـات جنسـية بهـدف تكـوين اسرة ، والدخول في حصن الزوجية ، وفي حصانة العلاقة الجنسـية المسـتقرة ، لا بهـدف السـفاح والهبـوط الى مستوى البهائم ، وسفح مـاء الحيـاة في كل ارض صـالحة أو طالحة.

ان الهـــدف من اي عمل هو الـــذي يحـــدد طبيعته وصـــبغته ، وحســـنه وقبحه ، وحرمته وحلّيته ، والعلاقة بهـدف تكـوين الاسـرة هي علاقة جيـدة ، حـتى ولو كـانت مؤقتة مثل المتعة الــتي اســتدل طائفة من المفســرين جوازها انطلاقا من هذه الآية.

شرعية الزواج المؤقت

الزواج المـؤقت (المتعـة) يختلف عن الزنا في انه ذو هدف شريف ، وهو أشبه شيء بالزواج والطلاق بعد فترة لظروف طارئة. بيد ان المتعة تأخذ تلك الظروف

بعين الاعتبـــار وتقصر فـــترة العقد منذ البداية ، مثل ان يكون الرجل مسافرا (للدراسة أو للعمل) الى بلد بعيد ولا يســـتطيع ان يجلب اليه زوجته كما لا يريد ان يســـتوطن ذلك البلد الى الأبد ، فـاذا أراد البقـاء هنـاك لمـدة خمس ســنوات مثلا فالأفضل له ان يــتزوج خلال الفــترة زواجا بهدف بناء الاسـرة ، وانجـاب وتربية الأولاد ، ولكن محـدد بفترة معينة.

وبــدلا من ان يلعب على المــرأة ويوعــدها بــالزواج الدائم ثم يفترق عنها بسبب قهر الظروف فانه منذ البــدء يصارحها بالحقيقة حتى تكون على بيّنة من أمرها.

والقـانون الاسـلامي الـذي شـرع الطلاق لا يمكنه ان يشرع الزواج المؤقت لأنه في المحتوى يتشابه مع الزواج ثم الطلاق لذلك قال الله تعالى :

(**فَمَا اسْــتَمْتَعْتُمْ بِــهِ مِنْهُنَّ فَــآتُوهُنَّ أُجُــورَهُنَّ فَرِيضَةً**)

حيث شرع المتعة بهذه الآية حسب تفسير ابن عباس والســري وابن سـعيد وجماعة من التـابعين والصـحابة ، ولكنه اشترط فيها شرطين ،

الأول : ارادة الزواج وليس السـفاح وبتعبـير آخر : ان يكون التزاما ببناء اسرة.

الثـــاني : ان يــدفع الرجل كامل المهر للزوجة ، وان يضع لها مهــرا واجبا عليــه. نعم إذا تنــازلت المــرأة عن مهرها طواعية جاز لها ذلك.

(**وَلا جُنــاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَــيْتُمْ بِــهِ مِنْ بَعْــدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً**)

فلسفة الرق :

[25] قـــانون الـــرق في الإســـلام يختلف عنه في التشريعات الجاهلية اختلافا

كبيرا ، وابـرز نقـاط الخلاف ان القـانون الاسـلامي يحـرم الاســترقاق القســري أو الطــوعي للأحــرار الا في حالة واحـدة هي اسـرى الحـرب الـذين وضع الإسـلام امـامهم طريق الاسترقاق لتـذويبهم في المجتمع المسـلم بصـورة تدريجية ، ومن دون وجود مضاعفات سلبية.

ان الأسـير الـذي يفـترض ان يكـون معتـديا على امن الـوطن الاسـلامي ، ومحاربا سـابقا ضد الامة المسـلمة لا يمكن ان يطلق ســراحه في البلاد الاســلامية ليعيث فيها فســادا ، بل لا بد ان يمر بـــدورة تربوية تؤهله ليصـــبح مواطنا صالحا للبلاد الاسلامية ، وعضـوا بنّـاء في المجتمع المسلم.

اين توجد هـذه الـدورة التربويـة؟ هل تسـتطيع الدولة الاســلامية ان تؤسس آلاف المعســكرات (وبتعبــير آخر المعتقلات) وتحتفظ فيها بهـؤلاء الأسـرى؟ وهل ينجح هـذا الأسـلوب لو فعلت؟ كلا .. ان الـدورة الجيـدة هي إعطـاء الأســير جــزءا من حريته ، وربطه بواحد من المســلمين وإعطــاء حق التوجيه لــذلك المســلم وتشــجيعه على ان يصبح عضوا جيـدا لإعـادة كامل حريته اليه ، وأخـيرا تزويد مــولاه بالوصــايا المؤكــدة لرعاية حقوقه ، بل بــالأوامر المشددة تحت طائلة العقوبة القانونية.

وبهذه الطريقة استطاعت الامة الاسلامية اسـتقطاب الشعوب الـتي فتحت بلادها في فـترات متعاقبة ، بـالرغم من ان تلك الشعوب كانت أضـعاف عـدد الامة ، وتحـولت في فـترة وجـيزة الى جـزء من الامة حملت رسـالتها الى آفاق جديدة.

ان المقاتل العدو الـذي أسر في هـذا العـام مثلا كـان يتحول في العـام المقبل الى قائد اسـلامي لموجة جديـدة من الفتوحـات ، وربما في بلاده هو وضد رفـاق السـلاح ، كيف كان ذلك ممكنا لو لم تكن هناك دورات تربوية داخل كل بيت وكل

اسرة يتأثر الأسير بها فيتحول الى مؤمن صادق.
وبالطبع لا تفلح التربية الا بإشراف المربي ، وهـذا هو هدف الإسلام من إعطاء حقـوق معينة للمـولى على العبد ومن تلك الحقـــوق حق زواج الامة ممن يـــراه المـــولى صالحا.
ولكن من جهة اخرى يفرض قيودا على الزوج ، ويهدد علاقته الزوجية وبنائه الاسري للخطر.
لذلك نصح الإسلام عدم الزواج من الإماء الا في حالة الاضطرار وقال :
(**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِنـــاتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمـــانُكُمْ مِنْ فَتَيـــاتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ**)
ليس من الصحيح تصور ان الاسـيرة لم تصـبح مؤمنة ايمانا حقيقيا ، بل ايمانا ظـاهرا بسـبب مغريـات الايمـان ، ويقول القـرآن ليس هـذا التصـور صـحيحا : إذ ان الله هو العالم بحقيقة الايمان.
وأما النـاس فلو أرادوا ان يتعـاملوا مع بعضـهم بهـذا المقياس ، إذا لسرى الشك الى كل إنسان ولا يمكنهم ان يتعاونوا أبدا ، انما علينا ان نلاحظ ظواهر الايمان ، كما انه ليس من الصحيح الاعتقـاد بـأن الاسـيرة ذات عنصر أدنى من العنصر العربي ، لأن الله خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، والناس بعضهم من بعض.
(**وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**)
ولكن الـزواج يجب ان يتم بـإذن أهلها باعتبارها عبـدة مملوكة لمولاها ، وباعتبـــار انها جديـــدة العهد بالتقاليد الاسلامية ، ولربما كانت في بلادها تمارس

الفاحشة حسب تقاليدها ، ويخشى ان يتخذها المفسـدون سـلعة للهـوى ، واشـاعة الفاحشة في البلاد الاسـلامية مسـتغلين ظروفها المعيشـية ، وعاداتها الخلقية ، وحداثة عهدها بـالقيم الاسـلامية ، من هنا ركز الإسـلام على هـذه الحقيقة وقال :

(**فَـانْكِحُوهُنَّ بِـإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُـوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ مُحْصَـناتٍ غَيْـرَ مُسـافِحاتٍ وَلا مُتَّخِـذاتِ أَخْدانٍ**)

يحذر القرآن من تسيب الاسيرات وتحولهن الى بنات هوى في المجتمع الاسلامي ، ولكنه من جهة اخـرى خفف العقـاب عنهنّ لو فعلن الفاحشة ، لأنهن جديـدات عهد بـالقيم الاسـلامية ، ولظـروفهن المعيشـية والاجتماعية الخاصة التي تساعد على الفاحشة ، وقال الله :

(**فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ**)

وعـاد القـرآن ليـبين ان الـزواج من الاسـيرة محـدود بظرف الاضطرار وقال :

(**ذلِكَ لِمَنْ خَشِـيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْـبِرُوا خَيْـرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

كيف ننظر الى التاريخ؟

[26] هـذه شـرائع الله يبينها للنـاس لكي يفتحـوا أعينهم ، ويبصروا دربهم بوضوح ، ذلك الدرب الذي مشى عليه السابقون الصالحون فبلغـوا اهـدافهم ، وتنكب عنهم الفاسقون فسقطوا في جهنم.

ان اسـتخلاص تجـارب التـاريخ ، وإعطـاء رؤية حياتية منبثقة من حقائق التـاريخ هو من أهم ما يقـوم به القـرآن الذي فيه خبر من قبلنا كما يقول الرسول

الأكرم محمد (ص).

وعلى المـؤمن ان يتسـلج بمنظـار القـرآن ، ثم ينظر الى احداث التـاريخ ليعـرف فلسـفة أحكـام الـدين ، حـتى يربي نفسه على الأعمـال الصـالحة ، ويتـوب الى الله من سيئات اعماله.

(**يُرِيـدُ اللـهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْـدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

[27] هذا ما يريده الله ، أما ما يريده الغـاوون الـذين يتبعون أهواءهم ، ويسترسلون مع شهواتهم دون حكمة أو علم ، ولا ينظرون الى تجارب الأولين ليتخذوا منها العـبرة والموعظة ، فإنهم يريدون ان يفرط الإنسان تفريطا ذات اليمين أو اليسـار ، ويـذهب بعيـدا في انحرافه عن جـادة الحق المستقيمة.

(**وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً**)

ميزات التشريع الاسلامي :

[28] وإذا مـال الإنسـان الميل العظيم ، فانه سـوف يحمل مآسي وويلات أكبر من طاقاته ، والإنسـان ضـعيف لا يحتمل الصعاب.

اما منهج الله فهو يحافظ على استقامة الإنسان على الطريق السوي حتى لا يكلف أكثر من طاقته.

(**يُرِيـــدُ اللــهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِــقَ الْإِنْســانُ ضَعِيفاً**)

في هــذه الآيــات الثلاث بيّن الله مــيزات التشــريع الاسلامي بتلخيص وهي :

أ/ انه تشريع واضح مبين.

ب / انه تشـريع يعتمد على رصـيد ضـخم من التجربة التاريخية.

ج / انه يربي الإنسان ويخلصه من سلبياته.

د / انه متين ومستقيم وبعيد عن الانحرافات.

ه / انه تشريع واقعي يلاحظ طبيعة الإنسان الضعيف.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِـلِ إِلاَّ أَنْ تَكُــونَ تِجــارَةً عَنْ تَــراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُــوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللـهَ كـانَ بِكُمْ رَحِيمـاً (29) وَمَنْ يَفْعَـلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَـوْفَ نُصْـلِيهِ نـاراً وَكـانَ ذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيراً (30) إِنْ تَجْتَنِبُـوا كَبـائِرَ ما تُنْهَـوْنَ عَنْـهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئاتِكُمْ وَنُـدْخِلْكُمْ مُـدْخَلاً كَرِيمـاً (31) وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّـلَ اللـهُ بِـهِ بَعْضَـكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجـالِ نَصِــيبٌ مِمَّا اكْتَسَــبُوا وَلِلنِّســاءِ نَصِــيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـئَلُوا اللـهَ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّ اللـهَ كـانَ بِكُـلِّ شَــيْءٍ عَلِيمــاً (32) وَلِكُــلٍّ جَعَلْنا مَــوالِيَ مِمَّا تَــرَكَ الْوالِدانِ

---

33 [مــوالي] : أصل المــولى من ولي الشــيء يليه ولاية وهو اتصــال الشيء بالشيء من غير فاصل.

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمـانُكُمْ فَـآتُوهُمْ نَصِـيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(33)

الإنسان ومنطلقات العمل

هدى من الآيات :

الحلقة الاولى في المجتمع الاســـلامي هي الاســــرة الــتي تحــدثت عنها الآيــات الســابقة ، حيث بينت حقوقها وأنظمتها ، أما الحلقة الثانية فهي المرتبطة بســـائر أبنـــاء المجتمع الــذين نظم القــرآن علاقــات بعضــهم ببعض عــبر كثير من سور القرآن ، ولكن أشار الى بعضــها هنا لتكتمل الصورة ، ولكي لا يقتصر الحــديث عن الحقــوق في اطــار الاســرة الصــغيرة ، بل تتعــداها الى الاســرة الكــبرى وهي المجتمع.

والحقوق الاجتماعية هي :

حرمة المال ، حرمة الدم ، والوفاء بــالعقود ، وتكــافؤ الفرض ، واحترام الميزات ...

وتحدث القرآن أولا عن حرمة المال (احــترام الملكية الخاصة) ثم عن الدم ، لان الاعتداء على المال هو السبب المباشر للاعتداء على النفس غالبا.

وبيّن القرآن ان المحرمات الاجتماعية هي أهم وأكـبر ذنب من المحرمات الاخـرى ، وأن الـذي يتجنبها يكفر الله عنه سـيئاته الاخـرى ، ذلك لان الالـتزام بهـذا الجـانب من الـدين أصـعب كثـيرا من الالـتزام بـالجوانب الشخصـية ، ولذلك تجد الكثير من الناس يفرغـون الـدين من محتوياته الاجتماعية تماما ، فاختص التحذير من قبل الله بهم ...

وفي الآية الاخـيرة ذكّرنا الله بـالإرث ، باعتبـاره سـببا من أسباب التفاضل في المجتمع المسلم ...

بينات من الآيات :

حرمة المال والنفس :

[29] الإنسان محترم ، ويحترم كل ما يمت بصلة اليه ، والمــال جــزء من جهد الإنســان ، وبالتــالي جــزء من الإنسـان والاعتـداء عليه حـرام لأنه اعتـداء على كرامته ، ومن يعتد على كرامة النــاس فلا بد ان يســتعد لاعتــداء الآخرين عليه.

لــذلك تجد التعبــير القــرآني يوجه الخطــاب للجميع ويأمرهم باحترام حقوق بعضهم ويقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تَــأْكُلُوا أَمْــوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ**)

لأنه لو لم تحكم قيمة الاحــترام المــالي أوســاط المجتمع ، فان كل فرد سوف يعاني من الاعتداء في يــوم من الأيام ، إذن لندع أكل الأموال بالطرق الباطلة ...

والطــرق الباطلة هي كل ما ترفضه قيم الــدين ، ولا تكون خاضعة للتجارة المتراضى عليها ، فأكل الأمـوال أما بالقمار أو بيع الخمر والمخدرات ، أو بالاحتيال

والســـرقة والنهب باطل وحـــرام ، والاســـتثناء الوحيد هو التجارة بتراض وتعني أمرين :

الاول : أن تكـون تجـارة ، أي تـدويرا للمـال بـالطرق المشروعة (البيع ، الايجار ، الرهن) فلا يجوز أكل الأمـوال غصبا أو احتيالا.

الثـاني : أن تكـون هـذه التجـارة بعيـدة عن الإكـراه ، والجبر ، أو الغش والخداع ، لان ذلك يفقد شرط التراضي ....

وهــذه القاعــدة توضح ان كل العقــود التجارية الــتي يتراضى عليها الطرفان صحيحة حسب الرؤية الاسـلامية ، إلّا إذا خالفت شرطا أكيدا من الشروط المبينة في الــدين (كالتجارة بـالحرام) مما يعطي التشـريع الاسـلامي مرونة كافية لمواكبة تطور الحاجات الاجتماعية.

(**إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ**)

وبعد المال يـأتي دور النفس ، الـتي تبقى مصـونة إذا حافظنا على الحقـــوق المالية المتبادلة ، فـــالغني الـــذي يحافظ على حقوق الفقراء لا تتعـرض حياته للخطر لأنه لا يدع سببا لثورة الفقير وتمرده.

(**وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**)

ان الإنسان لا يصل الى درك الاعتداء على الأنفس إلّا إذا هبط اليه شـيئا فشـيئا بسـبب الاعتـداء على الأمـوال ، حيث يخلق في ذاته الكراهية والقلق وحب الجريمة ، وكثـيرا ما ينسـاق الى جريمة الاعتـداء على النفس لتعبيد الطريق أمام اعتدائه على المال.

(**إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً**)
فحرم عليكم الاعتداء على المال والنفس ليرحمكم ، وينجيكم من عذاب بعضكم.
[30] ومن يعتــدي على حقــوق النــاس (أمــوالهم وأنفسـهم) اعتـداء مع سـبق الإصـرار ، ويقـوم فعلا في اغتصاب حقوق الآخرين ، فان الله يعذبه عذابا أليما ...
(**وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**)

اجتناب الظلم غفران الذنب :

[31] إن الظلم الاجتماعي أشد الظلم ، وان اجتنـاب هـذا الظلم يشـفع للإنسـان في سـائر سـيئاته ، فمن لا يصلي ولكنه لا يعتدي على النـاس في أمـوالهم وأنفسـهم قد يشفع له التزامه بحقوق النـاس في غفـران ذنبه ، لان الهدف الأسمى من الصلاة زيادة الايمـان واحـترام حقـوق الناس ، أما من يصلي ويأكل أموال الناس أو يقتلهم فـان صلاته لن تنفعه ولن تشفع له ..
ان عمل الإنسان الصالح يشفع له في عمله السيء ، ولكن بشرط أن يكـون العمل الصـالح أكـبر من السـيئة ، قال الله تعالى : (**إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ**).
(**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ**)
مثل الشـــرك بالله ، وظلم النـــاس ، وقتل النفس المحترمة و... و... إلخ ...
(**نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ**)

أي نسترها. بعملكم الصالح ، حتى لا تحاسبوا عليها تماما كما يكفر الفلاح البذرة في الأرض ويجعلها تحت التراب ....

(**وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**)

ذلك المدخل الكريم هو الفلاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، ذلك ان الإنسان الذي يسيطر على أهوائه في الذنوب الصغيرة يوفقه الله للسيطرة على ذاته في الذنوب الكبيرة فتكون حياته كريمة ، والحياة الكريمة هي التي تتوفر فيها الحاجات الجسدية والنفسية معا ، وهذه الحياة سوف تساعد صاحبها على بلوغ الجنة.

والمدخل : الباب الذي يدخل الله عباده منه.

لا تحسد الآخرين :

[32] من عوامل الشقاء البشرى الحسد ، وهو صفة نفسية نابعة من قصر الرؤية وضيق الصدر ، حيث يزعم الإنسان ان نعم الله محدودة ، وان فرص الحياة قد انتهت ...

ولذلك فهو يتمنى لو يفقد الآخرون النعم ليحصل هو عليها ، بينما المفروض أن يفكر في الحصول عليها كما حصل أولئك عليها بالطرق المشروعة ...

وبالطبع يسبب الحسد عقدا نفسية مؤلمة تنعكس على السلوك فاذا بصاحبها يحاول مع الآخرين من التقدم والاستمتاع بالحياة.

ان التاجر المحتكر ، والسلطان الديكتاتور ، والرئيس المستبد ، والعالم العنيد ،

والفقير الكسول الـذي لا يفـتر عن اجـترار الآهـات ، انهم جميعا حسّاد يريدون استلاب ما في أيدي الناس.

ويضع الله لهؤلاء علاجا نفسيا عبر النقاط التالية :

إن الله هو الـذي فضل النـاس بعضـهم على بعض ، والله عادل لا يظلم ولا يسأل عما يفعل.

ان الله لم يفضل أحدا إلا بما اكتسبه بجهـده ، سـواء كـان رجلا أو امـرأة ، وأنت إذا أجهـدت حصـلت على ذلك الفضل مثله.

فبدلا من تمـني ما عند النـاس لمـاذا لا تتمـنى ما عند الله ، وتتحـرك أنت أيضا كما تحـرك أولئك الـذين فضـلهم الله وتجهد نفسك ، والله يعلم جهـــــــدك ويعطيك مثلما أعطاهم.

(**وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللـهُ بِـهِ بَعْضَـكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجـالِ نَصِـيبٌ مِمَّا اكْتَسَـبُوا وَلِلنِّسـاءِ نَصِـيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـئَلُوا اللـهَ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّ اللـهَ كـانَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**)

وإذا اسـتطاع المجتمع أن ينطلق من قاعــدة تكــافؤ الفرص ، والاعتقاد ، بأن كل من يعمل يحصل على نصـيبه فان تناحره وتباغضه يتحول الى تنافس بناء يخدم الجميع.

الإرث عامل تفاضلي :

[33] وقد لا يكـون الفـرد قد اكتسب شـيئا بنفسه ، ولكنه ورث والـده الـذي حصل على المـال بجهـده ، وقد فضل الله الابن على الآخـــرين في الـــرزق كرامة لأبيه ، وتشجيعا له وللآخرين أن يعملوا وينشطوا في الانتاج.

من هنا عاد القرآن وذكر الإرث باعتباره من عوامل التفاضل الاجتماعي وقال :

(**وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ**)

أي أورثنا كل إنسان مواليه الذين هم اولى الناس به ، وتشجيعا له على العمل وبذلك أعطينا تركة الوالدين والأقربين لألصق الناس بهم.

(**وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ**)

وهذه الفئة هي التي تمت للعائلة بصلة عن طريق عقد التحالف ، فأمر القرآن أن يعطى لهم نصيب من الإرث حسب التعاقد. وتسمى هذه الفئة ب (ضامن الجريرة) وهي ترث وتورث حسب الاتفاق.

وفي الوطن الاسلامي الكبير حيث ينفصل الكثير من الناس عن مواطنهم الاصلية ، فيحتاجون الى اسرة ينتمون إليها ويتبادلون معها الحب والتعاون في شؤون الحياة ، هنالك شرع الإسلام قانون التحالف ، وتحدث هنا عن جانبه الاقتصادي حيث يصبح الفرد كواحد من أبناء الاسرة يرثها ويورثها ويضاعف هذا القانون من قوة التحالف والتماسك ، ويجعل للافراد مأوى اجتماعي يلجأون اليه في مواجهة صعوبات الحياة.

ولكن بما ان بعض الناس يمكن أن يخونوا تحالفهم مع هؤلاء الضعفاء لذلك حذر القرآن من ذلك وقال :

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**)

فلا تفكروا في نقض الميثاق ، ونكث الحلف.

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللـهُ بَعْضَـهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُـوا مِنْ أَمْـوالِهِمْ فَالصَّـالِحاتُ قانِتـاتٌ حافِظـاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِـظَ اللـهُ وَاللاَّتِي تَخـافُونَ نُشُـوزَهُنَّ فَعِظُـوهُنَّ وَاهْجُـرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَـإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُـوا عَلَيْهِنَّ سَـبِيلاً إِنَّ اللـهَ كـانَ عَلِيًّا كَبِـيراً (34) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَـابْعَثُوا حَكَمـاً مِنْ أَهْلِـهِ وَحَكَمـاً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (35) وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ

---

34 [نشوزهن] : النشوز الترفع على الزوج.
[اهجروهن] : اتركوهن.
[المضـاجع] : جمع مضـجع وهو محل النـوم وفراشه وأصل الضـجوع الاستلقاء.
35 [شقاق] : خلاف.

إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتـامى وَالْمَسـاكِينِ وَالْجـارِ ذِي الْقُـرْبى وَالْجـارِ الْجُنُبِ وَالصَّـاحِبِ بِـالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمـانُكُمْ إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ مَنْ كـانَ مُخْتالاً فَخُـوراً (36) الَّذِينَ يَبْخَلُـونَ وَيَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُـونَ ما آتـاهُمُ اللـهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَأَعْتَـدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (37) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَلا بِـالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّـيْطانُ لَـهُ قَرِينـاً فَسـاءَ قَرِينـاً (38) وَما ذا عَلَيْهِمْ لَـوْ آمَنُـوا بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللـهُ وَكـانَ اللـهُ بِهِمْ عَلِيمـاً (39) إِنَّ اللـهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُـؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ

---

36 [الجار ذي القربى] : القريب.

[الجار الجنب] : بالغريب.

[مختالا] : أصل المختال من التخيل وهو التصـور لأنه يتخيل بحالة مـرح البطر والمختال الصلف التياه.

أَجْراً عَظِيماً (40) فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (41) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً (42)

الحقوق الاجتماعية في القرآن

هدى من الآيات :

في هـذا الـدرس يـبين القـرآن الحقـوق والواجبـات الاجتماعية ، ابتـداء من الحقـوق المتبادلة بين الـزوجين ، ومرورا بحق الأقارب والمحرومين ، وانتهـاء بحق المجتمع في ثروة الأغنياء.

وفي الـدرس القـادم يتـابع القـرآن الحـديث عن حق العلم وواجب رجـال العلم عموما ، ورجـال العلم الـديني خصوصا ، تجاه العلم وتجاه المجتمع.

وخلال حديثه عن حقوق هؤلاء يوصينا القرآن بضرورة تحديـدها في اطـار القيم الاسـلامية ، حـتى لا يتحـول أي واحد منهم الى طاغوت اجتماعي يطاع من دون الله.

للـــزوج حقوقه ولكن في اطـــار طاعة الله ، وطاعة رســوله ، واولي الأمر ممن أمر الله بطــاعتهم ، وإذا أراد الــزوج تجــاوز هــذا الإطــار ، فعلى الزوجة أن تــرد عليه وتطـــرده بـــالقوة ، وإلّا فانها تصـــبح مشـــركة وعابـــدة للطاغوت ، لأن كل من أطيع من دون الله فهو طاغوت.

وكذلك للوالدين حقـوقهم بشـرط الّا يتبعهم المسـلم في كل ما زعمـوه ، أو فعلـوا من أفكـار أو أعمـال ، والّا فان الإحسان الى الوالدين يتحول الى عبادة ممقوتة لهما وشرك واضح.

وهكذا رجـال المـال لهم احـترامهم ، ولكن إذا بخلـوا بأموالهم فهم أسوأ النـاس ، وعلى المجتمع ان يسـقطهم من عينه ، حتى لا يصبح هؤلاء طبقة تستعبد الناس طغيانا وظلما.

وهكذا رجال العلم والـدين لهم حقـوقهم ، ولكن دون أن يصبح هؤلاء طبقة طاغية تعبد من دون الله.

بينات من الآيات :

لماذا قيمومة الرجل

؟ [34] لا بد للمجتمع من التنظيم ، ولا بد للتنظيم من قيم تحكمه ، وتحد من طغيانه وتجـــــاوزه ، ويبــــــدأ التنظيم في الاســـرة وبالـــذات في العلاقة بين الـــزوج والزوجة من يقود الآخر؟

ان اللاقيـادة فوضى يرفضـها الإسـلام ، كما ترفضـها الطبيعة ، حيث أن الله خلق الـــذكر بحيث جبل على حب القيــــادة ، بينما خلق الأنـــثى وفطرها على الانســـجام والطاعة.

ولـذلك حـدثت تجـاوزات من قبل الـذكر في حقـوق الأنثى ، وجاءت رسالات السماء لتحد من هذه التجـاوزات ، ولتضع حدودا حاسمة لقيادة الذكر للأنثى.

من هنا نســـتطيع أن نؤكّد أن إعطـــاء الإســـلام حق القيادة للرجل داخل

الاسرة ، ليس سوى تقرير للوضع القــائم فطريا ، فهو لم يبــدع حقيقة بل أقرّبها تمهيــدا لتنظيم القيــادة ، وتحديد اطار مناسب لها يمنع الزوج من تجاوزه.

القرآن يسمي النظام ب (القيـام) ، ويسـمي المنظم ب (القيم) و (القـائم بـالأمر) ، والقـائم يبـالغ فيه ويقـال قوام (مثل ضارب ، ضراب ، صائم ، صوام ، وهكـذا) وقد استخدم القرآن هنا كلمة قوام للتعبـير عن تحمل الرجـال لتنظيم شؤون نسائهم بشكل مستمر ، ويحمل هذا اللفظ معنى المسؤولية التامة عن شؤونهم.

(**الرِّجـالُ قَوَّامُـونَ عَلَى النِّسـاءِ بِما فَضَّـلَ اللـهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ**)

ويجيب القرآن على ذلك فيقول بسببين :

(1) بالجهد الذي يبذله هؤلاء ، ذلك الجهد الـذي يجعل بعض الرجــال أفضل من بعض في المــراتب الاجتماعية ، فبعضــهم يصــبح غنيا ، والبعض فقــيرا ، وبعضــهم يصــبح مفكرا ، والبعض عاملا ... وهكذا وكذلك الرجال أكثر جهدا وأصعب عملا من النساء. ولذلك تحملـوا المسـؤولية دون النساء.

ولأننا نقبل تفاضل الرجــال فيما بينهم بســبب الجهد الـــذي يبذله البعض دون الآخر ، فلا بد أن نقبل أفضـــلية الرجال على النساء لذات السبب.

(2) بالعطاء فعلى الرجال أن ينفقوا على النساء ، بل أن طبيعة الرجال وفطرتهم الصافية تـدفعهم الى الإنفـاق على النساء ، وقد بين التشـريع السـماوي هـذه الطبيعة ، وفرض على الرجال الإنفاق على النساء.

وبكلمة : المسؤول (والقائد والمنظم) يجب أن يكون الأكــثر جهــدا والأكــثر إنفاقا من النســاء ، ولــذلك فهم المسؤولون الطبيعيون عن الاسرة ، وسوف يفقدون هذه المسؤولية بقدر توانيهم عن العمل أو العطاء.

وإذا كـانت القيـادة للرجـال ، فعلى النسـاء الطاعة ، فالمرأة الصـالحة هي الأكـثر طاعة لله ولزوجها ، والأكـثر حفظا لفرجها الـــذي اختص به الـــزوج ، ولقد زوّد الله المرأة بالحياء الفطـري والعلاقة الرقيقة بـالزوج ، وأمرها بأن تحفظ نفسها عن التعلق بغير الزوج وقال :

(**فَالصَّالِحاتُ قانِتـاتٌ حافِظـاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِـظَ اللهُ**)

حافظـــات للغيب : أي تحفظ نفســـها عن الزنا في غياب الزوج.

اما إذا تجـاوزت المـرأة حـدها ، ولم تطع الـزوج في حقوقه ، بل بـدأت تنظر فيما وراء حصن الزوجية ، هنالك يعطي الإسـلام الحق للـزوج بـأن يفـرض النظـام على مملكته داخل الـبيت بـالقوة المتدرجة ، فيبـدأ بالنصـيحة ، ثم يبتعد عنها في الفراش ليشعرها بالوحـدة ، ثم يضـربها ضربا خفيفا (وقد جاء في الحديث يضربها بالمسـواك) كل ذلك ليعـبر عن انزعاجه وغضـبه من تصـرفاتها. ويبـدو أن المـرأة العادية تسـتجيب لهـذه العقوبـات ، وعليه فلا بد للزوج أن يقتصر عليها ، ولا يستخدم العقوبات في فـرض الظلم في الـبيت ، بل فقط في فـرض الحقـوق ، وليعلم الـزوج أن الله أكـبر منه ، وأنه لو ظلم الزوجة فـان الله سوف ينتصر لها.

(**وَاللَّاتِي تَخـــافُونَ نُشُـــوزَهُنَّ فَعِظُـــوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضـاجِعِ وَاضْـرِبُوهُنَّ فَـإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً**)

متى تبدأ مسئولية المجتمع

[35] متى تنتهي حـدود القيـادة الـتي منحت للـزوج ، وتبـدأ مسـئولية المجتمع حين يكـون الخلاف بينهما حـادا وجـذريا ، فلم يكن الخلاف في بضـعة حقـوق تقصر فيها الزوجة ، بل تهم متبادلة وحقـوق ضـائعة ، هنا لا يجـوز للزوج أن

يفرض وجهة نظره على البيت ، ويضيع حقوق الزوجة.

بل لا بد أن يتـــدخل المجتمع قبل أن ينتهي الأمر الى الطلاق ، وذلك بأن يبعث أهل الزوج وأهل الزوجة حكمين يتفاوضـــان في الأمر ، فـــاذا توصلا الى حل فرضـــاه على الـــزوجين ، وعلى هـــذين الحكمين أن يخلصا نيّتهما حـــتى يجمع الله بهما بين الـــزوجين مـــرة أخـــرى ، وإخلاص النية هو إرادة الإصلاح حقيقة.

(**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللـهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً**)

كيف تكون علاقاتك الاجتماعية

؟ [36] المجتمع الإسلامي يبنى على قاعـدة التوحيد والتحرر ، فهو لا يؤمن الّا بالله ، ولا يسلم الّا لمنهجه ، ولا يعترف بأية قوة ضاغطة أو عقبة في طريق تطبيق شرائع الله.

عبـادة الله هي التسـليم له ، وتفجـير كل الطاقـات وتوجيهها في قنوات منهجه.

والشرك بالله هو الخضوع لأية قيادة أخرى أو أية قوة اجتماعية من دون الله.

فالتسليم للوالـدين بصـفة مطلقة واتباعهما بلا قيد أو شرط ، شرك وعبودية لغير الله ، وعقبة في طريق تقـدم الانسانية وتطورها.

والتســليم للاســرة مثل التســليم للوالــدين شــرك وعبودية ، والتســليم للأغنيــاء شـــرك وعبودية وعقبة ، والتسليم لرجال الكهنوت ، أو رجال العلم شـرك وعبودية وعقبة.

والمجتمع المســلم متحـــرر من كل ذلك التســليم ، ومسلم وجهه لله الواحد

القهار ، ويردد مع إبراهيم ـ الأب الروحي لكل المجتمعات التوحيدية الخالصة ــ يــردد : (**إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**).

وفي هذه الآيات والآيات التي تأتي يبيّن القرآن نوع العلاقة التي يجب أن تحكم علاقتك بالناس ، ابتداء من أقاربك وانتهاء برجال الدين ، ومرورا بالمحرومين والأغنياء.

ويبدأ القرآن حديثه بالنهي عن علاقة الشرك ، التي تعني التسليم المطلق ، والأمر ــ بديلا عنه ــ بعلاقة الإحسان فما هي هذه العلاقة؟

انها علاقة العطاء من اليد العليا ، لا العطاء وأنت صاغر مكره ، والفارق بينهما : أنك في حالة العطاء باليد العليا لم تفقد شخصيتك ، ولم تتنازل عن عقلك وأرادتك واستقلالك وحريتك ، أما في الصورة الثانية فانك قد هبطت الى درك العبودية.

ان الذين يطيعون آباءهم بعلّة انهم آباؤهم سواء كان هؤلاء مهتدين أو ضالين لا يعقلون شيئا ، وهؤلاء ينطلقون في عبادتهم من الضعف والهزيمة ، وبالتالي يفقدون صفة الإنسان ، ويتحولون الى آلة صماء تتحرك بلا ارادة.

أما الذين يحسنون لآبائهم دون أن يطيعوهم طاعة عمياء ، وينفقون عليهم دون ان يتنازلوا عن حريتهم ، فهم ينطلقون من موقع القوة ، ويحققون أصالتهم ، ويثبتون حريتهم واستقلالهم بذلك.

من هنا جاءت الكلمة الاولى في هذه الآية تقارن بين العبادة والإحسان فقالت :

(**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً**)

فالعبــادة لله والطاعة له ، وللوالــدين وســائر أبنــاء المجتمع الإحسان.

(**وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ**)

ذو القربى هم رحمك الذين تشترك معهم في الأسرة أو العشيرة الواحدة ، فعليك أن تحسن إليهم سـواء كـانوا أغنياء أو فقراء ولكن دون أن تعبـدهم ، وهـذا يعـني انه لا يجوز لكأن تربط مصيرك بمصيرهم دون اسـتقلال فكـري لأنه جاهلية وشـرك ، ودون أن تخـالف النظـام الاسـلامي في تأييـدك للأقـارب ، ولا أن تنصـرهم ضد المظلـومين ، وتجــادل عنهم في الباطل ، كما يفعل الجــاهليون الجــدد اليوم في مجتمعاتنا الفاسدة.

ان النظام العشائري مطلوب في المجتمع الاســلامي ، بشرط أن يكون اطارا للتعاون البناء ، والتفاعل الفكري والاجتمــاعي ، دون ان يكــون وســيلة للعصــبية ، وســحن حقوق الناس ، وتجاوز قيم الرسالة.

وبعد الأقــارب يــأتي اليــتيم ، وعلى أبنــاء المجتمع الّا يحسبوا اليتيم فقيرا أو مسكينا يحتـاج الى دعمهم المـادي فحسب ، بل عليهم أن يغـــدقوا عليه من حنـــانهم كما لو كـــان قريبا من أقـــاربهم ، ولـــذلك فضـــله القـــرآن عن المساكين.

وفي المرحلة الثالثة يأتي المسكين وهو الذي أســكنه الفقر ، ويجب أن تكـــون علاقتك بالمســـكين هي علاقتك بالوالــدين العطــاء دون خضــوع أو تســليم ، كما هي ذاتها علاقتك مع الأغنياء بلا فرق.

اما المرحلة الرابعة فيأتي دور الجار القريب ، والجـار الملاصق ، وإذا كـانت العلاقة بين الجـيران (والــذين كـان تربطهم القرابة قديما في الغالب) علاقة الإحسان ، سهل التعــاون بينهم ، وتحولــوا الى قــوة بنــاءة داخل المجتمع المسلم.

ذلك ان المجتمع المسـلم يسـتفيد من كل العلاقـات الطبيعية كالقرابة والجوار وغيرهما من أجل تأصيل جـذور المجتمع في أنفس الأفـراد ، وتحـويلهم الى كتلة صـخرية تقاوم الانحرافات ولكن بعد أن يهذبها تهذيبا كاملا.

(**وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ**)

والجار الجنب : أي الملاصق.

ثم تأتي مرحلة الزمالة سـواء كـانت في الطريق ، أو في الدراسة ، أو في الشغل ، انها إطار جيد للتعاون البناء ، بيد أن المشكلة هي حب الـذات والبخل والشح النفسي ، مما يشـكل عقبة في طريق التعـاون ، والإسـلام يـأمر بتصفية هذه العقبة عن طريق الإحسان.

فانك حين تحسن الى صاحبك بالجنب (زملـك). فانك سوف تكسبه وتكسب ودّه وتمهد الطريق لتعاون بناء.

(**وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**)

والغريب الذي فقد ماله علينا ان نضـيّفه ونعينه حـتى يعود الى بلده ، ومما ملكت أيدينا من أسراء الحرب علينا أن نحسن إليهم ، فلا نتعـالى فـوقهم بالباطل لمجـرد أننا أرفع درجة منهم في المجتمع.

(**وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً**)

البخل مرض الأغنياء

[37] الجبل الراسي ينحدر منه السيل بقوة واندفاع ، ولكن دون أن تتـأثر صـخوره الصـلبة بـأمواج السـيل أو بهديره ، كذلك المؤمن ينحدر منه الإحسان الى

كل جـوانب الحيـاة ، ولكن دون أن يسـبب الإحسـان في ضعفه أو استسلامه.

المؤمن لا يتعالى على الفقـراء ، وفي ذات الـوقت لا يسـمح أن يتعـالى عليه الأغنيـاء ، ولا يخضع لرجـال العلم ولكنه لا يمنع نفسه فضـلهم ، بل يحسن إليهم كما يحسن الى الفقراء دون فرق.

اما الأغنياء الذين يريدون أن يفرضوا عليه سلطانهم ، فـالمؤمن يثـور عليهم ولا يخضع أبـدا لما لهم ، ولا يخشى عقابهم.

ولكن بما ان أغلب الأغنيـاء يفرضـون سـلطانهم على الضــعفاء بشــكل أو آخر ، فــان القــرآن بــدأ حديثه عن سلبيات هذه الطبقة الاسقاطها في أنظـار النـاس ، الّا إذا التزموا بشروط الطاعة لله والرسول والقيادة الاسلامية ، والإنفاق في سبيل الله بإخلاص تام ، وقـال : (**إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً**)

(**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**)

المختال : هو المغرور بثروته أو أي مـيزة اخـرى له ، والفخــور هو المتظــاهر بهــذه الــثروة والمتكــبر بها على الناس ، وهذه الصفة النفسية ناشئة من الشعور بالضـعف والنقص ، ومحاولة جبران هـذا الشـعور بالاختيـال والفخر والتكبر.

ان الإنســان يختــال بنعم الله عليه ، ويتطــاول على النـاس بها ، والطبقة الغنية هي الأكـثر تعرضا لخطر هـذه الصفة. أما الممارسات السلوكية التي تفرزها هذه الصفة السـيئة فهي البخل ، لأن المختـال بماله يخشى أن ينفلت المــال من يديه فيفقد شخصــيته ، ولــذلك يحــرص على المـــال حرصه على حياته وشخصـــيته وكرامته ، ويعتــبر بالمال القيمة الوحيدة في حياته.

ولكن البخيل المختــال بماله ســرعان ما يكتشف ان الذين ينفقون أموالهم

يكتسبون شهرة واسعة وعلوا عند الناس ، فيبدأ ينهى الناس عن الإنفاق حتى يصبحوا مثله ويجعل رسالته في الحياة الصد عن سبيل الإنفاق.

وحين يشتد ضغط الناس عليه بضرورة الإنفاق ، تراه يكتم عن النـــاس ثرواته ويتظـــاهر بـــالفقر ، وفي بعض الحالات يكتم المختال ثروته خوفا عليها ، وحفاظا لها عن أعين المنافسين.

ويقع البخيل فيما هرب منه ، أوليس هرب من الفقر وما فيه من صـــفة اجتماعية وقيـــود مادية ، فها هو عـــاد فجلب الى ذاته كراهية الناس ، كما قيد نفسه عن الإنفاق ، وكتم نعم الله عليه ولم ينتفع بها ، أو ليس هـــذا فقـــرا أشد ألما من عدم الفقراء ومسكنة الصعاليك ، من هنا جاء في الحديث : (البخل فقر حاضر)

وينهي القرآن الآية بهذه الكلمة :

(**وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً**)

للايحاء بأن كتمان نعم الله ، والبخل بها ، والاختيال والفخر ، انما هي كفر بالله ومما آتـــاه الله للإنســـان من نعم الحياة ، وبالنسبة للمختال يهيء له الله عذابا مهينا ، جزاء تطاوله على الناس وتكبره عليهم.

المرائي شيطان ناطق

[38] بلى طبقة الأغنيـــاء تنفق المـــال ولكن لمن؟ ولماذا؟

انها تنفق المال لأولئك المتملقين الذين يكيلون لهم الثناء الباطل بغير حساب ، ويزينون للناس صورتهم القبيحة ، وهم يقصـــدون من وراء ذلك امتصـــاص المزيد من جهد الناس وحقوقهم.

وهـذه الطبقة المتملقة يسـميها القـرآن هنا شـيطانا لأنها تخدع صاحبها وتضـله عن الصـراط وتـزين له اعماله السيئة ويقول :

(**وَالَّذِينَ يُنْفِقُــونَ أَمْــوالَهُمْ رِئــاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً**)

[39] ولنتساءل من هـؤلاء؟ ولمـاذا يكفـرون بالله ولا ينفقون أموالهم الّا رياء؟ أو ليست هـذه الأمـوال نعم الله عليهم ، أو لا ينبغي لهم شـكر الله على نعمه بالايمـان به والإنفاق في سبيله؟ وما الـذي يخشى هـؤلاء من الايمـان والإنفــاق؟ هل يخشــون أن يســلب الله نعمه عنهم لو أنفقوها في سبيله؟ أم يخشون ان لا يجازيهم عليها؟

(**وَما ذا عَلَيْهِمْ لَـوْ آمَنُـوا بِاللــهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً**)

[40] (**إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ**)

فهو يجـازي النـاس بالضـبط ، وإذا كفر شـخص بقـدر وزن ذرة صغيرة ، فانه يجازيه بقدر كفره.

اما إذا أحسن بهـذا القـدر فهو ليس يجازيه فحسب ، بل ويزيد له من رحمته.

(**وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضـاعِفْها وَيُـؤْتِ مِنْ لَدُنْـهُ أَجْـراً عَظِيماً**) ي

ضـاعفها في الـدنيا ، ويجـزي عليها بثـواب عظيم في الآخرة.

من هو القائد

؟ [41] طبقة الأغنيـاء تتعـالى على النـاس بالباطل ، وتتعالى على القيادة

الشـــرعية ، وتحـــاول التمـــرد عليها خصوصا في إعطـــاء حقوقها من الضرائب الشرعية.

من هنا جـــاء ذكر الرســـول (ص) باعتبـــاره القيـــادة الشرعية ، وبيّن الله ان الرسول (ص) هو القائد الحقيقي للناس ، فاذا لم يطعه شـخص في الـدنيا فانه في الآخـرة شـهيد عليه ، وهنالك يتمـنى هـذا الشـخص انه كـان تحت الـتراب ولم يعص الله ، ويكتم نعم الله عليه ويقـول كـذبا أن ليس لله عليه حقوق كما تفعل طبقة الأغنياء.

(**فَكَيْـفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنا بِـكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**)

[42] (**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَـوُا الرَّسُـولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً**)

تسوّى بهم الأرض تعبير رائع للدلالة على أنهم يـودون لو كانوا تحت التراب بحيث لا يبقى لهم أثر ظاهر عليه.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقْرَبُـوا الصَّـلاةَ وَأَنْتُمْ سُـكارى حَتَّى تَعْلَمُـوا ما تَقُولُـونَ وَلا جُنُبـاً إِلاَّ عـابِرِي سَـبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْـتُمُ النِّسـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مـاءً فَتَيَمَّمُـوا صَـعِيداً طَيِّبـاً فَامْسَـحُوا بِوُجُـوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ عَفُـوًّا غَفُـوراً (43) أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنَ الْكِتـابِ يَشْـتَرُونَ الضَّـلالَةَ وَيُرِيـــدُونَ أَنْ تَضِـــلُّوا السَّـــبِيلَ (44) وَاللـــهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَكَفى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفى بِاللـهِ نَصِـيراً (45) مِنَ الَّذِينَ هـــادُوا يُحَرِّفُـــونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِـــعِهِ وَيَقُولُونَ

---

43 [لامستم] : واقعتم النساء.
[صعيدا] : وجه الأرض.
46 [ليا] : اللّي الفتل وليا من لوى يلوي إذا حرف وأمـال ولي اللسـان تحريكه لتحريف الكلام.

سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (46) يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (47) إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (48) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (50)

---

47 [نطمس] : الطمس عفو الأثر ، وطمس الشيء إذهاب أثره.
48 [افترى] : اختلق وكذّب.
49 [يزكون] : التزكية التطهير والتنزيه.
[فتيلا] : الفتيل هو ما في شق النوات من خيط ضعيف.

مسئولية العلم وخطر الانحراف

هدى من الآيات :

الآية الاولى تتناول التطهّر وتثير هـذا السـؤال : لمـاذا هنا بالـذات بين القـرآن موضـوع الطهـارة الجسـدية؟ ألم يكن من الأولى أن تتحدث عنها ضمن آيات الصلاة مثلا؟

الجــواب بالاضــافة الى طبيعة التفاعل بين الطهــارة الجســدية (موضــوع الآيــة) والطهــارة الروحية (موضــوع الآيـات السـابقة واللاحقـة) فـان هنـاك جانبا اساسـيا آخر يبيّنه لحن ألفـــاظ القـــرآن هو الجـــانب الاجتمـــاعي من الطهـارة ، حيث يحتمل الإنسـان مسـئولية النظافة رعاية لمشـــاعر الآخـــرين ، فحين يـــدخل المســـجد ويتواجه مع المجتمع فيه عليه أن يكــون نظيفا من الســكر والجنابة ، فحـــتى لو لم يســـتطع التطهر بالمـــاء ، فعليه أن يتطهر بالتراب ليرفع عن نفسه قذارات الجنابة أو الغائط.

وبعد الحــديث عن هــذه المســؤولية يتنــاول القــرآن مسئولية العلم ، باعتباره أداة

فعالة لبناء المجتمع إذا استخدم بأمانة ، أو هدمه لو خان صاحبه الامانة.

وعلم الدين هو أبرز مظاهر العلم ، وهؤلاء الذين يدّعون علم الدين (وهم في الواقع لا يعرفون منه الّا قليلا) ويخونون أمانة العلم في أعناقهم من أجل مصالح عاجلة وزهيدة ، هؤلاء يضلون الناس بدل أن يهدوهم ، ويحرّفون كلام الله ، وينافقون مع رسله ، وعاقبة هؤلاء لعنة في الدنيا وعذاب في الآخرة ، حيث تنحرف عنهم الجماهير في الدنيا ، ويحاسبهم الله في الآخرة حساب المشركين.

ومن صفة هؤلاء أنهم يزكون أنفسهم ، ويجعلونها فوق الجميع ، ويكذبون على الله ، ويفضلون قيادة الظلمة (الطواغيت) على قيادة الله ورسله.

ومن صفاتهم السيئة أنهم بخلاء ، يستغلون مناصبهم في بلاط الطواغيت ، من أجل التسلط على الناس وتحديد حرياتهم ، وابتزازهم حسدا وبخلا.

هذه بعض الصفات التي يبتلى بها هؤلاء المثقفون الذين يخونون أمانة الكتاب ، فيحرفون فيه لقاء دراهم معدودة.

بينات من الآيات :

الاغتسال زكاة الجسد :

[43] التوضؤ أو الاغتسال يهيئان المؤمن نفسيا وجسديا للدخول في محراب العبادة ، فالذي يخوض في معارك التجارة ، أو صراع العمل الشاق ، يحتاج الى بعض الوقت حتى ينقطع عن مؤثرات التجارة ، وآثار العمل ، ويستعد للقاء ربه. والوضوء أو الغسل يعطيه هذا الوقت ، ويعزله مؤقتا من صخب الحياة ، ويعطيه فرصة للتفكير الجاد في مجمل أحداث الدنيا بوعي وتعقل.

وبالاضـافة الى هـذا الاعـداد ، فـان الغسل والوضـوء يعطي المؤمن أناقة تساعد على تبـادل الحب مع إخوانه ، والتعاون معهم على البر والتقوى.

مظهر الشـخص الـذي لا يـزال النعـاس يملأ عينيه ، والرائحة تتصـاعد من حلقه ، وتكسو وجهه آثـار النـوم والكسل ، إن هذا المظهر لا يسـاعد على التعـاون وتبـادل الحب بين المسلمين.

وكـذلك الـذي يحمل في جسـمه آثـار المعاشـرة الجنسـية ، أو قـذارة الحاجة الطبيعية ، انه مظهر كريه ، وان دل على شيء فانما يدل على اهانة الآخرين ، وعـدم القيام بواجب احترامهم.

من هنا بيّن القرآن في مجال حديثه عن المسؤوليات الاجتماعية ، واجب الاغتسال والوضوء أو التيمم وقال :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقْرَبُـوا الصَّـلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى**)

الصلاة عـادة تكـون في المسـاجد وبشـكل جمـاعي ، فالاقتراب منها اقتراب من الاخوة المؤمـنين ، ويـدل على ذلك قوله بعدئذ (**إِلَّا عـابِرِي سَـبِيلٍ**) أي عـابري السـبيل من خلال المساجد.

والسـكر هنا قد يكـون سـكر النـوم ، أو سـكر الخمر قبل أن تصـبح حراما ، اما بعد أن أصـبحت محرمة فـان اقتراب المخمور من مجامع المسلمين يعتبر أشد حرمة ، لأنها اهانة لمقدسات الامة.

ويرتفع سـكر النـوم بالوضـوء حيث يعـود الى الفـرد رشـده ويصـبح كلامه بـوعي كامل ، ويتجنب المسـلمون النزاعات التافهة التي تنشأ بسبب النعاس وابتداء

الكلمات الشاذة من بعضهم ، أو التي تنشأ بسبب فقــدان الوعي بالخمر ، لذلك أكد القـرآن على أن الـوعى شـرط مسبق لمن يريد أن يقرب الصلاة وقال :

(**حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ**)

ثم بيّن ضــرورة التطهر من الجنابة باعتبارها قــذارة جســدية ونفســية ، ذلك أن التعامل مع المســلمين ، أو مناجاة الله لا تكون مع جو المعاشـرة الجنسـية ، بما فيها من انغمــاس في الشــهوة ، وابتعــاد مــوقت عن الحيــاء الانساني.

من هنا جاء الغسل ليكون تطهـيرا للجسد من قـذارة الجنابة ، واعــدادا للــروح للــدخول في مجـالات انســانية أخرى.

(**وَلا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**)

ان الجنب لا يدخل المسجد الّا بصورة عـابرة ، يـدخل من بــاب ليخــرج من بــاب آخر ، كما لا يحضر تجمعــات المسلمين الأخرى الّا بشكل عابر.

وفي صورة تعـذر الوضـوء أو الغسل ، على الفـرد أن يستخدم التراب أداة لتطهير جسـمه واعـداد نفسه ، فـان التراب طهور يكفي صاحبه عشر سنين إذا استمر عذره.

(**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَــفَرٍ أَوْ جــاءَ أَحَــدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مـاءً فَتَيَمَّمُوا**)

أي توجهوا الى الأرض.

(**صَعِيداً طَيِّباً**)

منطقة نظيفة من الأقذار.

(**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**)

من ذلك الصـــعيد بعد أن تضــــربوا فيه أيـــديكم ، وتمســـحوا بها على الجبهة حـــتى الأنف ، ثم على ظهر الكفين.

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً**)

يسهل عليكم أمر الدين ، ويجعل لكم بدل المـاء ترابا تطهرون به أنفسكم.

الضلالة نتيجة الخيانة :

[44] هؤلاء فريق من الناس يخونــون أمانة العلم في أعناقهم ، ويشترون بعلمهم متاع الحياة الدنيا ، ولكن هـذا المتـــاع لا يـــأتيهم الّا مقرونا بالضـــلالة والانحـــراف عن الصراط المستقيم ، فرجل العلم الديني الذي يسكت عن جرائم الظلمة لقاء سلامته ، أو في مقابل بضــعة دراهم ، لا بد أنه يبـــدأ في تأييد مواقف الظلمة ، وبالتـــالي يفقد قدرته على التمييز بين الحق والباطل ، بل ويصل الى حد الدعوة الى الباطل الذي يمثله الظلمة.

(**أَلَمْ تَــرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُــوا نَصِــيباً مِنَ الْكِتــابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ**)

وقد عبّر القـرآن عن هـؤلاء المسـمون بعلمـاء الـدين بقوله (**الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنَ الْكِتـابِ**) اسـتخفافا بهم وبعقولهم ، انهم أنصاف المثقفين وليسوا علماء بالكامل.

الله نصير المؤمنين :

[45] يتظاهر هـؤلاء الرهبـان والأحبـار وعلمـاء الـدين الخونة ، بالصـــــلاح ، وحب النـــــاس ، وطيبة القلب في نصائحهم ، بينما هم بمقياس الله خونة ، ولا أمان لخـائن ، إنهم ســـكتوا عن جـــــرائم الطغـــــاة بحق أمتهم فكيف بالآخرين؟!

ان الإنسـان المسـلم ذكي ، لا يأخذ الأشـياء ببسـاطة وطيبة قلب ، بل بـالتقييم الموضـوعي وفق مقـاييس الله الذي هو أعلم بالعدو والصديق.

ويجب الّا نخشى من هـؤلاء الـدجالين المقنعين بقنـاع الدين ، ولا نقول (قد) يكونون مقـرّبين عند الله ، بل علينا أن نتصل مباشــرة بالله وبهــداه في تقــييم النــاس ، وهو يكفينا شر هؤلاء.

(**وَاللـهُ أَعْلَمُ بِأَعْـدائِكُمْ وَكَفى بِاللـهِ وَلِيًّا وَكَفى بِاللهِ نَصِيراً**)

الـولي هو : الـذي يلي الإنسـان في القـرب ، أو يلي شؤونه ويقوم بها ، وقد يكون للإنسان صديق عـاجز ولكن الله ولي ينصر عباده.

كيف تعرف العالم المزيف

؟ [46] وإذا أردنا أن نعرف هذا الفريق من النـاس ، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على صفاتهم الـتي من أبرزها تحريف الكتاب ، وتأويل آياته في غـير معانيها الصـحيحة ، فاذا أنزلت آية في سلطان جائر حرّفوها حتى تنطبق على السـلطان العـادل ، أو على الشـعوب المطالبة بحقوقهـا. مثلا : يحرفون كلمة الفتنة من معناها الحقيقي الذي يعني الظلم الى معنى الثورة ضد الظلم ، وبـدلا من أن يسـموا الحكام بالمفتنين ويصدروا بحقهم أحكام القرآن ، تجــدهم يؤلون ذلك في الثوار فيسمونهم بأصحاب الفتنة.

هؤلاء منافقون ، يميعون قـرارات القيـادة ، ويـبررون مواقفهم الجبانة ببعض التـبريرات السـخيفة الـتي لا تعـود الى محصل.

(**مِنَ الَّذِينَ هــادُوا يُحَرِّفُــونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِــعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ**)

أي أنهم بعد الاعـتراف بالعصـيان يحـاولون تـبريره ، ويطلبـــون الاســـتماع لهم ، الّا أن أقـــوالهم لا تســـتحق السماع.

(**وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ**)

ان كلامهم واعتــــذارهم لا ينطلق من منطلق التوبة ، بل من منطلق النفاق ، والتمييع للقرارات ، والمخالفة لها ، وبالتالي الطعن في الدين وأصوله.

وكان الأفضل لمصلحة هؤلاء الشخصـية ، ولاسـتقامة حيـــاتهم العامة ، أن يطيعـــوا الله اطاعة تامة ، حـــتى إذا خـــدعتهم الـــدنيا عن الطاعة ، تـــابوا الى الله وطـــالبوا بأمهالهم فترة من الوقت لكي يطيعوا الله في المستقبل.

(**وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا**)

أي طلبوا الاستماع الى أعـذارهم ، وطـالبوا بإمهـالهم وانظارهم ، حتى يطبقوا القرارات في المستقبل.

(**لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ**)

أي أكثر نظما لحيـاتهم (مقتبس من القيـام بمعـنى ما يقوم به الشيء)

ويبقى سؤال : لماذا خالف هؤلاء أوامر الله؟

الجـــواب : لأنهم يكفـــرون بالله في واقع أمـــرهم ، بالرغم من ايمانهم الظاهر ، والله يبعد الكفار عن رحابه.

(**وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً**)

ما هو مصير الخونة

؟ [47] والمصير الذي ينتظر هؤلاء الخونة من علماء الدين ، أنهم يفقـدون ثقة الجمـاهير بهم ، وكـأن وجـوههم قد طمست معالمها ، وأصـــبحت صـــفيحة ممســـوخة لا تعـــرف ، ويعـــودون الى حالة ما قبل العلم ، وكـــأنهم لم يحصلوا على علم الدين أبدا.

وبالاضــافة الى ذلك فــإنهم ملعونــون ، يــنزل عليهم صــاعقة من قبل الله ، كما فعل الله بالــذين عصــوه في تعطيل يوم السـبت ، فتحولـوا الى قـردة وخنـازير وهكـذا يفعل الله بالخائنين.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُـــوا الْكِتـــابَ آمِنُـــوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْــحابَ السَّــبْتِ وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**)

الشرك نهاية المطاف :

[48] والنهاية المأسـاوية الـتي قد يصل إليها هـؤلاء : هي الشرك بالله ، وذلك بالاستسلام للطواغيت.

وتمهيدا للحديث عن ذلك بيّن القرآن حقيقتين :

الاولى : ان الشرك افتراء عظيم على الله ، وان الله لن يغفره.

الثانية : أن هـــؤلاء يزكّـــون أنفســـهم باســـتمرار ، ويجعلونها مقياسا للحق والباطل ، ولـــــذلك لا يقبلـــــون الانتقـــاد ، ولا هم يقيّمـــون أنفســـهم ويحاســـبونها بدقة موضوعية ، وطبيعي في هؤلاء أن تنتهي مسيرتهم الضالة الى الشرك.

(**إِنَّ اللـهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**)

أي ان الله ذو المغفــرة الواســعة ، ومع ذلك لا يغفر للمشركين.

(**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً**)

بالرغم من ان الشرك كذب عظيم ، ولكنه في الواقع ممارسة عملية لهذا الكـذب ، ولـذلك فهو اثم عظيم ، من هنا تجد القرآن قد عبّر أولا بكلمة (افـترى) (الدلالـة) على الجــانب النفسي والفكــري في الكـــذب ، ثم عبّر (اثم) للدلالة على الجانب العملي منه.

الله مقياس الحق :

[49] ومن صــفات هــؤلاء تزكية أنفســهم ، وجعلها مقياس الحق والباطل ، بينما الصحيح ، أن يجعل الإنسـان ربه مقياسا لذلك ، فيقيم ذاته حسب قيم الله وأوامره.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ**)

والله عادل في تقييمه للبشر ، ولذلك يجب الّا يتدخّل البشر ذاته في هذا المجال خوفا من الحاق الظلم به.

(**وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**)

أي بمقدار الخيط الموجود في شق نواة التمر.

[50] وتزكية الــذات هي افــتراء على الله ، وادعــاء عليه بأنه قد طهّر هــؤلاء من الـــذنوب ، وعصــمهم من الزلل.

وهؤلاء الخونة من علمـاء الـدين لا يتورعـون عن هـذا الكذب ، وهو اثم واضح

إذ يسبب في إفساد المقاييس والقيم ، وتشويش الرؤية ، ودفع الناس الى الضلالة.

(**انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ وَكَفى بِـهِ إِثْماً مُبِيناً**)

ان الفرية على الله تكفي إســــقاط صــــاحبها عن الاعتبار ، وسحق شخصيته الاجتماعية.

أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنَ الْكِتـابِ يُؤْمِنُـونَ بِـالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُــونَ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا هـؤُلاءِ أَهْــدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُــوا سَــبِيلاً (51) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ نَصِـيراً (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِـيراً (53) أَمْ يَحْسُــدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتــاهُمُ اللـــهُ مِنْ فَضْــلِهِ فَقَــدْ آتَيْنا آلَ إِبْــراهِيمَ الْكِتــابَ وَالْحِكْمَــةَ وَآتَيْنــاهُمْ مُلْكــاً عَظِيمــاً (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِــهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَـدَّ عَنْـهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَـعِيراً (55) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِــجَتْ جُلُودُهُمْ بَـدَّلْناهُمْ جُلُـوداً غَيْرَها لِيَـذُوقُوا الْعَـذابَ إِنَّ اللهَ كـانَ عَزِيـزاً حَكِيمـاً (56) وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ سَـنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِدِينَ فِيها أَبَـداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُـدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (57)

شروط قيادة العلماء

هدى من الآيات :

لكي لا يتلاعب رجـــال الكهنـــوت بمقـــدرات الأمة بالاتفاق مع الانظمة الفاسدة ، سحب كتاب الله الثقة بهم بوجه مطلق ، وحــدد شــروطا معينة (تــدل عليها الآيــات بصـورة غـير مباشـرة) إذا وجـدت في علمـاء الـدين جـاز للأمة إتبــاعهم ، وإلّا وجب عليهم الثــورة ضــدهم دون ما وازع من الخوف أو الحياء.

ومن تلك الشروط :

أولا : محاربة الطغـاة والوقـوف ضد ظلمهم للنـاس ، أما إذا ارتمى علماء الدين في أحضان الانظمة الفاســدة ، وآمنوا بها وزعموا أنها أهـدى سـبيلا من المعارضـين لهم ، المؤمــنين بالله ، فــإنهم يســقطون من أي اعتبــار ، بل تلاحقهم لعنة الله وعذابه.

ثانيا : حب الخـير للنـاس جميعا ، وطهـارة القلب من الحسد ، والتسليم للحق حتى ولو كان عند منافسـيهم من العلمــاء ، وحب الخــير للنــاس. أما علمــاء الســوء فهم بــالعكس ، إذا وصــلوا الى أعتــاب الســلطات ، ضــاقت أنفسهم وحاولوا منع

السلطات من كل خير حسـدا وضـعة وبخلا ، ويتحاسـدون بينهم ، ويسـتعينون بالسـلطات على بعضـهم البعض ، ولا يؤمنون بأن الله يقدر للعبـاد الـرزق ، وعليهم أن يجتهـدوا بأنفســهم للحصــول على فضل الله ذلك الفضل الــذي أعطـاه ربنا لآل إبـراهيم فحسـدهم البعض عليه ، وأخـذوا يصدون الناس عنه صدودا.

وجزاء من يصد عن الهدى حسدا ان يذيقه الله عذاب نار أليمة ، أما جزاء من يحـارب الحسد في ذاته ، ويسـلم وجهه لله ، ويـؤمن برسـله ، ويعمل صـالحا ، فـان جـزاءه الجنات الطيبة.

بينات من الآيات :

ما هو معنى الجبت

؟ [51] الجبت هو : الشـيطان الخفي الـذي يحـاول خداع الإنسان عن طريق تزيين الأعمـال المنكـرة عنـده ، والجبت كـــذلك هو : الأفكـــار الخبيثة الـــتي ينطلق منها الشـــيطان في إفســـاد ضـــمير البشر ، وهي التـــبريرات والاعذار التي يحتمي وراءها الكسـالى والمتقاعسـون عن تنفيذ أوامر الله ، وهي الثقافة المتخلفة الــتي تعتمد على القدرية والحتمية الكســولة ، والــتي تــدعو صــاحبها الى الترهل واللامسؤولية.

وبالتـــالي الجبت هو : العوامل الذاتية الـــتي تـــدعو الإنسان الفرد والمجتمع الى الخمول والانحراف.

من هو الطاغوت؟

الطـــاغوت هو : الرجل أو النظـــام المتســـلط على الجمـــاهير باسم الجبت ، وبســـبب الجبت ، فالـــديكتاتور الأرعن الذي يستبد بمقدرات الامة ، يجد في ايمان الامة

بالجبت ، وبالتالي في تخلفها وكسلها ولا مسئوليتها ضمانا لاستمراره في الظلم والعدوان.

وعلماء الـدين هم الـذين يكفـرون بـالجبت ، ويفكـون عن الناس أغلال الخوف والحتمية والكسل ويرغبونهم في التضـحية والنشـاط ، وهم الـذين يقـاومون الطـاغوت ، ويقودون ثورة الجماهير ضده.

صفات العالم المزيف :

ان علماء السوء هم الذين يبيعون أنفسهم للطـاغوت ، ويؤمنون بالجبت ، ويضللون الجماهير ، ويتخـذون موقفا جبانا من الرجال العـاملين ضد الجبت والطـاغوت ، وذلك لكي تسـتمر مراكـزهم عند الطـاغوت ، ولهـؤلاء العلمـاء اللعنة ، ولهم العزلة الجماهيرية.

(**أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنَ الْكِتَـابِ يُؤْمِنُونَ بِـالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُـونَ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**).

[52] (**أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللـهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللـهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً**)

هـؤلاء يريـدون أن يجمعـوا بين مراكـزهم عند النـاس وعند الطاغوت ، ولكن الله ينسف مراكزهم عند النـاس ، ويفضـحهم أمـام الجمـاهير ، وآنئذ لا يشـتريهم الطـاغوت بشـيء ، لان الطـاغوت انما أرادهم لأنهم يخـدعون الجمـاهير ، وها هي الجمـاهير تكشف ما وراء أقنعتهم الدنيئة من الزيف والضلال ، فيطردهم الطاغوت فلا يبقى لهم نصير لا في الأرض ولا في السماء.

[53] بعض هؤلاء يـبرر اقترابه من الطـاغوت بأنه في مصـلحة النـاس ، ومن أجل تمشـية حاجـاتهم ، ولكنهم يكذبون ، فاذا وصلوا أعتاب الملك نسوا الناس ،

واستأثروا بالخيرات لأنفسهم :
(**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً**)
لا يؤتون شيئا للناس حتى بمقدار ما يوجد في الحفيرة الصغيرة الموجودة في طرف نواة التمرة.
[54] ان هؤلاء حساد ، يتقربون الى السلطات لدعم مركزهم في مواجهة منافسيهم من العلماء الأكثر علما وشعبية.
والسؤال هو : لماذا الحسد ما دام الله هو الذي فضل أولئك العلماء عليهم لما وجد فيهم من المثابرة والنشاط والنية الصالحة؟!
ان الأفضل لهم أن يعترفوا بفضل أولئك عليهم ، والتسليم لهم لا الكفر بهم ، والتقرب الى الأعداء.
(**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً**)
وما دام الله هو الذي يؤتي كل خير ، فلما ذا لا نتوسل به ليؤتينا الخيرات التي آتاها لغيرنا؟!

جزاء الايمان والخيانة :

[55] ان فضل الله كبير ، وعطاءه واسع لا يحد ، وخير للإنسان أن يجتهد من أجل الوصول الى ذلك الفضل والعطاء بطريق مستقيم ، وأول شروطه الاعتراف بمن فضله الله ، والايمان بالأنبياء بغير تردد.

(**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِـهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَـدَّ عَنْـهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً**)

انها تستعر وتلتهم علماء السوء ، الذين كفروا بالأنبياء حسدا ، وصدوا الناس عن رسالاتهم.

[56] وجزاء هـذا الفريق ومن اتبعهم من الكفـار نـار تصليهم وتؤلمهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِـجَتْ جُلُـودُهُمْ بَـدَّلْناهُمْ جُلُـوداً غَيْرَها لِيَـذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً**)

لان الجلـود الطرية أكـثر ألما من الجلـود المحترقة ، وهؤلاء علمـاء السـوء بـدّلوا جلـودهم في الـدنيا فاختـاروا الكفر بعد الايمان طلبا للذة الحيـاة ، وعليهم أن يسـتعدوا لتبديل الجلود في الآخرة ، حيث يصيبهم ألم العذاب جزاء ردتهم.

[57] ولكن بـــالرغم من صـــعوبة مقاومة الحسد ، واتبـاع صـاحب الحق حـتى ولو كـان غريما ، فـان على الإنســان ان يتحملها حـــتى يحصل على جـــزاء الله في الجنان.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِـدِينَ فِيها أَبَـداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً**)

ان ثمن ابتعـادهم عن خـيرات الظـالمين ، ورضـاهم بشظف العيش في ظل الحق ، هو الحصول على خـيرات الجنـــان ، وأنس الأزواج الطـــاهرة ، وظل الله الظليل ، وكذلك لا يضيع الله أجر من أحسن عملا.

إِنَّ اللــهَ يَــأْمُرُكُمْ أَنْ تُــؤَدُّوا الْأَمانــاتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُــوا بِالْعَــدْلِ إِنَّ اللــهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِــهِ إِنَّ اللــهَ كــانَ سَــمِيعاً بَصِــيراً (58) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا أَطِيعُــوا اللــهَ وَأَطِيعُــوا الرَّسُــولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَــرُدُّوهُ إِلَى اللــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَــوْمِ الْآخِــرِ ذلِــكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (59) أَلَمْ تَــرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُــونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِــهِ وَيُرِيــدُ الشَّــيْطانُ أَنْ يُضِــلَّهُمْ ضَــلالاً بَعِيــداً (60) وَإِذا قِيــلَ لَهُمْ تَعــالَوْا إِلى ما أَنْــزَلَ اللــهُ وَإِلَى الرَّسُــولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (61) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما

قَدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ ثُمَّ جـاؤُكَ يَحْلِفُـونَ بِاللـهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَتَوْفِيقاً (62) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللـهُ ما فِي قُلُـــوبِهِمْ فَـــأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُـــلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (63) وَما أَرْسَـلْنا مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ جـاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللـهَ تَوَّاباً رَحِيماً (64) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً (65) وَلَـوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُـوا مِنْ دِيـارِكُمْ ما فَعَلُـوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِـهِ لَكـانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَـدَّ تَثْبِيتـاً (66) وَإِذاً لَآتَيْنـاهُمْ مِنْ لَـدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (67) وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (68) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللـهُ عَلَيْهِمْ

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّــــدِّيقِينَ وَالشُّــــهَداءِ وَالصَّــــالِحِينَ وَحَسُــنَ أُولئِكَ رَفِيقــاً (69) ذلِــكَ الْفَضْــلُ مِنَ اللــهِ وَكَفى بِاللهِ عَلِيماً (70)

طاعة القيادة الرسالية

واجب وضرورة

هدى من الآيات :

بعد الحديث عن مسـئولية المـال والعلم الاجتماعية ، ودورهما في إصـــلاح أو إفســـاد المجتمع ، وبعد ضـــرب القرآن لقيمة العلم والمال ، إلّا إذا حققا هـدف الرسـالة ، وتحـــــولا الى أداتين في خدمة المجتمع ، بعدئذ يتنــــاول القــرآن مســئولية الســلطة ، فهي الاخــرى ليست قيمة بذاتها إنما هي وسيلة لتحقيق العدالة ، التي تعني حصــول كل شخص على حقه كاملا غير منقوص.

وهذه القيمة يحققها سـلطان الله في الأرض المتمثل في قيـادة الرسـول (ص) ، وأولي الأمر من بعـده الـذين يجسدون رسـالته ، وقد كـانوا هم أهل بيته ، أما الآن فهم حملة رسالة الله في الأرض بكل معنى الكلمة.

والســلطات الاخــرى تمثل الطــاغوت الــذي يدعمه الشيطان وقد أمرنا بالكفر به والتمرد عليه.

ومخالفة الرسول وأولي الأمر من بعده هي من عمل المنـافقين ، الـذين سـوف يكتشـفون ان قيـادة الرسـول أفضل لهم ، وذلك حين تـــنزل عليهم المصـــائب بســـبب انتمـــائهم الى ســـلطات الطـــاغوت ، وعلى الرســـول أن يستغل الفرصة ويعظهم.

كل رسل الله جاؤوا ليتسلموا قيادة الناس ، وإذا عـاد الناس الى قيادة الرسل وصححوا مسـيرتهم ، لأصـلح الله حياتهم ، وغفر لهم سيئاتهم.

أما الذين يخالفون رسل الله ، فإنهم ليسوا بمؤمــنين ، لأنهم يخـالفون بـذلك هـدف الرسـالة أساسا ، وقيـادة الرسـول ليست محصـورة بالصـلاة والصـيام ، بل في كل الشــؤون ، وعلى المســلم الا يفــرق بين الموضــوعات ، ويتبع الرسول في القضـايا البسـيطة فقط ، بل حـتى ولو أمره الله بأن يقتل نفسه فعليه أن يطيعه ، لأنه ذلك خــير له وأقوم.

خــير له لأنه ســوف يحصل بســببه على أجر عظيم ، وأقــوم له لأنه ســوف يهتــدي الى الصــراط المســتقيم ، وســـــوف يحشر عند الله مع الصـــــفوة من خلقه ، وهم النبيّون والصديقون والشهداء والصالحون وهـذا هو التطلع الأسمى الذي يجب أن يسعى من أجله الإنسان.

ان هذه الآيات أوضـحت لنا ضـرورة الطاعة للرسـول لتحقيق المسؤولية الاجتماعية وهي : العدالة.

بينات من الآيات :

بين الرقابة الذاتية والاجتماعية

[58] يجب أن يكون كل شخص واعظا لنفسه ، رقيبا عليها. فلا يفرط في

أمـوال النـاس عند ما تكـون عنـده بل يرجعها إليهم مـتى تسلمها. وعلى كل مسـلم ان يكـون واعظا للنـاس ، رقيبا عليهم فيسعى من أجل اعادة حقوقهم إليهم بالعدل.

(**إِنَّ اللـهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُـؤَدُّوا الْأَماناـاتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَـدْلِ إِنَّ اللـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً**)

ان هناك صلة وثيقة بين أداء الامانة واقامة العدل لان من لا يؤدي حقوق الناس ، كيف يمكنه أم يساعد الآخرين على أداء الحقـوق؟! وبالتـالي كيف يمكن أن يصـبح رقيبا على العدالة في المجتمع؟!.

ولا يجب ان يكون الحكم بين الناس بصـورة السـلطة الرســمية ، بل يكــون في الأكــثر في صــورة التعــاون الاجتماعي على حل المشاكل القائمة بين بعضهم البعض. قبل الرجوع الى المحاكم.

حينما يبـدأ الـنزاع بين شـريكين ، فـأول ما يصـنع كل واحد منهما هو عرض وجهة نظره على أصدقائه المقربين ، فـاذا كـان هـؤلاء مؤمـنين حقا أو ضـحوا للخـاطئ منهما طبيعة خطئه ، وأعطوا الحق لصاحبه ، وفيتراجع المخطئ قبل أن يرفع دعــــوى الى المحكمة أما إذا لم يلــــتزموا بواجبهم كمؤمنين في الحكم بالعدل ، فـان كل فريق يؤيد صاحبه ويشجعه على مطالبه ، حقا كانت أم باطلا ، فترفع القضية الى المحاكم. وتبدأ سلسلة المشـاكل وهنا نعـرف دور الرقابة الاجتماعية على العدالة ومدى تأثيرها في أداء الحقوق.

السلطة وفصل القرار

[59] ولكن الرقابة الاجتماعية لا تــــردع كثـــيرا من الناس من الاعتداء على

حقوق الآخرين ، وهي لا تستطيع أن تكـون فيصلا حاسـما في كثير من المشاكل المعقدة ، التي يظن كل طرف انه صـاحب الحق فيها ، ويـورد أدلة كثـيرة على ظنـه. هنالك نرى ضرورة وجود السـلطة الشـرعية القوية الـتي يلـتزم الجميع بحكمها ، وهي متمثلة في النـــبي وأولي الأمر من بعده.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا أَطِيعُـــوا اللـــهَ وَأَطِيعُـــوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**)

ان أولي الأمر هم الامتـداد الطـبيعي للرسـول ، وهم أهل بيته من بعـــده ، والعلمـــاء بالله ، الأمنـــاء على حلاله وحرامه ، الأكفاء على القيام بأمره ، الصابرون المتقـون ، وبالتـالي هم أكـثر النـاس طاعة لله ، وأقــربهم الى نهج رسـوله ، ويتحقق اليـوم في حملة رسـالة الله في الأرض انى كانوا.

والهدف من هذه الطاعة هو فض الخلافات بردها الى حكم الله ، وقضاء رسوله أو اولي الأمر من بعده.

(**فَــإِنْ تَنــازَعْتُمْ فِي شَــيْءٍ فَــرُدُّوهُ إِلَى اللــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ ذلِـكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**)

أي ان رفع الـــدعاوي الى الرســـول خـــير لكم ، لأنه يســـــاعد على فض النزاعـــــات ، وهو أفضل عاقبة في المستقبل ، لأنه يعطيكم التلاحم والرصانة.

طاعة الطواغيت ضلال

[60] والتحول عن قضـاء الرسـول الى قضـاء حكـام الجــور من الطــواغيت ضــلال شــيطاني ، إذ أن الله أمر المؤمنين بالكفر بالطاغوت والثورة على سلطانه ، فكيف يجوز التحـاكم اليه ودعوته للتـدخل في شـؤون المؤمـنين الداخلية؟!

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُـوا بِما أُنْـزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ يُرِيـدُونَ أَنْ يَتَحـاكَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**)

أصـحيح زعم هـؤلاء بـأنهم مؤمنـون وهم يخـالفون أبسط قواعد الايمـان ، وهو الكفر بالطـاغوت؟ ويـذهبون اليه خاضعين أم انه ضلال بعيد؟

ان الله بعث رسـله لكي يـذكروا النـاس بـربهم ، ويعبدوه وحده ، ويتحرروا من عبادة الطاغوت ، فـاذا عـاد الناس الى الطاغوت انتهى كل شيء ، ولم يبق الّا قشـور الايمان.

[61] في حالة الرخاء يبتعد هؤلاء عن قيادة الرسـول ، ويبعدون عنها الناس بكل عنـاد ويلتجئـون الى الطـاغوت زاعمين انه أفضل لهم ، ولكن سـرعان ما يكتشـفون ان الطـاغوت قد خـدعهم وأراد اسـتعبادهم. فيعـودون الى الرسول وهم يبررون موقفهم السابق بأنه كـان بنية طيبة حيث أرادوا خدمة النـاس ، وحل الخلافـات بينهم ، أو حل خلافات ناشـئة من سـوء الفهم وليست خلافـات مبدئيـة؟ وبـالطبع ان هـذا التـبرير باطل وسـخيف ، ولكن على الرسول الا يطردهم ، بل ينصحهم بكلام ينفذ في أنفسهم عسى الله ان يهديهم الى الايمان الواقعي.

(**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا إِلى ما أَنْـزَلَ اللـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ**)

أي عودوا الى كتاب الله وقيادة الرسول.

(**رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً**)

[62] (**فَكَيْـفَ إِذا أَصـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ بِما قَـدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**)

أي بالذنب الذي ارتكبوه وهو التحاكم الى الطاغوت.

(**ثُمَّ جـاؤُكَ يَحْلِفُـونَ بِاللـهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْسـاناً وَتَوْفِيقاً**)

أي ما كـان هـدفنا من التحـاكم الى الطـاغوت (السلطات الظالمة) الّا الإحسان الى النـاس بسـبب قربنا من مواقع السـلطة ، والتوفيق بين النـاس ، وفض خلافاتهم ، أو تلطيف الأجواء بين السـلطات الظالمة وبين أنصار الرسالة المناوئين لهم.

[63] (**أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللـهُ ما فِي قُلُـوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**)

أي لا تعـاقبهم بالـذي بـدر منهم من التحـاكم الى الطاغوت.

(**وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**)

نافـذا من منطلق انهم سـوف لا يحصـدون من الطـاغوت الّا الاسـتعباد والظلم والخيانة ، فعليهم ان يبتعدوا عن الطاغوت ان هم أحبوا أنفسهم.

ان المنافقين يريدون مصـالحهم ، ولا بد للرسـالي أن يوجههم من هذا المنطلق.

هدف بعث الأنبياء

[64] ان الهـدف من بعث الرسل ليس سـوى تحرير الناس من قيادة الطـاغوت ، وتوفـير قيـادة صـالحة لهم ، ولذلك يجب على الناس أن يطيعوا الرسول ، إذ سيجدون مغفرة من الله وفضلا.

(**وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللـهِ وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ**

فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللـهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

ان الله يتــوب على عبــاده ، وينشر رحمته عليهم ان هم تابوا اليه ، وأطـاعوا ممثله في الأرض وهو الرسـول ، وطاعة الرسول تشفع للبشر ذنوبهم الصـغيرة ، إذ أن في ذلك طاعة لله في أعظم ما أمر به ، وان الحســـــنات الكبـيرة تشـفع في السـيئات الصـغيرة ، كما ان السـيئات الكبيرة (كالشرك بالله وطاعة الطاغوت) تحبط الحسنات الصغيرة.

مفهوم الشفاعة في القرآن :

ان فكـــرة الشـــفاعة الصـــحيحة هي : ان الرســـول يســـتغفر لمن يطيعه ، ويتـــوب اليه بـــإخلاص ، ولا يعـــني استغفار الرسول لأحد ان الله يغفر له حتما ، كما جاء في نص القرآن : (**إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**))

وقد ردّ الله شـفاعة نـوح في ابنه واسـتغفار إبـراهيم في أبيه.

وهـــذا هو الفـــارق بين فكـــرة الشـــفاعة الاســـلامية ونظيراتها في الـــــديانات الوثنية والمســـــيحية واليهودية المنحرفة ، ان الشفاعة الاسـلامية لا تعـرف الحتمية ، وما هي سـوى دعـاء الرسـول ربه أن يـنزل رحمته ، وبـالرغم من أن الرسول مستجاب الدعاء ، فـــان ذلك لا يحتم على الله سـبحانه أن يسـتجيب للرسـول ، بل قد يرفضه رفضا لأنه هو الله الحكيم العليم.

اما فكـــرة الشـــفاعة أو الفـــداء عند الوثنية واليهودية والمســـيحية ، فهي آتية من فكـــرة خاطئة اخـــرى هي : الـــزعم بتعـــدد الآلهة ، ووجـــود شـــركاء لله يتغـــالبون ويتنافســـون في شـــؤون العبـــاد ، وبتعبـــير آخر : الاعتقـــاد بفكرة وجود مراكز قوى

في سلطان الكون ، وان كل مركز يستطيع ان يعمل باتجاه معين ، ويجبر ذي العرش (وهو الله سبحانه) على فعل شيء.

هذه الفكرة مرفوضة في القرآن ، لأنها مخالفة لرؤية التوحيد وبصيرة الأحدية ، وأهمية الشفاعة الاجتماعية ، انها تعطي المجتمع الاسلامي مزيدا من التلاحم والصلابة ، إذ أن الرسول يصبح محورا يستقطب حوله جميع الطاقات ، ليس فقط بدوافع مادية ، بل وأيضا بدافع إيماني غيبي.

ومثل الرسول في ذلك أوصياؤه الائمة ، ومن بعدهم القادة الرساليون الذين يستمدون قدراتهم الاجتماعية من التفاف الناس حولهم طوعا لا كرها ، كل واحد منهم يأمل أن يشفع له القائد عند الله ، ويستغفر له ربه ، وهذا الالتفاف يخدم قضية الامة الاساسية ، وبذلك يستطيع القائد أن يطبق سائر الواجبات الدينية.

وتكون النتيجة وجود مرونة في التشريع الاسلامي ، بحيث تتقدم الاهداف الكبرى على الاهداف الجانبية ، ويكون الوصول الى تلك شفيعة في عدم الوصول الى هذه مؤقتا ، بل وطريقا إليها في المستقبل.

ولنتصور قائدا رساليا يخوض معركة مصيرية مع أعداء الامة ، ويجد شابا مندفعا يطيعه حتى الموت في هذه المعركة ، فلا ريب ان هذا الشاب يعتبر من الصالحين عند الله حتى ولو استخف بالصيام مثلا ، لان طاعته لإمامه ، وتضحيته في المعركة المصيرية التي تواجه الامة ، قد تشفعان له في ترك الصيام لان الانتصار في المعركة المصيرية سوف يساعد على اقامة الشعائر ومنها الصيام ولكن

يجب الا يدفعنا ذلك الى الاستهانة بالواجبات بتـبرير قيامنا بالواجبـــات الأهم ومنها الطاعة للإمـــام ، إذ أن هـــذه الواجبات قد لا تشفع في تلك ، وقد لا يستجيب الله دعـاء الرسول ، فما ذا نصنع؟

ان رفض الإسـلام لفكـرة الحتمية في الشـفاعة تنفع المســلم في عــدم التوغل في الــذنوب ، كما ان وجــود الفكـرة أساسا تسـاعده على الاهتمـام بالواجبـات الأهم حتى ولو كان على حساب الأقل أهمية.

ان الغموض الذي اكتنف فكـرة الشـفاعة والخلافـات الكبيرة فيها دفعنا الى الحـديث حولها في هـذه الآية الـتي نراها تتحدث مباشـرة عن هـذه الفكـرة ، وكما تـرى فانها جــاءت في ســياق الآيــات الــتي تــبين ضــرورة الطاعة للرسول ، مما يوحي بـأن فكـرة الشـفاعة ذكـرت أساسا لدعم الطاعة للقيادة الرسالية دعما غيبيا.

الطاعة دليل الايمان

[65] وإذا لم تكن عند المؤمن صفة الطاعة للرسول فما ذا يبقى عنده من الايمان؟ أليس الايمـان هو التسـليم لله ، ومـاذا يعـني التسـليم لو لم تكن الطاعة للرســول؟ وما قيمة القيــادة الــتي لا تســتطيع فض الخلافــات بين الناس؟!.

ان الايمـان وقر في القلب ، يجعل صـاحبه يسـلم لله حــتى فيما يصـيبه من مصـيبات ، أو يخـالف مصـالحه أو آراءه. فـاذا لم يــرض الفــرد قلبيا بحكم الله المتمثل في قضاء الرسول في الخلافـات الاجتماعية بينه وبين اخوته ، إذا لم يرض بذلك فليس هو بمؤمن أبدا.

(**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيما شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**

(**حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**)

فيما شجر : أي فيما يبرز بينهم من خلافات ، الحرج : الضــيق ، وهو يتنــافى مع الرضا الكامل ، والتســليم هو : التسليم القلبي والعملي.

الطاعة شاملة

[66] وطاعة الرســول يجب أن تكــون شــاملة لكافة القضــايا الصــغيرة والكبــيرة ، حــتى ولو خــالفت مصــالح الإنسان الاساسية.

(**وَلَــــوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُـــوا أَنْفُسَـــكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**)

هــذا القليل هم المؤمنــون حقا ، وهم الــذين يعملــون بالخير والهداية.

(**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكــانَ خَيْــراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**)

الطاعة بين التأثير والجزاء

[67] كيف تكون الطاعة خيرا؟

انها خير لأن الله يعطي المطيعين أجرا عظيما متمثلا في الــــدنيا بالنصر ، والتقــــدم ، والرفــــاه ، وفي الآخــــرة بالجنان الخالدة.

(**وَإِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً**)

[68]كيف تكــون الطاعة أشد تثبيتا ، وبالتــالي مــؤثرة في دعم ايمان صاحبها وهداه؟

الجـواب : ان الانحـراف يحـدث عند الإنسـان بسـبب ضـغط الشـهوات ، فـالخوف من المـوت ، وحب الـوطن والأولاد والراحة وما أشبه هو الـذي يجعل الواحد منا يفكر بالمقلوب ، ويعكس الحقائق الكونية.

أما لو تجاوز الإنسان ذاته في سبيل أهدافه ، واسـتعد للتضحية ، فليس هناك أي سبب لانحرافه.

(**وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً**)

[69] هـذا الصـراط المسـتقيم ينتهي بصـاحبه الى الانتماء للصفوة المختـارة من عبـاد الله ، وما أحسن هـذا الانتماء!!.

(**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً**)

[70] وهذه هي الدرجة الرفيعة التي لا يصل الشخص الى مسـتواها الّا بجهد بـالغ ، وبتوفيق من الله ، وليس رخيصا ولا سهلا الحصـول على بطاقة الانتمـاء الى حـزب الله الغالب المنتصر.

(**ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفى بِاللهِ عَلِيماً**)

يعلم سرائر الناس فيقبل انتماء خالصي النية فقط.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (72) وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (73) فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (74) وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ

---

71 [انفروا] : أصله الفزع.
[ثبات] : جماعات في تفرقة وحدتها ثبة.
72 [ليبطئن] : التبطئة التأخر عن الأمر.

وَالنِّســاءِ وَالْوِلْــدانِ الَّذِينَ يَقُولُــونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَـةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَـلْ لَنا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَــلْ لَنا مِنْ لَــدُنْكَ نَصِــيراً (75) الَّذِينَ آمَنُــوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يُقـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ الطّاغُوتِ فَقـاتِلُوا أَوْلِيـاءَ الشَّـيْطانِ إِنَّ كَيْـدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (76)

الجهاد مظهر الطاعة

ونجاة المستضعفين

هدى من الآيات :

الجهـاد أبـرز مظـاهر الطاعة ومن يطع الرسـول في الجهاد يسهل عليه تطـبيق سـائر الواجبـات الدينية لأنها لا تنطوي على صعوبات الجهاد أو أخطاره الجسيمة.

وإذ يتحـــدث القـــرآن عن الطاعة للرســـول والكفر بالطاغوت يضرب لنا مثلا من واقع الطاعة المفترضة وهو الجهاد الذي يأتي مباشرة بعد تكوّن الامة ، وانفصـالها عن المجتمع الجــاهلي وطاغوته الــذي يتبعونه ، إذ لا يلبث ان يتفجر الصـراع بين الجاهلية وبين الأمة ، وعلى أبنـاء الأمة الاســتعداد لخـــوض الصـــراع ، وذلك يكـــون بالتحـــذر ، والانطلاق للجهاد جميعا أو في مجموعات.

وبالتسارع في تنفيذ امر الجهاد حتى لا يكون المسلم كأولئك المتقاعسين الذين يتثاقلون عن الجهاد حتى تنتهي المعركة ، فان كانت في صالح الجاهلية زعموا انهم ربحوا حين لم يساهموا في الحـرب ، والا تمـيزوا غيظا وحسـرة وكأنهم

ليسوا من أبناء الامة أبدا.

صـفة المسـارعة في القتـال تـأتي بعد الايمـان بـأن الآخـــرة أفضل من الـــدنيا ، وان الله عنـــده أجر عظيم للمقاتلين خسروا أو ربحوا المعركة.

وهـــدف القتـــال هو إنقــاذ المستضــعفين من بـــراثن الطغـاة والظلم ، فـان قتـال المسـلمين هو من أجل الله بينما قتـال الكفـار من أجل تثـبيت نظـام الطـاغوت وقهر الشعوب.

بينات من الآيات :

واجب الاعداد

[71] ان يكون أبناء الامة على اسـتعداد للانطلاق في معـارك الـدفاع عن قيمها الرسـالية هو منتهى الجدية في الحياة والفاعلية والطاعة للقيادة.

وليس المهم العمل حين تـــدق طبـــول الحـــرب ، بل الاستعداد قبل ذلك في أيام السلم حيث يسـترخي النـاس ، ويغالبهم نعاس الأمن ، ويحسبون ان الحياة لهو ولعب.

آنئذ يستعد المسلمون للمعارك المحتملة فـاذا حـانت ساعة الحرب خفوا إليها في شـكل مجموعـات (ثبـات) أو وحـدات صـغيرة منسـقة ومسـتعدة للعمليـات الحربية أو نفروا إليها جميعا بصورة (التعبئة العامة).

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَـانْفِرُوا ثُبـاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً**)

انها تشـكل خلفيّة جيش الرسـالة ، الاعـداد المسـبق والتضحية والتنظيم (الحذر ـ النفر ـ الثبات أو الجميع).

المصلحية داء الجهاد ..

[72] ولا تكونوا ـ أيها المؤمنون ـ مثل أولئك الجبناء الذين يتكاسلون ويتقاعسون عن الحرب وينتظرون نتائجها وهم في بيوتهم ، فاذا دارت ضد المسلمين بداوا يشمتون ويفرحون بأنهم لم يكونوا معهم علما بأن تثاقلهم عن الجهاد قد يكون هو سبب هزيمة المسلمين ولكن هؤلاء لا يحسبون لأنفسهم حسابا ودائما يتصورون سائر المسلمين هم المسؤولون بل ويجدون بينهم وبين سائر المسلمين فارقا وكأنهم من غير المسلمين.

والدليل على ذلك : انهم يتميزون حسرة وحسدا إذا انتصر المسلمون وحصلوا على مكاسب مادية في معركتهم.

ان الله يذم هؤلاء لكي لا يصبح الواحد منا هكذا يرى نفسه وكأنه من غير المسلمين فلا يتحمل مسئولية الجهاد ويقول عنهم :

(**وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً**)

أي يشكر ربه لأنه لم يوفق لحضور المعركة (شهيدا) ، بينما كان هو السبب وراء تقاعسه عن الجهاد ، والله سيحاسبه على ذلك غدا.

[73] (**وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً**)

وكأنه أمة وسائر المسلمين امة اخرى ، علما بأن مكاسب المسلمين سوف تصيبه كواحد في المجتمع الاسلامي يستفيد من تقدم هذا المجتمع الاقتصادي ورفاهه الحضاري.

كيف نصنع الارادة

؟ [74] ان المثل السابق نموذج من الناس يفتقرون الى الارادة الرسالية حـتى يقـرروا الاقـدام والمبـادرة في قضايا الامة ولا ينتظرون الآخرين.

انها تأتي نتيجة الايمان الصادق بـاليوم الآخر وتفضـيله على الـدنيا وبالتـالي بيع الـدنيا في مقابل الحصـول على الآخرة وبهدف بلوغ أجر الله العظيم هناك.

(**فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللـهِ الَّذِينَ يَشْـرُونَ الْحَيـاةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ**)

يشري : أي يبيع وحين يقـول القـرآن فليقاتل يريد ان يبين ان هؤلاء هم المرشحون للقتال الخالص لوجه الله.

(**وَمَنْ يُقاتِـلْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَيُقْتَـلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**).

أهداف الجهاد

[75] ان الهدف الغيـبي للقتـال أن يكـون القتـال من أجل الحصول على الأجر العظيم في الآخرة.

اما الهدف الظاهر للقتال الذي يكـون في سـبيل الله فهو محاولة إنقـاذ المحـرومين الـذين تظلمهم القـوى الطاغوتية القاهرة ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

(**وَما لَكُمْ لا تُقـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْـدانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً**)

المستضـعفون : هم الـذين جعلتهم القـوى الظالمة ضـعفاء ، واسـتثمرتهم وحطمت إرادتهم ومعنويـات نفوسهم ، ولكنهم مع ذلك يقاومون الظلم بالنية فيـأملون ان ينقذهم الله بأناس يقودونهم وينتصرون لهم.

[76] إن هدف المقاتلين المسـلمين تحرير عبـاد الله من مجتمع الظلم ونظـام الطـاغوت أما هـدف مقـاتلي الكفـار فهو من أجل اسـتعباد الإنسـان وجعله يـرزح تحت نـير الطـاغوت ، وبطبيعة الحـال الطـاغوت ضـعيف ، لأنه يقـاوم ارادة النـاس وفطـرة الحيـاة وكلما يضع الطـاغوت من خطط متينة فهي ضـعيفة لأنها تعـاكس طبيعة الحيـاة البشرية التي خلقها الله حرة.

(**الَّذِينَ آمَنُـوا يُقـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطّاغُوتِ فَقـاتِلُوا أَوْلِيـاءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً**)

ان أول ما يجب ان يتمتع به النـــاس المستضـــعفون والمقاتلون من أجلهم هو التحرر من خوف الطـاغوت لان أكـبر العوامل الـتي يعتمد عليها الطـاغوت في اسـتغلاله للناس هو تخويفهم وتحطيم معنوياتهم والا فما الطــاغوت الا بشر مثل ســائر البشر فكيف اســتطاع أن يســتعبد آخرين؟ انما بخشية النـاس منه ، وخـوفهم الباطل قوته ، تلك القــوة الــتي يحــاول الطــاغوت تضـخيمها في أعين النــاس ، فــاذا تحــررت الشــعوب من رهبة الطــاغوت ، واكتشـــفت انه هو الآخر بشر وضـــعيف ، وخططه واهية لاستطاعت أن تطرده وتسحقه.

ان شـعوبنا المقهـورة اليـوم تخشى القـوى الكـبرى الطاغوتية لأن تلك القوى غسلت أدمغتنا ، فاذا تحررنا من خشيتها انتصرنا عليها ولـذلك يـذكرنا القـرآن هنا ، ان كيد هؤلاء ضعيف ، وعلينا الّا نرهبهم.

أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ قِيـلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْـدِيَكُمْ وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتـالُ إِذا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ يَخْشَـوْنَ النَّاسَ كَخَشْـيَةِ اللـهِ أَوْ أَشَـدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَـوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الـدُّنْيا قَلِيـلٌ وَالْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُـــونَ فَتِيلاً (77) أَيْنَما تَكُونُـــوا يُـدْرِكْكُمُ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَـيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللـهِ وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْـدِكَ قُـلْ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَـدِيثاً (78) ما أَصـابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِنَ اللـهِ وَما أَصـابَكَ مِنْ سَـيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِـكَ وَأَرْسَـلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُـولاً وَكَفى بِاللـهِ شَهِيداً (79)

عوامل الانهزام وفوائد الالتزام

هدى من الآيات :

هنـــــاك ظـــــروف يجب على الامة فيها ان تعد ذاتها للقتال دون ان تباشر به ، والاعداد يكون بالصلاة والزكــاة ، بينما تأتي ظروف يجب على الامة ان تندفع فيها للقتــال ، وعلى الامة ان تكون منضـبطة ، فلا تقاتل الا حين تـؤمر به ، ولكن هناك بعض الفئـات تطـالب بالقتـال حين يكـون واجبها الاعـــداد ، بينما تتقــــاعس عنه حين تــــؤمر به ، والمشكلة بالنسبة لهؤلاء هي خشية النــاس ، ولكن لمــاذا الخشــية من النــاس؟ هل بســبب الخــوف من المــوت ، والمــــوت آت لا ريب فيـــــه؟ أو بســـــبب التملص من المسؤولية تجـاه ما يجـري من احـداث في الحيـاة وإلقـاء مسئولية الهـزائم على القيـادة الدينية ، بينما الإنسـان هو المسؤول المباشر عما يصيبه من نكبات؟

والواقع : ان عـدم فهم الحيـاة قد يكـون هو السـبب في التقـاعس عن واجباتها ، وقد تنـاول القــرآن في هــذا الـدرس جانبا من العوامل النفسـية للتقـاعس عن الجهـاد ليقتلع جـــذورها من القلب البشـــري ، وليـــوفر المنـــاخ المناسب للطاعة التامة للقيـــادة البعيـــدة عن الازدواجية والتردد والضعف.

بينات من الآيات :

الانضباط صمام الامان :

[77] الحــــرب بحاجة الى أقصى درجــــات الانـــدفاع والفاعلية والجدية ولكن في حـدود الخطة السـليمة ، وإذا لم تكن الخطة السليمة تقـود الحـرب ، فـان كل الانـدفاع والفاعلية والجدية لا تعـني شـيئا ، لان غلطة اسـتراتيجية واحـدة ، قد تقضي على الكثـير الكثـير من الطاقـات في لحظة واحدة.

والخطة السـليمة بحاجة الى الانضـباط الحديـدي من قبل الجيش لقيادة هذا الانضباط الذي يتحدث عنه القرآن هنا بما يخص الحرب ولكنه يشمل أحوال السلم أيضا.

ان هـذا لا يخضع لأهـواء النـاس ، بل لخطة القيـادة ، أما ما على الناس فهو الاستعداد الدائم لخـوض المعركة ، أذا نودوا إليها.

وهناك بعض الناس يطالبون بالحرب في وقت السلم ولكنهم يتقاعسون عنها حين يدعون إليها ويحذرون الناس خوفا على أنفسـهم من المـوت ، ويطـالبون القيـادة آنئذ بتــأخير القتــال ويحســبون ان التقــديم والتــأخير خاضع لاهوائهم ، والواقع ان مشـكلة هـؤلاء نفسـية ، وتعـود الى تشبثهم بالدنيا وزينتها.

(**أَلَمْ تَــــرَ إِلَى الَّذِينَ قِيــــلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْـــدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ**)

يعني كفوا أيـديكم عن القتـال ، لان موعد القتـال لما يحن ، اما الآن فهو موعد الصــلاة رمز البنــاء الــذاتي ، والزكاة رمز البناء الاجتماعي.

(**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتــــالُ إِذا فَرِيـــــقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ**

خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَـوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

ان هؤلاء كانوا يطالبون بالتـأخير ولو لفـترة بسـيطة ، وذلك لان الخوف قد ملأ قلوبهم.

(**قُلْ مَتاعُ الـدُّنْيا قَلِيـلٌ وَالْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**)

كيف نتحرر من خوف الموت

؟ [78] التحــرر من خــوف المــوت ، لا يمكن الا إذا سلمنا له وآمنا ، بأنا ملاقوه أنى كنا ، والمـوت هو المـوت ســـــواء في ســــاحة المعركة ، أو على الســــرير في المستشفى.

(**أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**)

الـبروج المشـيدة هي : البنايـات المرتفعة الـتي تـدل على سمو الحضـارة ، والإنسـان يهم بالصـعود عن الأرض اعتقـادا منه ان ذلك ينقـذه من عوامل الفنـاء ، والقـرآن يقول انه حتى في حالة الصعود الى بـروج مشـيدة ، فـان المــــوت يلاحقهم إليها ، ويقضي عليهم ، والخــــوف من المــوت قيد على قلب الإنســان من الاقــدام في تحمل مسـئوليات الحيـاة ، وهنـاك قيد آخر هو ابعـاد المسـؤولية عن الذات والقاؤها على الآخرين.

(**وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ**)

يقولونها بلهجة كأنها بعيدة عن دورهم في المسؤولية

(**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ**)

حتى يبعدوا أنفسهم عن دائرة المسؤولية ، وبالمقابل يشوهوا سمعة القيـادة ويشـككوا في كفاءتها ، وهـذه من صفة هذه الفئة ضعيفة الارادة.

(**قُـلْ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ فَما لِهـؤُلاءِ الْقَـوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً**)

لان عقـــدة الخـــوف من المـــوت ، والفـــرار من المســـؤولية لا تجعلهم يفقهـــون الحـــديث وما وراءه من حقائق.

ان الخوف أكبر حجاب بين الإنسان والحقائق ، وكثـير من الناس يبتعدون عن التوجيه ومراكزه ومصادره خشـية ان يفقهـوا ويعـوا وتلـزمهم المسـؤولية ، وكثـير منهم يكفـرون برجـال الله من النبـيين والصـديقين ، هربا من مسئولية طاعتهم.

بين الحسنات والسيئات :

[79] الحسنات والسيئات مصـدرهما المباشر هو الله الحكيم العليم ، فلا تقدر الحسنة ولا السيئة لبشر إلا وفق حكمة بالغة ، وهدف محدد ، وما الله بظلام للعبيد.

وهـذه الفكـرة الـتي وضـعتها الآية السـابقة تـبين لنا عقلانية الكون ، وانه يسير وفق تـدبير رشـيد ويـدبره رب قدير بحكمة ولهدف.

ويبقى سـؤال : اذن لمـاذا تصـيب البعض المصـائب ، ويتمتع الآخر بالحسـنات حينـا؟! ولمـاذا تصـيبنا الحسـنات حينا ... والسيئات حينا آخر؟

ويجيب القرآن في هذه الآية عن هذا السؤال قائلا :

أما الحســنات فــان الله حين خلق النــاس أراد أن يــرحمهم لا أن يعـذبهم ، وقد وفر لهم كل وسـائل الراحة والسعادة والرفاه. وهو لم يطالبنا بثمن مقابل نعمه الـتي لا تحصى ، ولــذلك فــان الحســنات من الله ويجب ان نشـكره عليها ، أما السـيئات فليست من الله بـالرغم من انها تأتي من عند الله ، انها من نفس الإنسان فهو

الـذي يختـار لنفسه العـذاب ، فيبـدل خلق الله ، ويخـالف سنن الحياة وطبيعة الأشياء ، وآنئذ يقرر الله له العــذاب ، فيأتي العذاب من عند الله.

(**ما أَصابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِنَ اللـهِ وَما أَصـابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِـكَ وَأَرْسَـلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُـولاً وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً**)

وهـــذه الفكـــرة تعطينا ايمانا ايجابيا بالحيـــاة ، وانها سعادة ورفاه ، فتطلق مواهب الإنسان في طريق التقـدم والرقي.

ويلاحظ الفرق بين كلمتي (من) و (عند) في الآيـتين ، لكي يصـــبح التناسق بين الآيـــتين واضـــحا ، إذا فتـــبرير اللامسئولية ورفض طاعة الرسول والقول بأنها هي سبب المصيبات انه تبرير سخيف.

مَنْ يُطِعِ الرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطـاعَ اللـهَ وَمَنْ تَـوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (80) وَيَقُولُـونَ طاعَـةٌ فَـإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ غَيْـرَ الَّذِي تَقُـولُ وَاللــهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُــونَ فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ وَكَفى بِاللـهِ وَكِيلاً (81) أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِــيراً (82) وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِـهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْـتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَـوْ لا فَضْــلُ اللــهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً (83)

طاعة القيادة امتداد لطاعة الله

هدى من الآيات :

حاجة الامة الى الطاعة المبدئية هي أكــبر من حاجتها الى اي شـيء آخر ، إذ التعـاون والتطـوير ، والمواجهة مع الأعــداء ، وبنــاء واعــداد الجبهة الداخلية و.. و.. ، كل تلك نتيجة مباشرة للطاعة ، وانما تتقدم الأمم بقـدر تماسـكها واندفاعها ووحدة مسيرتها ، وهي كلها تأتي نتيجة الطاعة.

وهنا يعود القرآن ليذكرنا بضـرورة الطاعة في سـياق الحديث عن الانضـباط في المجتمع المسـلم خصوصا في الأزمات. وبينت الآيات :

اولا : ان طاعة الرســـــول هي طاعة الله لا اختلاف بينهما ولا تنــاقض ، وان الرســول ليس مــوكلا بالامة بل قائدا لها.

ثم بينت صـــــــورة واقعية عن الطاعة ، متمثلة في سـلوك المنـافقين الـذي يجب أن يتجنبه المؤمنـون وهو : التظاهر بالطاعة امام الرسـول ، وحبك المـؤامرات ضـده في

الليـالي ، وعلى القيـادة الا تهتم بهـؤلاء ، بل تبعـدهم عن المهـــــام الرســــالية ، وتتوكل على الله ، وتتوجه الى الصادقين.

وطاعة الله وطاعة رســــول الله واحــــدة ، إذ ان الرسول انما يجسد تعاليم الله ولو لا طاعة الرسـول لأنها بنـاء التوحيد ، وهـذا التماسك في المبـادئ الاسـلامية ، والتكامل والوحدة فيها لدليل على انها من الله ، إذ ان أي مبــــدأ بشــــري لا بد ان تجد فيه تناقضا بين الايدلوجية والتشريع ، وبين بنـود الايدلوجية ذاتها ، وقـوانين التشـريع مع بعضها.

وعاد القرآن الى الحديث عن الصور الواقعية للطاعة فـأمر بالطاعة حين تعـرض الشـخص لظـاهرة اجتماعية كالحرب والسلام ، وذلك بأن لا يـذيع الاخبـار حولها الا بعد مراجعة القيادة الشرعية المتمثلة في الرسول (ص) وفي العلماء الذين يستنبطون الأحكام من القرآن الكريم.

ثم بيّن صـــعوبة ذلك الا بالتوكل على الله ، إذ انه من دون فضله ورحمته يتبع الناس الشيطان الا قليلا.

بينات من الآيات :

امتداد الطاعة :

[80] ان الرسول (ص) وخلفـاءه من الائمة والعلمـاء ليسـوا أصـناما يعبـدون من دون الله ، بل هم عبـاد الله ، وطـاعتهم المفروضة هي امتـداد لطاعة الله ، وفي حـدود قيم الله وشـرائعه ، ومن لا يطيع الرسـول بـدافع ايمانه بالله فلا حاجة فيه ، ولا يجب على الرســول ان يفــرض عليه الطاعة بأسلوب آخر.

(**مَنْ يُطِعِ الرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطـاعَ اللـهَ وَمَنْ تَـوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً**)

لا تنافق :

[81] ولان طاعة الرســـول ليست بـــدوافع مادية ، فحــرام النفــاق مع الرســول والتظــاهر بالطاعة له ، ثم التآمر عليه.

(**وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ**)

اي إذا تركوك وخرجوا من بيتك.

(**بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ**)

بيّت وأضمر الخلاف معك ، وتآمر على القيادة.

(**وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ**)

ليحاســـبهم به غـــدا ، وما دام الله يكتب ذلك فليس عليك مسئوليتهم.

(**فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللــهِ وَكَفى بِاللــهِ وَكِيلاً**)

ان القيـــادة الرســـالية هي قيـــادة روحية ، يتبعها الملتفــون حولها على أســاس من القيم الــتي تمثلها ، ولا يجوز لهـذه القيـادة ان تجمع المنـافقين حولها ، ثم إذا جد الجدّ يتفرقون عنها ، أو يحاولون تحريف مسيرتها.

القيادة رمز الامة :

[82] والقيادة السياسية هي خلاصة النظام السياسي ، والنظــــام السياسي بـــــدوره هو تجربة ثقافة الامة ، وحضارتها ، ومدى سلامة رؤيتها ، وصحة تشريعاتها ، فـاذا تناقضت تركيبة القيـــادة الواقعية مع شـــعارات النظـــام السياسي ، أو مع أفكار

الامة وثقافتها وقيمها و.. و.. إلخ ، فـــان ذلك يـــدل على تناقض في التشريع ، أو انحرافات في القيم والثقافة التي تدعي الامة انها تلتزم بها.

فـاذا كـانت الامة تـدعي انها تـدافع عن الحرية مثلا. وجاءت قيادتها السياسية على أساس من الدكتاتورية ، أو ما يماثل هذه الديكتاتورية فأي حرية هذه؟!!

وإذا ادعى النظام أنه يلتزم بقيمة التقوى ، وجاء على رأس النظـام رجل فـاجر ، أو ادعت ثقافة الامة انها ترفع من قيمة العلم وكـــان الحكـــام فيها مجموعة من الجهلة الضـالين ، فـان كلامها هـراء ، إذ هل يمكن ان ترفع الامة من قيمة العلم دون ان يصبح العلماء وليس الجهلة قطب ارادتها ومركز قدرتها ، وثقل تجمعاتها؟

هكذا تكون تركيبة القيـادة السياسـية مثلا حيا لحقيقة الامة ، ونوع حضارتها ، وطبيعة قيمها الحقيقية.

الامة الاســلامية تتبع قيــادة تمثل روح الإســلام ، اي الرسول وخلفاءه وأئمة التقوى واليقين واتباعهم لها ليس بهــدف الحصــول على مصــالح عاجلة ، بل من أجل الله وتحقيق قيمه وشـــرائعه ، وهـــذا ابسط دليل على طبيعة الإسلام الحقة ، وانه بعيد عن التناقض.

(**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**)

وليس فقط في حقل القيــادة أو النظـــام السياسي للامة تظهر تناقضات الأديان والمبادئ وانسجام الإسـلام ، بل وأيضا في سائر التشريعات ، ففي الاقتصـاد تـرى ذات القيم الـــتي تجـــدها في السياسة من العدالة ، والحرية ، والاستقلال ، وفي

الأخلاق ، والتربية ، والاجتمـــاع. وهي في العبـــادات تجد ذات القيم الواحـدة لا تنـاقض فيها ولا اختلاف ، مما يـدل على ان الذي أوحى بها كان العليم الخبير ، حيث يستحيل ان تجد كتابا جامعا لدستور الحيـاة بكل ابعادها ، ثم يكـون بهذا الانسجام والدقة والتناغم ، فسبحان الله الـذي اوحى به.

القيادة مرجع الامة :

[83] ومن آيـات صـدق الرسـالة ، وان كتابها القـرآن حق لا ريب فيه هو : قيـادة الامة الـتي تمثل كتابها ، حيث يجب على أبنـاء الامة ان يطيعوها طاعة شـاملة ، سـواء في شؤون السلم أو الحرب ، فمثلا لو عرف أحدهم خـبرا ، فعليه ان يذهب به الى القيادة ويعرضه عليها قبل نشره لتتخذ الاجراء المناسب ، فقد يكون الخـبر اشـاعة كاذبة ، وقد يكـون وراء الخـبر حقيقة يجب على القيـادة ان تبـادر في اتخاذ الاجراء المناسب قبل نشره .. وهكذا.

(**وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ**)

هــؤلاء ليســوا من أهل التقــوى واليقين ، والا فكيف يذيعون الخبر قبل الاطلاع على حقيقته ، والخبر المقصـود هو فيما يرتبط بالشؤون المهمة حيث عبر عنه القـرآن ب (امر)

(**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُـولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْـرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**)

الاســتنباط هو : اســتخراج حكم الشــريعة من خلال النصـوص الصـحيحة. فهنـاك في الأمة من أوفى مقـدرة لربط القضـــايا الجزئية بـــالقيم العامة ، وبالقواعد الكلية الـتي تـدل عليها النصـوص. وهو قـادر على فهم خلفيـات الخبر وحكمه الشرعي.

(**وَلَــوْ لا فَضْــلُ اللــهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُــهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلاً**)

حيث ان الله أوضح لكم ســبيل اتبـــاع الحق ، وذلك حين أرسل الكتاب ، وعلمه رسوله وأولي الأمر من بعــده الــذين يســتنبطون احكــام الــدين منه ، وأوجب عليكم الرجوع إليهم ليتبعوا الحق وليس الشيطان.

فَقاتِـلْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَـكَ وَحَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَسَـى اللـهُ أَنْ يَكُـفَّ بَـأْسَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً (84) مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَـيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتـاً (85) وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَـــنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِـيباً (86) اللـهُ لا إِلـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَـةِ لا رَيْبَ فِيـهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً (87) فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ

---

85 [يشفع] : أصل الشفاعة : من الشفع الذي هو صد الوتر.
[كفل] : نصيب.
[مقيتا] : مقتدرا.
86 [بتحية] : التحية السلام.

فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (89) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (91)

---

88 [أركسهم] : الإركاس الرّد.

دور الرسول وموقف الأمة

هدى من الآيات :

دور الرسـول في الأمة دور القائد المطـاع ، والناصح الأمين والمحـرض لها بـالخير والهـدى ، وليس دور الوكيل المسـؤول بـديلا عن الأمة حـتى يتحمل ذنبهم جميعا ، ولا ريب ان دور التحرير دور هـام ، وذلك لأنه سـوف يعطي لصاحبه أجر من يعمل بالحسنة. وواجبنا تجاه الرسـول أن نـرد له التحية بأحسن منها ، وهـذه سـنة الله بين النـاس جميعا أن يردوا التحية بأحسن منها.

ومسـئوليتنا عموما نابعة من اننا جميعا سـنقف يوما للحسـاب أمـام ربنا في يـوم لا ريب فيه ، وعلينا أن نتحسس أبدا بذلك اليوم حتى نتحسس بالمسؤولية التامة أمـام الله سـبحانه وتعـالى ، وجـاء الحـديث حـول ذلك بمناسبة الحديث عن الأمن في المجتمع المسلم ، والـذين يعكـرون صـفوه ، وعلينا أن نتبع هـدى الله وسـنة رسـوله في اتخـاذ مواقفنا من هـؤلاء ، ولا نخضع مواقفنا للهـوى ، من هنا فعلينا الا نختلف في مواقفنا من المنـافقين الـذين يهـددون سـلامة الأمة ، بل علينا أن نتفق في معـاداتهم ، انهم يريـدونكم كفـارا لتصـبحوا مثلهم ، فلا تسـبقوهم في حقول الايمان والحضارة ،

وان الموقف الحاسم من المنافقين هو تصـفية كيـانهم الا بعض فئات منهم هم :

أولا : الذين تربطهم صلة التحالف معكم.

ثانيا : الضــعفاء منهم الــذين يخشــون مقــاتلتكم ، ويتخــذون موقفا حياديا بينكم وبين قــومهم ، ويفضــلون السلام معكم.

بيد أن من هــؤلاء من يتخذ موقف الحيــاد الســلبي ، فهو يســـعى من أجل الفتنة ، ولكنه يريد ان يشـــعلها بطريقة ذكية تؤمنه من أي ضــرر ، فهـؤلاء يجب إلحـاقهم بسائر المنافقين ، وبالتالي محاربتهم.

بينات من الآيات :

الأدوار التنفيذية للرسول :

[84] الرسول ليس مبلغا لرسـالات الله فحسب ، بل ومنفذا لتلك الرسالات بنفسه سواء نفذها الآخرون أم لا ، وهذه الميزة تجعل الناس أكثر ثقة بالرسالات السـماوية ، وأسرع استجابة ليس فقط لأنهم يجدون أمـامهم تجسـيدا حيا ، وعمليا لما يسـمعونه من الـدعوة ، بل ولأن (عمـل) الرسول يصنع (واقعا) في المجتمع ، وان لهذا الواقع أثــرا طبيعيا على المجتمع ، ويخلق انعكاسات على الحياة.

فمثلا قيام الرسول في مكة بفك رقاب العبيد بصورة مباشرة ، أو عن طريق إعطاء المال لبعض أصـحابه حـتى يشـــتروا العبيد ويعتقـــوهم ، ان ذلك خلق انعكاسا على المجتمع الجـــــاهلي ، وشـــــكل طبقة اجتماعية قوامها المتحــررون من العبودية ، وكــان لهــذه الطبقة أثرها في الحياة.

وإعلان الرســول القتــال ضد الكفــار هو بذاته يشـكل حقيقة واقعية تخلف أثرها

في تطبيق الدعوة ، ومن هنا أمر الله نبيه بهذا الإعلان :
(**فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**).

ودور الرسـالة هو تثـوير الإنسـان من أجل تفجـير طاقاته ، ومن ثم توجيهها في الصراط المسـتقيم ، وليس القيـام بمسـؤوليات النـاس كبـديل عنهم ، وكـذلك دور الرسـول فهو ليس مكلفا عن النـاس ، انما هو راع لهم ، ومبلغهم رسالة الله ، ومشجعهم على تنفيذ هذه الرسالة.

(**لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**)

وهـذه الفكـرة تنسف الواقع الـذي نعيش فيه نحن المسلمين ، حيث نزعم ان وجود الرسول فينا ، وحبنا له ، وانتماءنا اليه ، وان وجود كتاب الله الكـريم بيننا ، يكفياننا حضـارة وتقـدما ، ولا نحتـاج بعـدهما الى عمل ، انما الرسول محرض للإنسان.

(**وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**)

ولكن لا يعـني هـذا ان الله بعيد عن دعم المؤمـنين ، بل ان نصره يأتي وراء عمل الناس أنفسهم.

(**عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً**)

فالله هو الـذي يكف بـأس (وقـوة) الـذين كفـروا ، ويجعل بينكم وبين بأسـهم حـائلا من الـرعب يلقيه في قلوبهم ، بسبب قوتكم واستعدادكم للقتـال ، ولكن الله لا يفعل ذلك حتما ، وانما (عسـى) ان يفعل ذلك عند ما تكون فيكم الصلاحية لذلك ، والله قوي حين ينصر أولياءه ، وأشد قوة من الكفار ، وأقدر على إنزال الهزيمة بهم.

اعمل تشفّع :

[85] وتحريض الرسول هو شفاعته عند الله ، فبقـدر استجابة النـاس للرسـول يكـون قـدر سـيرهم في طريق الرسول المؤدي الى الله ، واعتصـامهم بحبل الله ، وبهـذا القدر يشفع الرسول لهم عند الله.

أما الرســول فانه ســوف يحصل على الأجر من عند الله ، وكل شـــخص يحصل على أجر معين كلما شـــفع شفاعة حسنة ، بـأن حـرّض النـاس على العمل الصـالح ، وبذلك شفع لهم عند الله ، أما لو دل على العمل الســيء وحـرض عليه ، فعليه من الـوزر بقـدر عمل النـاس بـذلك الوزر كاملا غير منقوص ، لأن الكلمة السـلبية أشد خطـرا وأكـثر ضـررا مما قد يعطيه الكلام الايجـابي من منـافع ، فجزاء ذلك أكبر من جزاء هذا ، وذلك بالقيـاس الى الفعل الذي ينتهيان اليه.

(**مَنْ يَشْفَعْ شَـفاعَةً حَسَـنَةً يَكُنْ لَـهُ نَصِـيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها**)

والله يحسب بالضبط مقدار عمل هذا أو ذاك.

(**وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً**)

قد أحرض أنا على عمل الخير بكلام ، ويـذهب كلامي عـبر الأقطـار ينتقل من اذن لأذن ، حـتى يتناقله الملايين ويعملون به ، ويكتب الله لي نصيبا مقدرا من عمل هـؤلاء جميعا ، دون ان اعـرف ذلك أو أسـتطيع ان احصى قـدر الثواب الذي يحصيه الله ويكتبه.

كن محسنا :

[86] والكلام الطيب من البشر لا بد ان يـــرد بكلام طيب ، والشفاعة الحسنة

يجب ان تقبل بالاســتجابة لها ، والله يحسب على النــاس كلامهم الطيب وجوابهم الأحسن أو لا أقل المناسب.

(**وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَــنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً**)

فالسلام مستحب ، والجواب فرض ، ورد التحية ليس في الكلام فقط بل في الرســــــالة أيضا ، فمن احترمك ببعث رســــــالة إليك فعليك ان تردها أو بأحسن منها ، وكذلك لو قـدم لك أحـدهم خدمة فعليك ان تردها بأحسن منها أو بمثلها.

[87] وعلينا ان نتحــذر من تجــاوز حقــوق النــاس المفروضة علينا ابتداء من أكبر حق وحتى حق رد التحية ، لاننا سنقف جميعا امام الله للحساب في يــوم لا ريب فيه ، وعدا على الله لا يخلفه ، وهل اصدق من الله حديثا

(**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَــةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً**)

ولقد عــبر القــرآن هنا بكلمة الى يــوم القيامة ربما للدلالة على معنى انه يجمعكم ويسوقكم الى ذلك اليوم ، ليجعلنا نتصور ذلك اليوم المهيب الـذي يسـاق النـاس فيه جميعا الى محكمة العــــدل ليجـــازي فيها المحســــنين والمسيئين بأعمالهم.

ضرورة الالتزام :

[88] وعاد القرآن الى الحـديث عن ضـرورة الالـتزام بتوجيهـــات الرســـالة في اتخـــاذ المواقف الاجتماعية ، فبالنســبة الى المنــافقين علينا الا نختلف فيهم ، بل نتخذ موقفا واحــدا منطلقا من مبادئنا ، ذلك الموقف هو قتــال المنافقين بكل حزم ،

وعدم التعاون معهم بـأي شـكل من إشـكال التعـاون ، ما داموا ملعونين عند الله ، غارقين في أوحال الكفر بسـبب ما فعلوه من السيئات.

(**فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ**)

أي لمـــاذا انقســـمتم الى طـــائفتين في موضـــوع المنافقين؟!

(**وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا**)

أي ان الله اركســـهم في الضـــلالة بفعل أعمـــالهم السابقة.

ومن السفه التفكير بأن التقارب مع المنافقين يسبب هدايتهم ، إذ ان الله أضل هؤلاء حين ابتعدوا عن الرســالة ، وأصــبحت نفوســهم معقــدة تجــاه الرســالة ، فلا يمكن إصلاحهم بل يجب تصفيتهم جسديا.

(**أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَهْـدُوا مَنْ أَضَـلَّ اللـهُ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**).

الهجرة انفصال والتحاق :

[89] ليس هذا فقط ، بل ان هؤلاء يحاولون اضلالكم أيضا ، ويحولونكم الى جبهة النفاق لتكونوا تماما مثلهم.

(**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَـواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**)

الهجـرة في ســبيل الله طريق الانفصـال عن مجتمع النفاق ، والالتحـاق بمجتمع الرسـالة والـذوبان فيه ، ولكن لو لم يهاجروا فلا حقوهم في كل واد حتى تقضوا عليهم ، لأنهم ســوف يشــنون عليكم غــارات مفاجئة ، وعليكم ألا تتعاونوا معهم

بأية صورة.

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

من نسالم

؟ [90] وهناك بعض فئات المنافقين لا يشملهم هـذا الحكم وأولهم : المتحالفون معكم ، فاذا كان المنافق من طائفة تـربطهم بكم صـلة الميثـاق ، فانه لا يقتل احتراما للميثاق.

والثـاني : الـذين لا يريـدون الاعتـداء عليكم بسـبب ضعفهم وجبنهم ، وهؤلاء لا يجوز الاعتداء عليهم.

(**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثـاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقـاتِلُوكُمْ أَوْ يُقـاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ**)

ولكن الله القى في قلـوبهم الـرعب فاسـترهبوكم وجبنـوا عن القتـال ، وقد عـبر القـرآن عن الجبن بكلمة حصـرت صـدورهم ، وهو تعبـير أنيق وعميق حيث ان من يشتد به الخوف تتسارع نبضات قلبه ، فتضيق نفسه وكأن قلبه محصـور ، وهـؤلاء ما دامـوا بعيـدين عن قتـالكم اتركوهم لشأنهم.

(**فَـإِنِ اعْتَزَلُـوكُمْ فَلَمْ يُقـاتِلُوكُمْ وَأَلْقَـوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**)

جزاء المخادعين :

[91] ولكن من المفروض الا يكون سلم هؤلاء خداعا ، فلو كان كذلك لوجب تعقبهم واخضاعهم للقانون.

(**سَتَجِدُونَ آخَـرِينَ يُرِيـدُونَ أَنْ يَـأْمَنُوكُمْ وَيَـأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها**)

ان هـــؤلاء يشـــاركون أولئك في الجبن ، بيد انهم حاقـــدون يتحينـــون الفـــرص ، بينما أولئك يائســـون مستسلمون لواقعهم الضعيف.

(**فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُـوا إِلَيْكُمُ السَّـلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**)

وبالتـالي لو لم يصـبح هـؤلاء مثل الفئة السـابقة في إنهـاء حالة العـداء ، وحبك المـؤامرات ضد سـلامة الامة ، فلا بد من قتالهم.

(**وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً**)

الســلطان المـــبين هو : الحجة الدامغة أو القـــوة القاهرة ، ذلك لأن هؤلاء المنافقين يعتبرون متآمرين على سلامة الامة عابثين بأمنها.

إن هذه الآيات تـبين لنا حكم الطوائف المختلفة الـتي تشــكل خطــرا على أمن الدولة الاســلامية ، وهي عــادة الفئات الموتورة والمعقدة التي تساهم في الإخلال بالأمن في البلاد ، وهي لا تطبق على الفئات الثائرة ضد الانظمة الطاغوتية الحاكمة ، لأنها لا تتمتع بشــــرعية الرســـالة كالنظـام الاسـلامي القـائم على أسـاس الحق ، والعـدل ، والحرية.

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (93) يا أَيُّهَا

---

92 [فتحريـر] : التحرير تفعيل من الحرية ، وهو إخـراج العبد من الـرق الى الحرية.

[دية] : الدية من ودي يدو ، اي اعطى المال المقابل للدم.

الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا ضَـرَبْتُمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَتَبَيَّنُـوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُـونَ عَرَضَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا فَعِنْـدَ اللـهِ مَغـانِمُ كَثِـيرَةٌ كَـذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللـهَ كـانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (94)

94 [عرض] : يقال لكل متاع الدنيا عرض ، ويقال لكل شــيء يقل لبثه عرض.

الأمن الشخصي

هدى من الآيات :

استمرارا للحديث عن الأمن في المجتمع الاسلامي ، تتحدث الآيات هذه عن أمن الإنسان ذاته في داخل المجتمع ، وجريمة الاعتداء على النفس خطأ أو عمدا ، ووجوب دفع الدية الباهظة والتكفير بالصيام لمن قتل نفسا بالخطإ ، اما من قتل نفسا متعمدا فان جزاءه جهنم خالدا فيها.

ولا يجوز الاستخفاف بقضية الدم ، بل حتى في العمليات العسكرية يجب التأكد قبل الهجوم على طائفة ، ولا تجوز الاغارة على الناس الآمنين بهدف الحصول على مكاسب مادية منهم بصورة غنائم ، إن هذه كانت عادة الجاهلية السوداء.

وان النفس البشرية محترمة في القانون الاسلامي ، ولا يجوز التفريط فيها أبدا ، والمجتمع المسلم لا بد ان يسوده الا من ، حتى يتحسس كل فرد بالاطمئنان فيندفع في البناء والاعمار.

بينات من الآيات :

قتل الخطأ بين الجواز والكفارة :

[92] لا يحق للمؤمن ان يعتــدي على نفس مؤمنة الا عن طريق الخطأ ، كـأن يريد اصـابة طـير فأصـاب مؤمنا فارداه قتيلا.

ان هـذه الصـورة الوحيـدة الـتي من الممكن ان يقتل فيها مؤمن مؤمنا ، أما سائر التبريرات التي كـان الإنسـان الجـاهلي يـبرر فيها اعتـداءه على النـاس ، فانها مـردودة على صـاحبها ، وحـتى في حالة الخطأ وضع الإسـلام على القاتل كفـــــارة فيها ، بـــــالرغم من ان الخطأ هو من مســقطات التكليف الــتي رفع القلم عنها كما جــاء في حديث النبي (ص) الشهير ، ذلك لكي يتحذر الإنسان كثيرا في أعماله حتى لا يصيب أحدا من المؤمنين بسوء ، فمثلا لا يصــطاد الطــير في منطقة يمكن أن يصـيب منها بــدل الطــــير رجلا مؤمنا خطأ ، ولا يصف دواء بطريقة عجولة فيموت بدوائه مؤمن وهكـذا ، وتكـون الكفـارة المفروضة على قتل الخطأ ســببا لمزيد من التــورع ، والاحتيـاط في الــدماء ، ومراعــاة شــروط الســلامة فيما يرتبط بحيــاة المؤمنين.

ويبقى السؤال : ما هي كفارة قتل الخطأ؟

يجيب القرآن الكريم : إنها على نوعين :

الأول : عتق رقبة مــؤمن فقط ، وذلك عند ما يكــون أهل المقتول كفارا ذلك لأنه لا يسلم المســلم دية للكـافر الا في حالة واحــــدة وهي إذا كــــان الكــــافر حليفا مع المسلمين ، فيجب دفع الدية له وفاء بالحلف.

الثــاني : عتق رقبة ودية تســلم الى أهل المقتــول ، وذلك حين يكونون مسلمين أو

حلفاء للمسلمين.

وإذا لم يقدر القاتل على عتق رقبة سواء كان فقيرا ، أو لانعـدام الرقبة المسـتعبدة كما هو الوضع في عصـرنا الحاضر ، فتتحول الكفارة الى صيام.

(**وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُـلَ مُؤْمِنـاً إِلَّا خَطَـأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَـةٍ وَدِيَـةٌ مُسَـلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا**)

أي أن يعفو أهل القتيل عن الدية تقربا الى الله ، وتصديقا بوعده بثواب العافين عن الناس.

(**فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**)

إذا كـان القتيل مؤمنا ، بيد أن قومه كـانوا أعـداء محاربين لكم ، فهنا تسقط الدية وتبقى الكفارة فقط.

(**فَتَحْرِيرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَـةٍ وَإِنْ كـانَ مِنْ قَـوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ ، فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَةٍ**)

لان الميثاق محـترم في الشـريعة الاسـلامية حـتى إذا كان طرفه كافرا.

(**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَـةً مِنَ اللهِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**)

يضع انظمته بعدالة تامة فمثلا : الاعتـداء على النفس يجب ان يقابل بتحرير نفس من العبودية ، ذلك ان الحرية تطلق طاقـات العبد المـؤمن ، وتجعله يعـوض ما فاته في الحياة الاجتماعية عن القتيل الذي خسره المجتمع.

أما الصيام فانه يـأتي بالدرجة الثانية ، لـيربي صـاحبه على الالـتزام الأشد في تصـرفاته ، حـتى لا يخطئ مـرة ثانية فيقتل مؤمنا آخر خطأ.

إن القتل خطأ يقع اليــوم كثــيرا بســبب التهــور في السياقة ، وعدم الالتزام بقوانين المـرور بدقة ، فلو طبقنا نظـام الإسـلام ، وفرضـنا على القتلة الدية والكفـارة ، إذا لأزداد التزام الناس بتعاليم السياقة ، ولقلت الحوادث.

كما ان هنـاك أطبـاء يقتلـون النـاس خطأ ، فلو طبقنا عليهم نظـام الدية والكفـارة لكـانوا أكـثر التزاما بتعـاليم الطب ، واهتماما بروح المريض.

جزاء القتل العمد :

[93] ان الاعتداء على النفس البشرية يجازي بالخلود الدائم في النار ، بسـبب ان القتل إنهـاء لحيـاة القتيل في الدنيا ، فيجازى بانهاء فرص الحياة في الآخرة.

(**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنـاً مُتَعَمِّداً فَجَـزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِـداً فِيها**)

اما جزاؤه في الدنيا فانه سوف لا يفلح ، وسوف يبعد من رحمة الله ونعمه الواسعة.

(**وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً**)

والقتل هو القتل بـــالرغم من ان اســـاليبه تختلف ، فهناك من يقتل الناس مباشـرة ، وهنـاك من يحكم عليهم بالقتل ، وهنـاك من يسـاهم في قتلهم بأفكـاره الهدامة ، وكل أولئك يلقون في جهنم خالدين فيها.

والمجتمع الــذي تجــري فيه جريمة القتل كســنّة لهو مجتمع شقي بعيد عن رحمة الله ، بعيد عن الحيـاة الهانئة ، بعيد عن القيم الرفيعة ، قريب الى الهاوية.

ان لغة الـدم هي لغة يتفـاهم بها بعض النـاس ، وهي ألّغن لغة تسـتخدمها البهـائم في الغابـات ، وهي لا تفصح عن صلاح أبدا ، ومن المؤسف ان يكون

المجتمع الاسلامي قد تعلم هذه اللغة اللعينة.

تشريعات واقية للدماء :

[94] والدم البشـري محـاط في الشـريعة الاسـلامية بسياج مـنيع من الانظمة الواقية من ان يـراق بغـير حق ، ومن تلك الانظمة ضرورة التأكد قبل الهجوم الحربي على طائفة ، من أن هــؤلاء مســلمون أم يريــدون الحــرب أو السـلم ، وقبل أن يتثبت المسـلمون من ارادة الاعتـداء أو المقاومة الدموية في خصومهم لا يجوز لهم البدء بـإطلاق النار.

ان الامة الاسلامية تؤسس جهـاز مخـابرات حربية ، لا من أجل كشف العــدو فقط ، بل ومن أجل معرفة هل ان الحرب هي الطريق الوحيد امام الامة ولا منـاص لهم منها ، أم ان هناك طرقا أخرى للصراع.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

أي أخـــذتم بـــالتحرك الجغـــرافي في ســـبيل تحقيق أهـــداف الإســـلام المتمثلة في تحرير الشـــعوب واقامة العدل.

(**فَتَبَيَّنُوا**)

لتعرفوا أعداءكم بالضبط فتأخــذوهم ، ولا تأخـذوا كل النـاس بتهمة العـداوة ، ومن الواضح ان هـذه التوجيهـات تنفع الامة في تحقيق اهــدافها ، إذ أنها تجنبها من إضــرار الاعتداء على الأبرياء ، واستعدائهم ضد الامة وضد اهدافها المقدسة.

فـاذا تـبين المسـلم فعـرف خصـمه ، واكتشف انه لا ينوي الاعتداء عليه ، بل هو مسالم فحرام إذ ذاك الهجــوم عليه بهدف الحصول على مكاسب مادية أو ميدانية.

(**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا**)

إذ رب عــــرض أعقب خســـارة ، ذلك لان اســـتعداء الشـعوب ، وانتهـاب ثـرواتهم ظلما ، سـوف ينفع الأعـداء الحقيقـــــيين للامة ، وتجعلهم موضع عطف الشـــــعوب المقهـورة ، وسـوف تتعـاون معهم ، بينما لو تـركت هـذه الشعوب على وضعها فسـوف تنتصر الامة على اعـدائها ، وتحقق فوائد النصر المضاعفة ، لذلك قال الله تعالى :

(**فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ**)

هي مغـانم الانتصـار على العـدو الحقيقي ، ومغـانم المصالحة مع الشعوب المسالمة ، ومغانم السمعة الطيبة عند الأمم ، بالاضـافة الى مغـانم الآخـرة! هـذه الوصـية جــاءت لتغيــير هــدف الحـــرب وقيمها من الجاهلية الى الإســلام ، ففي الجاهلية كـان النـاس يحـاربون من أجل الحصـول على مكاسب مادية مؤقتة (يسـميها القـرآن هنا ب ـ عرض ـ للدلالة على انها مؤقتة وتزول) بينما الحــرب في الإســـلام تهــدف اشـــاعة العـــدل ، وتحقيق الحرية ، واقامة السلام ، وهذه القيم لا تتحقق الا بصعوبة ، وبعـدم شن الحرب لاهداف مادية.

(**كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ**)

بالإســـلام .. وإنكم تــرون ما في الإســـلام من فوائد ملموسة أمامكم ، منها شعور كل شخص بالأمن الــذاتي ، فعليكم إذا باتباع وصايا الإسلام للإبقاء على هـذه الفوائد ، ومن تلك الوصايا التبين قبل أي هجوم.

(**فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً**)

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّــرَرِ وَالْمُجاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ بِـأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللـهُ الْمُجاهِـدِينَ بِـأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَفَضَّـلَ اللـهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (95) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللـهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً (96) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللــهِ واسِـعَةً فَتُهـاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً (97) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَـدُونَ سَـبِيلاً (98) فَأُولئِكَ عَسَـى اللـهُ أَنْ يَعْفُـوَ عَنْهُمْ وَكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً (99)

---

95 [الضرر] : النقصان وهو كل ما يصرك من عسر ومرض وعلة.
96 [درجات] : جمع درجة وهي المنزلة.

وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللـهِ يَجِـدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَمـاً كَثِيراً وَسَـعَةً وَمَنْ يَخْـرُجْ مِنْ بَيْتِـهِ مُهـاجِراً إِلَى اللـهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَـعَ أَجْـرُهُ عَلَى اللـهِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً(100)

---

100 [يهاجر] : المهاجرة المفارقة.
[مراغمـا] : المـراغم المضـطرب في البلاد والمـذاهب ، وأصـله من الرغام وهو التراب.

أهداف الجهاد

هدى من الآيات :

بعد الحـديث عن الأمن الاجتمـاعي الـذي جـاء بـدوره في أعقـــاب الحـــديث عن الطبقـــات الاجتماعية ، يـــأتي الحـديث عن بعض اهـداف القتـال في الإسـلام بمناسـبة الحـــديث عن طبقة اجتماعية هي طبقة المهـــاجرين داخل الامة.

فما دامت القيم هي هدف الحـروب الاسـلامية ، فـان اولى هذه القيم هي : عـدم الاعتـداء على الشـعوب تحت شعار أو آخر.

والثانية هي : القتـــــــــال من أجل الله ، وان يجعل المقاتلون في سبيل الله في درجة عالية داخل المجتمع.

والثالثة هي : تحرير الشـــعوب المستضـــعفة ، وهـــذا التحرير يرتبط بالامة الاسلامية كما يرتبط بالشـعوب ذاتها ، فعلى كل شـعب ان يقـوم بتحرير ذاته من الطـواغيت ، ولو كان بـالهجرة الـتي تهـدف تقوية الـذات من أجل شن حرب ضد الجبابرة والمتسلطين.

والأمر بالهجرة من قبل الإسلام يفرّغ جبهات العدو من العناصر الخيرة التي اضطرت لمقاومة المسلمين الذين جاؤوا لتحريرهم ، كما ويدعم الجبهة الاسلامية بالعناصر الجيدة ، كما ان الإسلام بأمره بالهجرة يتم حجته على المقاومين لحركة الفتح الاسلامي ، فلا يستطيعون تبرير مواقفهم بأنهم كانوا مضطرين الى ذلك.

بينات من الآيات :

مواقف المجتمع من الجهاد :

[95] بالنسبة الى الجهاد في سبيل الله ، يختلف الناس فيه الى ثلاث فئات : فئة مجاهدة ، وفئة لا تجاهد ولا تستطيع عليه ، وفئة تقعد عن الجهاد وهي قادرة عليه ، والفئتان الاوليتان أفضل عند الله من الفئة الثالثة ، وبالتالي أفضل داخل المجتمع الاسلامي ، ولهما حقوق ليست لسائر أبناء المجتمع.

(**لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ــ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ــ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً**)

وهذه الدرجة هي : ان المجاهدين تتخصص لهم اموال الامة قبل القاعدين ، وان لهم التأثير في حياة الامة الاجتماعية أكثر من القاعدين ، وفي الاخرة تعتبر أعمالهم أثوب عند الله ، وتقبل صدقاتهم قبل ان تقبل من القاعدين.

ان صلاة المجاهدين في سبيل الله ترفع الى الله بسرعة البرق ، لان صاحبها قرن القول بالعمل ، اما صلاة القاعد فانها قد ترفع أو لا ترفع ، وإذا رفعت فانما ترفع بشروط قاسية ، ومثل الصلاة سائر العبادات والممارسات ، ذلك ان الجهاد في سبيل الله يفتح عقل صاحبه ، ويعطيه الهدى والمعرفة والايمان ، والمجاهد في سبيل الله يزوده الله ببصيرة واضحة في الحياة ، لأنه اقتحم عقبة الذات ولم يعد بينه وبين الحقائق الكونية حاجز من الهلع والخوف والطمع والتردد والشك ، فاذا به

تنكشف أمامه حقائق الكون بوضـوح ، ويـزداد ايمانه بالله وبالقيم قوة وثباتا.

والمجاهد في سـبيل الله لا يعيش نفاقا في ذاته ، ولا تناقضا بين الـدنيا والاخـرة ، انه قد بـاع الـدنيا بـالآخرة ، واشـــترى بنفسه جنة عرضـــها الســـموات والأرض ، فهو مطمئن من نفسه ، واثق من طريقته ومنهجه.

ولكن لا يعني هذا ان القاعدين كفار ، بل هم مـدينون عليهم أن يهـــيئوا مصـــالح العبـــاد ، فـــالفلاح في حقله ، والعامل في مصـــــنعه ، والكـــاتب في مكتبه ، والكاسب والتـاجر و.. و.. لكل واحد من هـؤلاء واجب ، ومسـئولية ودور يؤديه في الحياة ، وعليه ان يــؤدي دوره تماما ودون غش فيه.

ان المدنيين في المجتمع الاسلامي يشـكلون صـفوف الجهاد في سبيل الله ، فلو لا زيادة الانتاج الـزراعي ، ولو لا جودة الصناعة الاسلامية ، ولو لا سلامة وصدق البحـوث العلمية المؤدية الى الكشوف والاختراعات ، ولو لا تــداور الـثروة بين التـاجر والكاسب و.. و.. إلخ ، لو لا كل ذلك لا يتمكن الجنـدي المسـلم ان يـؤدي دوره بالكامل ، ولـذلك بيّن القــرآن هنا : ان افضـــلية المجاهد لا تعــني أبـــدا ان القاعد (العامل بوظائفه المدنيــــة) قد غمط حقه ، وجهل قدره وقيمته وقال :

(**وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى**)

بإيمانه واتباعه لمناهج الله في الحياة ، وعـاد القـرآن وأكد اهمية الجهاد وفضل المجاهدين وقال :

(**وَفَضَّـلَ اللـهُ الْمُجاهِـدِينَ عَلَى الْقاعِـدِينَ أَجْـراً عَظِيماً**)

ذلك لكي يبين ان المجاهد رفعه الله درجة في الـدنيا ، وأعطاه اجرا عظيما في الدنيا والاخرة.

أجر المجاهدين :

[96] المجاهد يتمتع بأجر عظيم فما هو ذلك الأجر؟

اولا : انه يرفع عند الله درجات بقدر جهاده وتضــحيته ، وتنعكس هذه الدرجات في الدنيا أيضا مثلا : ان المجاهد يحسب عند الله عالما ويعطى درجة العلم ، لان الجهـــاد يفتح عقل صاحبه ، ويجعله يعرف كثيرا من الأشـياء الـتي يجهلها الناس القاعدون.

فدرجة العلم ينالها المجاهد عند الله ، كما ينعكس ذلك في حياته في الـــدنيا أيضا حيث يصـــبح عالما فعلا ، وكذلك يعطي درجة الايمان والتقـوى والشـجاعة والطاعة والانضباط وطول العمر والصحة.

وكل تلك الآثار الخـيرة للجهـاد هي درجـات ومكاسب في الاخرة تنعكس أيضا في الدنيا.

ثانيا : انه يمنح المغفـــــــرة والتوبة ، حيث ان الله سبحانه يمحو سيئاته السابقة ، ولا يجازيه بها في الاخرة ، كما انه في الدنيا يتخلص من آثارها السلبية على نفسه.

ان الحســود المعقد المنطـوي على ذاته ، والضـعيف الارادة ، والكثـير القـول ، القليل العمل ، التـارك بإهماله كثيرا من الواجبـات ، والمـرتكب بضـعف إرادته كثـيرا من المحرمات ، انه إذا انخرط في الحياة العسكرية الاسلامية ســوف تتغــير عنــده الصــفات بفضل الخشــونة والتعب ومواجهة الاخطار في العسكرية ، فيصبح الجهـاد بالنسـبة اليه مدرسة تربوية كاملة التــأثير ، وهــذه المغفــرة الــتي ينالها المجاهد وهي : الصـياغة الجديـدة للشخصـية ، وهي من خصائص الجهاد.

ثالثا : ان الله يعطي المجاهد الرحمة ، وهي تعــــني في الاخرة المعاملة الحسنة ،

وقبـول اعماله الصـالحة بلا تـردد ، وعـدم التـدقيق في حسابه ، اما في الدنيا فتعني : فتح أبـواب الحيـاة امامه ، لان الجهاد يربي صاحبه على التحكم في ذاته وفي الحيـاة ، ومن كـان كـذلك وفقه الله في الـدنيا ، بالاضـافة الى السمعة الطيبة التي يحصل عليها المجاهدون في المجتمع ، من هنا يصبحون موضع تقدير واحترام الجميع.

هـذه هي مكاسب الجهـاد درجـات ومغفـرة ورحمة ، لخصّها الله تعالى بقوله :

(**دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكـانَ اللـهُ غَفُـوراً رَحِيماً**)

واجب المستضعفين

[97] على الشـعوب المستضـعفة الـتي يتحكم فيها الطغـاة بالاسـتبداد والظلم ، ويسـلبون حريتها بـالقوة ، عليها ان تثـور ضد الطغـاة ، وإذا لم تسـتطع الانتصـار لنفسها في أرضها فعليها الهجـرة الى ارض اخـرى ضـمانا لحريتها ، وبـالطبع في ظل الدولة الاسـلامية سـتكون الأرض المسلمة معقل الحرية ، ومأوى المهاجرين الأحرار ، وعن طريق هجرة هؤلاء إليها تدعم قضـيتهم ، لان الامة الاسـلامية تحمل على عاتقها رسـالة تحرير الشـعوب المستضعفة ، وهؤلاء الأحـرار المهـاجرون سـوف يزيـدون من قـوة الامة ، ويعجلـون عملية تحرير أراضـيهم من نـير الطغاة والمحتلين.

والذين لا يهـاجرون في سـبيل الله الى مـوطن آمن ، ويـبررون ارتكـابهم للسـيئات ، ومسـاهمتهم في ظلم أنفسهم وعدم الـرد على المعتـدين عليهم ، هـؤلاء سـوف يسـاقون يـوم القيامة الى جهنم ، ذلك لان الظـالم والمظلوم في الذنب سواء ، إذ كان بإمكان المظلوم دفع الظلم عن نفسه ولم يفعل.

(**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ**)

أي جاءتهم الوفاة حين كـانوا يظلمـون أنفسـهم ، اما بعـــدم الـــرد على ظلم الظـــالمين لهم ، أو بـــاقترافهم السيئات تحت ضغط الظالمين.

(**قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ**)

أي كيف كنتم تعيشـــون وفي اية حالــة؟! بــالطبع لم يكونـــوا يعيشـــون في حالة رضا ، ولا في حالة طاعة لله لأنهم كانوا في ظل حكم غاشم ، ولكنهم لم يبينوا حـالتهم ، بل بينوا فقط عذرهم الذي سرعان ما ردّ في وجوههم.

(**قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ**)

قالوا : مستضـعفين ولم يقولـوا ضـعفاء ، لان الله لم يخلق أحـدا ضـعيفا ، بل النـاس هم الـذين يسـاهمون في أضعاف أنفسهم ، أو إضعاف بعضهم لبعض.

(**قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها**)

ما دامت الأرض لله ، وما دام الإنسان عبـدا له ، فلما ذا يسـتمر في ارض واحـدة؟ لمـاذا يعبد اقرانه حـتى ولو كـــان عليه الظلم والكبت؟ أفليس خـــير البلاد ما حمل الإنسان؟! كما قال الامام علي (ع).

إن جزاء هؤلاء هو اشراكهم في ظلم الظالمين لهم ، بالاضافة الى جزاء سيئات أعمالهم التي لا يبررها الضـغط عليهم من قبل الظالمين ، ما داموا قـادرين على الهجـرة عن ارض الظلم.

(**فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً**)

المستضعفون وواجب الهجرة :

[98] بلى هنـــــاك طائفة من المستضـــــعفين لا يستطيعون الهجرة ، فأولئك قد

يعفيهم الله من جزاء بقائهم في ارض الظلم.

(**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْـدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**)

فهؤلاء قد يكونون رجالا أو نساء أو شبابا ، وهذا يعني ان الهجـــرة مفروضة على كل الرجـــال القـــادرين ، وكل النســاء القــادرات ، وكل الشــباب القــادرين ، وليس من الصحيح بقاء المرأة القـادرة على الهجـرة لان زوجها غـير قادر ، أو بقاء الشاب لان والديه لا يستطيعان الهجرة.

ذلك لان الله ســوف يحاسب كل واحد منا على عمله بشكل انفرادي ، ولا ينام اثنان في قبر واحد.

وانما يعفى هــؤلاء عن جــزاء الهجــرة إذا لم يكونــوا قـــــادرين على دفع الظلم ، ولا على الهجـــــرة من ارض الظلم ، فهم لا يسـتطيعون حيلة لمنع الظلم عن أنفسـهم ، ولا يهتدون سبيلا للخروج من بلد الظالمين.

[99] ولا يسقط واجب الهجرة عن هؤلاء بمجرد عدم الهجرة ، بل عليهم ان يهيئوا لأنفسهم وسائل القـوة حـتى يهــاجروا ، أو يمنعــوا الظلم عن أنفســهم ، ولــذلك عــبر القـــرآن عن ســـقوط واجب الهجـــرة عن هـــؤلاء بقوله (عسى) للدلالة على الاحتمال القوي دون التأكيد ، حتى لا ينـام المظلومـون على الظلم تحت تـأثير مخـدر اليـاس ، وتبرير عدم القدرة على الهجرة أو الثورة.

كلا فـان الإنســان غـير القـادر عند نفسه ، قد يكــون قـادرا في الواقع لو تحـرك متـوكلا على الله ... قـال الله تعالى :

(**فَأُولئِكَ عَسَـى اللـهُ أَنْ يَعْفُـوَ عَنْهُمْ وَكـانَ اللـهُ عَفُوًّا غَفُوراً**)

ان صـــــفة العفو الكاملة عند الله هي وراء العفو عن هــؤلاء ، والا فهم مســئولون أيضا عن عــواقب ســكوتهم وبقائهم مع الظالمين.

ماذا تعني الهجرة

؟ [100] والهجرة لا تعني الاستغناء عن الوطن ، بل معناها الانتقال من الوطن الصغير الى الوطن الكبير ، من الأفق الأضــــيق الى الأفق الارحب ، الى حيث الرخــــاء والحرية.

فهناك أراض واسـعة خلقها الله ، والمهـاجر سـيجدها امامه إذا لم يدركه المـــــوت في الطريق ، اما إذا أدركه فانه سيجد امامه رحمة الله والجنة.

(**وَمَنْ يُهــاجِرْ فِي سَـبِيلِ اللــهِ يَجِـدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً**)

سـيجد ترابا كثـيرا ، والـتراب يشـكل نصف حضـارة الإنسان ، لأنه موقع السكن والزراعة والسياحة ، ونصـفها الاخر الحرية الـتي عــبر عنها القــرآن ب (ســعة) ، حيث يمكن للبشر في ظل الحرية ان يستثمر طاقات الـتراب ، ويعيش حياة هانئة.

(**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهـاجِراً إِلَى اللـهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ**)

لأنه هـاجر بهـدف دعم قضـية الرسـالة المتمثلة في تطبيق مناهج الله وتحرير عباد الله.

(**وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

وكلمة اخـيرة : ان نظـرة واحـدة الى التـاريخ تعطينا فكرة واضحة عن دور الهجـرة الاساسي في تأسـيس كل الحضارات الكبرى ، وفي أغلب الحركات

الاصــلاحية والتحررية في العــالم عــبر العصــور ، واهمية الإســلام انه يجعل الهجــرة واجبا دينيا مقدسا ، وقاعـــدة اساســية في حيــاة المؤمــنين ، وبــذلك يضــمن للحركة الاصلاحية البقـاء ، والتوسع ، والقـدرة على تجـاوز القـوى الطاغوتية ، كما يجعل لها افقا عالميا يســـاعد على تركيع الطغـــاة بفضل تعـــاون الشـــعوب الســـاعية نحو التحرير والتقدم والتطوير.

وليت القـوى التحررية الاســلامية عـرفت اليـوم هـذا الدور الاساسي للهجرة ، وركزت جهودها في ارض حرة ، ثم انطلقت منها لتحرير الشعوب.

وَإِذا ضَـــــرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـــــاحٌ أَنْ تَقْصُـــــرُوا مِنَ الصَّـــــلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (101) وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّـلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَـإِذا سَـجَدُوا فَلْيَكُونُـوا مِنْ وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَـكَ وَلْيَأْخُـذُوا حِـذْرَهُمْ وَأَسْـلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ تَغْفُلُــونَ عَنْ أَسْــلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُــونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَـةً واحِـدَةً وَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كـانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَــرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَــعُوا أَسْــلِحَتَكُمْ وَخُـذُوا حِـذْرَكُمْ إِنَّ اللـهَ أَعَـدَّ لِلْكـافِرِينَ عَـذاباً مُهِينـاً (102) فَـإِذا قَضَـيْتُمُ الصَّـلاةَ فَـاذْكُرُوا اللـهَ قِيامـاً وَقُعُـوداً وَعَلى

جُنُوبِكُمْ فَـإِذَا اطْمَـأْنَنْتُمْ فَـأَقِيمُوا الصَّـلاةَ إِنَّ الصَّـلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتـاً (103) وَلا تَهِنُـوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُـوا تَـأْلَمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَـأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ وَكانَ اللـهُ عَلِيماً حَكِيماً (104)

صلاة الخوف

هدى من الآيات :

الآيـــات الثلاث الاولى بينت بعض ما يرتبط بـــالهجرة والقتــال من احكــام الصــلاة (كالقصر في الصــلاة حين السفر ، وحين الخـوف ، وصـلاة الخـوف جماعة ، وواجب التسلح حين اقامة صلاة الخوف).

وجاءت هذه الأحكام لتبيّن عدة حقائق :

أولا : ان للهجرة أو القتـال اهـدافا اساسـية ومقدسة تتلخص في رضا الـرب ، واقامة حكمه في الأرض ، وعلينا الا ننسى هذه الاهداف ، ونحن نعيش صعوبة الحيـاة أثنـاء الهجـرة أو القتـال ، وذلك بإقامة الصـلاة أثنـاء الهجـرة أو القتال ، والقرآن يريد بناء مجتمع متـوازن ومتكامل البنـاء بما يحقق جميع جوانب الإسلام المادية والروحية.

ثانيا : ان على المســلم الا يــزعم ان العبــادات هي اهـداف ، وانها لا تتغـير ، بل انها ــ بـالرغم من اهميتها ــ وسائل في اطار الاهداف الكبرى للمسلم ، ولذلك

فهي تتطــور وفق مقتضــيات تحقيق تلك الاهــداف ، مثل ظروف الحـرب أو الهجـرة ، فالصـلاة وهي أهم العبـادات تختصر بسبب الهجرة أو الخوف.

ثالثا : على المســلم الا ينشــغل بالصــلاة عن بــاقي واجبات الاستعداد المادي ، فعليه ان يكـون حـذرا مسـلحا سـريعا ونشـيطا ، فـاذا كـان الاسـتعداد واجبا حـتى حين الصلاة ، فكيف به في غير هذه الحالة؟!

بهــذا يريد القــرآن أن يــبيّن لنا مــدى الضــرورة في تحقيق الشــروط الموضــوعية للنصر على العــدو وعــدم التكاسل عن واحد منها ، بتــبرير أننا مســلمون وقضــيتنا قضية حقة.

والآية الرابعة والاخيرة تبين هذه الحقيقة بصفة اخرى ، إذ تحذرنا من مخـاطر الحـرب وآلام الهجـرة ، وتـبين لنا ضـــرورة الاســـتعداد النفسي لتحملها ، والا نتصـــور ان الحرب لعب ، أو ان الهجرة سياحة ، إذ ان هذا التصور قد يــؤدي بنا الى الــوهن والارتخــاء ، والتقــاعس عن متابعة المراحل النهائية للحـــرب ، والاكتفـــاء فقط بإســـقاط الواجب.

بينات من الآيات :

القصر وصلاة الخوف :

[101] في حالة السفر والخـوف من العـدو ، كما إذا كــان المهــاجر يتعقبه الكفــار لــيردوه الى معتقل الكبت والإرهاب ، هنالك لا بأس عليه ان يصلي قصـرا ، فيحـذف من كل صلاة رباعية ركعتين ، بالرغم من ان الصلاة عبادة موقوتة ، وعلى المســـلم أن يؤديها كما هي دون نقيصة ، فانه بسبب السفر أو الخوف يسقط نصف هذه العبادة.

(**وَإِذا ضَــرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنــاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ**)

ويبقى سؤال : هل القصر واجب في هذه الحالة؟

الجواب :

بلى .. والسبب ان تعريض المسلم ذاته للخطر حرام ، فاذا كانت الصلاة الواجبة فقط ركعتين ، فاضافة ركعتين أخريين في ظروف الخوف حرام.

من هنا اكتفى القـرآن بكلمة (لا جنـاح) أي (لا بـأس) لبيان سقوط الوجوب عن الركعتين الاضافيتين.

أما حرمة إقامتهما فقد سكت عنها لوضـوح الأمر من خلال معرفة ظـروف الخـوف الـتي أسـقطت قسـما من الصلاة ، فلا يجوز التفريط فيها بحياة المسلم.

(**إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

أي ان يخـــدعوكم بمكيـــدة ، ويعـــودوا بكم الى ارض الطاغوت ، أو يقتلوكم أثناء الصلاة.

(**إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً**)

فعليكم التحذر منهم حذرا شديدا.

الحرب وصلاة الجماعة :

[102] أما في حالة الحرب فان الصلاة تقام جماعة ، حيث ينقسم المســلمون الى طــائفتين : طائفة يقيمــون الصلاة ، وأخرى يواجهون العدو.

اما القائد فهو يصلي بكلتا الطــائفتين ، حيث انه يقف امـــامهم ووراءه الطائفة المصـــلية يصـــلون معه ، وفي الركعة الاولى ينتظر الامام وهو جالس بينما يسارع

المأمومون بالقيام والركوع والسجود ، وحين سـجود هـذه الطائفة تعود الطائفة الثانية التي لا تزال غير مصلية حتى يصـيروا وراء المصـلين ، وبمجـرد انتهـاء صـلاتهم وزحفهم نحو العدو ، يكـون هـؤلاء قد اسـتقروا في مكـانهم ، حيث يقف الامـام ويتـابع صـلاته ، وتـأتم به هـذه الطائفة بحيث تصـــبح الركعة الثانية للإمـــام مســـاوية للركعة الاولى للمـأمومين (وهم هنا الطائفة الثانيـة) فـاذا جلس الامـام للتشهد قام هؤلاء وأضافوا ركعة ثانية وانهوا صلاتهم.

فيكـون المحصل ان الامـام صـلى ركعـتين كل ركعة بطائفة ، وتكـــون كل طائفة قد صـــلت ركعة مع الامـــام وركعة منفردة.

(**وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَـــأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّـــلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُـذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَـإِذا سَـجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْـرى لَمْ يُصَـلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ**)

وعلى المحاربين أن يكونوا في حالة الصلاة مسـلحين ، ولا تشـغلهم الصـلاة عن الحـرب بما فيها من الاهتمـام بالسلاح والعتاد والحذر.

إذ ان العــــــدو ينتظر هـــــــذه الفرصة لينقض على المسلمين ويبيدهم ، وفي حالة واحدة فقط يسـمح بوضع السـلاح وهي حالة الضـرورة ، مثل ان يكـون المطر مانعا من الاهتمـام بالصـلاة والسـلاح معا ، أو يكـون الشـخص مريضا لا يســتطيع ان يقـــوم ويقعد ويســجد وهو مثقل بالحديد.

(**وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ**)

أمتعة الحـــرب هي العتـــاد أو الـــزاد وكلها ضـــرورية للنصر.

(**فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَلا جُنـاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ**

كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً)

وبالطبع يكون الحر الشديد ، أو الرياح العاتية وما أشبه من الظروف التي يصبح حمل الاسلحة فيها حرجا يكون بمثابة المطر.

ذكر الله بصيرة المؤمن :

[103] فاذا انتهت الصلاة ، وعاد المقاتلون الى الحرب ، فعليهم ان لا ينسوا ذكر الله في مختلف الحالات.

(**فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ**)

أي وأنتم مستلقون.

وربما جاء الأمر بذكر الله بعد صلاة الخوف لتكميل النقص فيها ، حيث يستحب ان يذكر المصلي قصرا ربه خلال فترة من الزمن ، تساوي فترة صلاة الركعتين اللتين سقطتا عنه ، ولكن لا يجب ان يكون ذلك في هيئة الصلاة ، بل أثناء قيامه بالأعمال العادية.

وبعد انتهاء الخوف وعودة الحياة الطبيعية ، تعود الصلاة كما كانت اربع ركعات.

(**فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً**)

أي أمرا ثابتا ، ومقدرا في أوقات محددة ، والشيء لا يكون ثابتا إلا لأهميته ، كما لا يكون محددا تحديدا دقيقا إلا لأهميته أيضا.

[104] إذا كان أداء الصلاة في الحرب يختلف عنه في السلم ، إذا يجب ان

يكون قصرا ، ويتسلح المصـلي خلالها ويتحـذر ، فـان ذلك يهـدينا الى مـدى اهمية التسـلح والتحـذر في الحـروب ، وبالتالي الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات ، وهذا شرط ضروري لنصر الله.

ومن الاستعداد التهيؤ النفسي للقتال ، والشجاعة في الاقدام من دون خوف أو تردد ، وهذا ما تبينه هذه الاية :

(**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ**)

لا تضـعفوا في متابعة الأعـداء ، ومهاجمة معـاقلهم ، والتفـتيش عنهم ، وبتعبـير آخر : كونـوا دائما المبـادرين بالهجوم على العدو ، ولا تخافوا من عواقب الهجوم ، ذلك لان العدو بشر مثلكم ، وهو يألم وينهـار بالصـعوبات ، كما تـــألمون أنتم ولكنكم لا تنهـــارون ، لأنكم ترجـــون الله سبحانه.

(**إِنْ تَكُونُـوا تَـأْلَمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَـأْلَمُونَ كَما تَـأْلَمُونَ وَتَرْجُـونَ مِنَ اللـهِ ما لا يَرْجُـونَ وَكـانَ اللـهُ عَلِيمـاً حَكِيماً**)

فهو بعلمه المحيط بكم يعلم مقـــدار تضـــحياتكم ، وبحكمته يعطيكم النصر على قــدرها ، بعد الصــبر عليها ، وليس عبثا وبلا سبب.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْـكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (105) وَاسْـتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (106) وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتـانُونَ أَنْفُسَـهُمْ إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ مَنْ كـانَ خَوَّانـــاً أَثِيمـــاً (107) يَسْـــتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَكانَ اللهُ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيطـاً (108) ها أَنْتُمْ هـؤُلاءِ جـادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللـهَ عَنْهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ أَمْ مَنْ يَكُـونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (109) وَمَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً (110)

---

107 [يختانون] : يخونون.

108 [يستخفون] : يستترون ويتوارون.

المذنبون بين التوبة والعصيان

هدى من الآيات :

في ســـياق الحـــديث العـــام عن طبقـــات المجتمع الاسلامي في هذه السورة ، تتحدث هذه الآيات عن طبقة المـذنبين ، وهم الـذين يخونـون أمانـات النـاس فيـأكلون أموالهم بالباطل ، أو يخونون أمانة الله فـيرتكبون الخطايا الـتي تعـود على أجسـامهم أو عقـولهم بالضـرر ، وهـذه الطبقة تحاول أن تستميل القيادة الى جنبها حتى تعمل ما تشاء ، لذلك أمر الله رسوله الا يجـادل عنهم والا يحميهم ، ذلك لأن الرسول عليه أن يتبع الحق الذي أنزل عليه في الكتـاب ، ويتخـذه مقياسا لحكمه على النـاس ، واتخـاذه المواقف منهم.

وهـذه الطبقة تخشى من افتضـاح أمرها عند القيـادة والجماهير ، ولا تعرف أنها أحق بالخشية من عـذاب الله ، ولذلك فحتى إذا انحرفت القيـادة وهـادنتهم زورا ، وحـتى إذا ضللت الجماهير ، فهي لا تبتعد عن عقاب الله سبحانه وتعالى غدا.

وأمــام هــذه الطبقة طريق واحد للتخلص من واقعها وهو التوبة ، فاذا تابوا وعادوا الى الايمان أصـبحوا وكـأنهم لا سوابق سيئه لهم.

بينات من الآيات :

المبدئية في القيادة الاسلامية :

[105] القيادة الاسلامية قيـادة مبدئية وليست قيـادة مصـلحية ، ولـذلك فهي لا تنظر الى بعد النـاس أو قـربهم إليها ، بقـــدر ما تنظر الى بعـــدهم أو قـــربهم عن الله سبحانه.

ومن هنا فهي لا تمـالئ طبقة الكـبراء أو المفسـدين لمجرد قوتهم ، أو من أجل دعمهم المحدود للقيادة. كلا .. بل تنابـذهم العـداء حـتى يتوبـوا الى الله ، فـالقوي العزيز عند القائد الاسـلامي ذليل ضـعيف حـتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف الذليل قوي عزيز حتى يؤخذ الحق له ، كما قال الامام علي (ع).

ان الكتـــاب هو المقيـــاس في الحكم على النـــاس وليست المصالح أو الأهواء.

(**إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ**)

ولذلك فلا مكان للفساد الاداري في الحكم الاسـلامي الصحيح ، ولا مكان للواسطة ، والرشـوة ، والمحسـوبيات على حساب حقوق الناس.

(**وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً**)

أي لا تخاصم في مصـلحة الخـائنين ، ولا تجعل قــوة السلطة في خدمة هؤلاء

الـذين يخونـون النـاس ويـأكلون حقـوقهم ، وهـؤلاء هم أصحاب مراكز القوى والعائلات الكبيرة ، وأصـحاب الجـاه العريض والثروة الطائلة.

حفظ الاستقلال مهمة القيادة

[106] المهمة الصـعبة للقيـادة هي : المحافظة على اســـتقلالها امـــام الخـــائنين ، وترفعها عن اغــــراءاتهم ورشـواتهم ومكائـدهم ، وقـدرتها بالتـالي على أن تكـون حاكمة بين الناس بالعدل.

ولصـعوبة هـذه المهمة أمر الله القيـادة بالاسـتغفار ، إيحاء بأنها لو وقعت في شرك الخائنين «لا يسمح» فعليها أن تصحح مسيرتها بسرعة وتتوب الى الله.

(**وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**)

ان الاسـتغفار يعطي القيـادة مناعة من الوقـوع تحت تأثير مراكز القوى ، ويعطي القيادة شجاعة لتحدي الناس ، والخوف فقط من الله رب الناس أجمعين.

[107] (**وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ**)

أي يخونون أنفسهم بارتكابهم الذنوب ، وعلى القيادة الرسالية ألا تهادن هؤلاء ولا تجمّل صـورتهم القبيحة أمـام الناس ، وتـبرر للنـاس معاصـيهم ، لأن الله لا يحب هـؤلاء الـذين لا يزالـون يخونـون أمانة الله الـذي أمـرهم بحفظ أجســامهم ، وعقــولهم ، وكــرامتهم من الإثم والخطيئـة. فـالزاني يخـون الله في جسـده ونسـله وهما أمانتـان لله على عاتقه ، وشارب الخمر يخون الله في جســده وعقله ، ولا عب القمار

يخون الله في جسده وماله ، وبالتالي كل مذنب يتصــرف في نعم الله التي هي أمانات عنده بغير ما أمر الله.
(**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً**)

ازدواجية الشخصية

[108] هـؤلاء يتكتمـون على أنفسـهم لكي لا يعـرف النــاس ارتكــابهم للــذنوب ، غــافلين عن أن الله عــارف بأمرهم ، وأنه هو الذي يجازيهم عليه.

فــالخمر والزنا والقمــار وكل الـذنوب الأخــرى تتبعها آثارها الضارة ، سواء عرف الناس أم جهلوا.

ثم إن الله يعرف هؤلاء قبل أن يرتكبـوا الـذنوب ، بل حين ينـــوون ذلك أو يتـــآمرون بينهم عليها في الليل ، إن الله معهم يسمعهم ، ويسجل عليهم أقوالهم ونياتهم ، أفلا يستحيون منه؟!!

(**يَسْـتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْـتَخْفُونَ مِنَ اللـهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُـونَ ما لاَ يَرْضى مِنَ الْقَـوْلِ وَكـانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً**)

فهو يعلم ما يقولون وقـادر على منعهم مـتى يشـاء!! كما هو قادر على أن يأخذهم حين يشاء أخذ عزيز مقتدر!

[109] ولنفرض أنكم بررتم مواقف هؤلاء المـذنبين ، وجمّلتم صورهم أمام الناس هنا في الـدنيا ، فمن ينقـذهم هنــاك في الآخــرة من الفضــيحة أمــام الخلق في يــوم القيامة؟ ومن يخلصهم من حكم اللـه؟ ومن يحـامي عنهم في محكمة العدل؟!

(**ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللـهَ عَنْهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ أَمْ مَنْ يَكُـونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**)

[110] ولهـــؤلاء بـــاب واحد للخلاص هو التوبة حيث أنهم لو دخلوه أصبحوا مواطنين شـرفاء يقبل الله تـوبتهم والمؤمنون.

(**وَمَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثُمَّ يَسْـتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً**)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (112) وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113) لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (114) وَمَنْ

---

114 [نجواهم] : النجوى هي الأسرار ، والنجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة أو الاثنان ، سرا كان أو ظاهرا.

يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسـاءَتْ مَصِيراً (115)

---

115 [يشـاقق] : الشـقاق الخلاف مع العـداوة ، وشق العصا أي فـارق الجماعة.
[نوله] : من الولي وهو القرب يقال الشيء يليه إذا قرب منه.

التبرير باب النفاق

وطريق الانحراف

هدى من الآيات :

أســـوأ ما في طبقة الخـــائنين والمختـــانين أنهم لا يتحملون نتائج أعمالهم ، فيحاولون إلقاء مسـئولياتها على الآخـــرين بطريقة أو بـــأخرى ، فيقولـــون مثلا : أن حادثة القتل قد ارتكبها فلان ، أو يقولون بأن السـبب في شـربنا الخمر تربية الآبـــاء لنا على ذلك ، وأننا تبعا ، لـــذلك فنحن غير مسئولين عن هذا الذنب بل آباؤنا هم المسؤولون.

وعند تبرئه أنفســـهم واتهـــام الآخـــرين بـــالجرائم ، يحاولون تضليل القيادة واقناعها خطأ بأن مرتكبي الحادث الفلاني هم فلان وفلان.

ولكن هذه المحاولة تبوء بالفشل ، وتخلف أثرا سـلبيا على أنفسـهم ، إذ تجعلهم يتصـورون أنهم غـير مسـئولين تصورا أشد ، وبالتالي لا تتركهم يعودون الى رشدهم.

والرسول لا يضلل لأن الله انـزل عليه الكتـاب ، وفيه بصائر توضح المواقف

التي لا بد من اتخاذها من مختلف الأشـخاص ، كما أن فيه الحكمة والأســـلوب الصـــحيح لمعاملة النـــاس حسب طبقـاتهم وأعمـالهم ، وفيه القـدرة على كشف الحقـائق وهذا هو الفضل الكبير.

وبعض هـؤلاء يحـاول الـتزلف الى الرسـول ومناجاته لكي يبرئ ساحته أمام النـاس ، ويتظـاهر بمظهر المـؤمن المقرب عند الله وعند رسـوله ، فيـأتي ويناـجي الرسـول وهو لا يملك شيئا يقوله ، بينما المناجاة يجب أن يكون لها هـدف سـام ، وبعضـهم ينابذ الرسـول العـداء علنا ، وهو بـذلك يختـار الكفر على الايمـان والله يعامله على هـذا الأساس.

بينات من الآيات :

مسئولية الإنسان :

(111) ما دام الإنسان حـرا في تصـرفاته فانه يتحمل مسئولية أعماله ، وليس من الصـحيح أن يلقي بمسـؤولية عمله على الآخرين باسم أو آخر ، فليست التربية ، وليس المجتمع ، وليست السـلطة ، وليس الأصـدقاء و.. و.. هم المسـؤولون عن ارتكـاب الفـرد للخطيئة أو الإثم بقـدر ما هو المسؤول.

(**وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ**)

أي يكسبه ويكون ضررا على نفسه.

(**وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**)

ولذلك فانه لا يحمل المسؤولية الا على من ارتكبها.

[112] وحين يفعل الفـــرد خطيئة كبـــيرة أو إثما ، ثم يحاول القاءها على الآخرين ويدعي انهم المسؤولون عنها ، أو حتى يدعي ــ كـذبا ــ انهم هم الفـاعلون مباشـرة لها فـان ذلك يعتـبر إثما جديـدا ، يضـاف الى إثمه السـابق ، فيصبح إثما مضاعفا ومسئولية مزدوجة.

(**وَمَنْ يَكْسِـبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمـاً ثُمَّ يَـرْمِ بِـهِ بَرِيئـاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً**)

وعودة مثل هذا الشخص الى الطريق الصحيح أصعب من عودة من يرتكب الذنب ويعـترف به ، لأن هـذا يـزكي نفسه ويبعدها عن دائرة المسؤولية ، فكيف يمكنه إصـلاح ذاته؟!

وربما الخطيئة هي : الإثم الكبير ، ومنه الـذنب الـذي يعــود بضــرره على الآخــرين ، بينما الإثم مطلق الــذنب والبهتان وادعاء قيام الناس بالذنب وهم براء منه.

الاجرام المضلل والقيادة المبدئية :

[113] المجرمــون والخــائنون للنــاس المختــانون لأنفسهم يحاولون دائما تضليل القيـادة ، وذلك باسـتمالتها بــإغراءات مختلفة مثل : المســاهمة في الأربــاح الــتي يحصلون عليها باغتصـاب حقـوق النـاس ، أو دعم القيـادة في مواجهة أعــدائها في الــداخل والخــارج ، أو تخويفها بالانضــمام الى الجبهــات المناهضة لها ... وهكـــذا ، في الواقع أن خطر وقــوع القيــادة في شــرك هــؤلاء خطر عظيم.

ومن الصعب أن تصمد القيادة أمام موجات الضـغوط ، والاغراءات القادمة

من طرف المجرمين ، إلا إذا كانت القيادة مبدئية تتمسك بالرســـالة ، وينقـــذها الله في لحظة الضـــغوط ببعض الانتصـــارات الـــتي تجعلها مطمئنة الى قوتها في مواجهة الضغوط ، والرسالة هي فضل الله ، والانتصـارات وركـائز القوة هي رحمة الله.

(**وَلَوْ لا فَضْلُ اللـهِ عَلَيْـكَ وَرَحْمَتُـهُ لَهَمَّتْ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ**)

والواقع أن تلك الطائفة قد خططت فعلا لتضـــــليل القيادة ، ولكنهم حين وجدوا امامهم طود الايمـان الراسخ تراجعوا ولم يحركوا ساكنا وكـأنهم لم يهمـوا بـذلك أبـدا ، وهذا من بلاغة القرآن حيث بيّن أنهم لم يهموا بالرغم من ان النية كـانت موجـودة لـديهم ، ولكنهم حين لم يجـرءوا بتنفيذها فكأنهم لم يهموا ..

(**وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**)

ذلك لأن الإنســان إذا أراد أن يضــلل النــاس تترسخ عنـده الضـلالة أكـثر فـأكثر ، وكـذلك كل صـفات الإنسـان العقلية والنفسية ، انك حيث تريد ان تعلم أحدا شيئا يزداد علمك ، وإذا أردت أن تهدي أحدا تزداد هدى.

(**وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ**)

بـالرغم من تهديـدهم لك بـأنهم سـوف ينضـمون الى الجبهـات المعادية لو لم تسـكت عنهم ، ذلك لأنهم عناصر انتهازية ، وهم لا ينفعون جبهتك أبدا.

وأنك يا رسـول الله تمثل قيـادة رسـالية ذات دسـتور ثـابت متمثل في (الكتـاب) وذات رؤية اسـتراتيجية ذكية ناجحة متمثلة في (الحكمـة) وهـذا هو فضل الله عليـك. ومن جهة أخـرى إنك تملك يا رسـول الله العلم وهو قـوة هائلة لدحر العدو

وهو رحمة الله عليك فكيف يضرونك؟!

(**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَـكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**)

أهداف المنافقين :

[114] ومن أساليب هؤلاء الماكرة التزلف الى رسول الله لهدفين :

الاول : محاولة التأثير فيه حسب المستطاع.

الثاني : إظهار القوة لأنفسهم أمام الناس ، والتظاهر بالتقوى ، حتى يمكنهم خيانة الناس والاستمرار في المعاصي بعيدا عن روع الجماهير.

ولكن على الرسول أن يبعدهم عن نفسه. وان يصغي الى نجوى من يأمره بالخير ، وهكذا على كل قيادة رسالية أن تبعد عن نفسها البطانات الفاسدة ، وتتخذ مستشارين صالحين يأمرون بالخير.

(**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَـدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**)

لعل الصدقة هي العطاء المالي لوجه الله ، والمعروف هو العمل الصالح ، والإصلاح هو ازالة التوتر بين الناس ، والمستشار المؤمن هو الذي يأمر بالعطاء في مواقعة الصحيحة ، فهو يفتش عن المحرومين ويأمر بالعطاء لهم ، ولا يأمر بالعطاء للمستكبرين الطغاة أو لأصدقائه وأقاربه!

وهو يـأمر أيضا بالأعمـال الحسـنة المفيـدة للمجتمع ، ويأمر باتباع الحق والهدى ، وهو يـأمر بالإصـلاح ولا يـذكي الأحقاد ، أو ينمي في القيادات الحساسيات التافهة ، وهذا المستشار المؤمن يهـدف بعمله مرضـاة الله ، لا مرضـاة سـيده وأقاربه وأهوائه ، وجـزاء عمله سـيراه في الـدنيا والآخرة.

(**وَمَنْ يَفْعَـلْ ذلِـكَ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللـهِ فَسَـوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**)

معصية الرسول كفر بالله :

[115] والمجرمون الذين يعارضون رسول الله (ص) لأنه أمـــرهم بـــالتقوى ولم يرضخ لضـــغوطهم ، لا بد أن يعرفـوا أنهم يبـارزون الله ، وانهم سـوف ينتهي بهم الأمر الى الكفر والى جهنم.

(**وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ**)

أي يتردد عليه وينشق عن قيادته.

(**مِنْ بَعْـدِ ما تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُـدى وَيَتَّبِـعْ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ**)

ويقف في الجبهة المعادية لجبهة الرسول والمؤمـنين ، فانه يحكم على نفسه بـالكفر ، والله يكـرس عليه هـذا الحكم الذي رضيه لنفسه بما فيه من مصير أسود.

(**نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً**)

ان هـذا الإنـذار يجعل المـؤمن يفكر مـرتين قبل أن يقـدم على مقاومة القيـادة ، بسـبب تصـلب القيـادة في تطبيق القانون عليه ، وعدم استجابتها لضغوط أهل

المعاصي في الامة ، وبـذلك تكـون القيـادة قوية وقـادرة على تطبيق القانون على الجميع.

لقد ثبت عند أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» أن واحدا من قـواد جيشه شـرب الخمر ، فاسـتقدمه وأجـرى عليه الحد ، ولم يقبل توســله أو شــفاعة أحد فيه فقــام الرجل وقال :

يا أمير المؤمنين البقاء معك «ذل» ومفارقتك «كفر» فأجابه الامـــام قـــائلا :

(كلا .. ان البقاء معي عـز) ذلك أن تطـبيق نظـام السـماء بالعدل هو العز ، ولقد كـان بإمكـان هـذا أن ينسـحب الى جبهة العـــدو ، ولكنه خشي أن تنطبق عليه هـــذه الآية فيصبح كافرا.

إِنَّ اللـهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ ما دُونَ ذلِـكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلالاً بَعِيـداً (116) إِنْ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلاَّ إِناثـاً وَإِنْ يَـدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيـداً (117) لَعَنَـهُ اللـهُ وَقـالَ لَأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِـيباً مَفْرُوضـاً (118) وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعـامِ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِـرَ خُسْـراناً مُبِينـاً (119) يَعِـدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (120)

---

117 [مريدا] : المارد والمتمرد بمعنى العاتي والخارج عن الطاعة.
119 [فليبتكن] : التبتيك التشقيق ، والبتك القطع.

أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصــاً (121) وَالَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ سَــنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَـداً وَعْـدَ اللـهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً (122)

---

121 [محيصــا] : مخلصا ومهربا ، والمحيص من حــاص ، بمعـنى عـدل وانحرف.

الشرك بين الارادة ، والهوى

هدى من الآيات :

استمرارا للحديث القرآني عن طبقة الخائنين والمختانين أنفسهم تبين هذه الآيات جانبا من قضية الشرك بالله ، ذلك الجانب الذي يعتبر النهاية الحتمية للتمادي في معصية الله ، واتباع الهوى من دون الله.

ان الخيانة للناس أو للنفس تنتهي بنوع من الشرك ، والشرك لا يغفره الله أبدا لأنه ضلال بعيد.

وذلك النوع هو عبادة الأصنام والأجنة باعتبارها آلهة صغارا يشفعون عند الله سبحانه ، والواقع أن عبادة هؤلاء ليس للصنم بل رمز للشيطان المريد الذي يضل هؤلاء ، وقد أقسم قديما على تضليل البشر.

وان تقديم الذبائح للأصنام بتلك الصورة البشعة إنما هو بأمر الشيطان الذي يستخدم في تضليلهم سلاح الوعود الكاذبة ، والأماني الباطلة ، فهو يعدهم بالخصب والرخاء ، ويمنيهم بألا يؤخذوا بجرائم أعمالهم.

وبعكس ما يعدهم الشيطان فان هؤلاء سوف يلاقون جزاء أعمالهم في

جهنم ، وسوف لن تنفعهم أماني الشيطان.

والذين يعملون الصـالحات وهم مؤمنـون سـيد خلـون الجنة.

ان الشرك بالله هو نتيجة اتباع الهـوى ، وإنما يشـرك بالله من يشـرك حين يسـتمر في معاصي الله ، ويتهـرب من مسئوليات طاعته.

بينات من الآيات :

الشرك بالله وحدود المغفرة

[116] بـــالرغم من أن رحمة الله واســـعة ومغفرته كبيرة تشمل كل الـذنوب إلا أنها لا تسع الشـرك بالله لأنه ذنب عظيم ، وضـلالة بعيـدة لا يمكن إصـلاحها أو التغاضي عنها.

(**إِنَّ اللـهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشـاءُ وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللـهِ فَقَـدْ ضَـلَّ ضَـلالاً بَعِيداً**).

لأنه لم يعـــرف الله حـــتى قرنه ببعض خلقه ، ولم يعرف الخلق حتى قرنه بالله سبحانه ، وليس هناك شـيء أبعد من شـيء في طبيعته وصـفاته وأسـمائه من الخـالق عن المخلوق ، فالذي يخلط بينهما لم يعرف أيا منهما.

والشـــرك انحـــراف رئيسي لا يصـــلح معه عمل وهو أشبه ما يكون بالسير نحو الشرق للوصول الى هـدف في الغـرب حيث لا يمكن تصـحيح هـذه المسـيرة ، بل علينا تبـديلها تماما ، ولـذلك لا تسع مغفـرة الله جريمة الشـرك رغم أنها تسع كل ذنب آخر.

ولأنه انحراف رئيسي وسائر انحرافات البشر متفرعة عنه ، بل ليس هناك انحراف إلا ويحمل في جذوره صورة مصغّرة من الشرك بالله.

فـــالتكبر على النـــاس ، والتعـــالي عليهم ، والايمـــان بالعنصرية والطبقية و. و. نوع

مصـغر من الشـرك حيث لا يتكـبر الشـخص إلا إذا وضع نفسه في صف الإله ، ونسي انه ليس سـوى مخلـوق من خلق الله ، ولا ريب ان التكبر بدوره جـذر لآلاف الجـرائم. إذ أن الشـخص الـذي يتعـالى على النـاس لا يتـورع عن القيام بأية جريمة ممكنة بحقهم ، والخضوع لبعض النـاس ، واعتبـــار كلمتهم هي الحق الـــذي لا ريب فيه ، واتبـــاع ســـيرتهم اتباعا مطلقا ، وبالتـــالي العبودية لهم نـــوع من الشـرك بالله ، حيث يضع الخاضع سـيده في صف الإله ، وينسى أنه ليس ســوى بشر ضـعيف ، وعبودية الآخــرين جذر لآلاف الجرائم أيضا ، وهكذا سـائر المعاصي الكبـيرة والصغيرة إن هي إلا صور مصغرة عن الشـرك باللـه. تلك الضلالة البعيدة التي تجسد كل انحرافات البشر.

منشأ الشرك

[117] والشـــرك بالله يبتـــدأ بفكـــرة القـــوى الغيبية الخارقة التي تسمى بالأرواح وتنقسم الى :

الملائكة وهي القــوى الخــيرة ، والأجنة وهي القــوى الشريرة.

فالملائكة كانت تعبد في الجاهلية باعتبارها بنـات الله سبحانه ، بينما كان الجن يعبد باعتباره أنـدادا لله ومنافسا لسلطته على الكون.

(**إِنْ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلَّا إِناثـاً وَإِنْ يَـدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً**)

والمريد أي المتمـــرد دائما عن إطاعة أوامر ســـيده والاعتقاد بالأرواح (الشريرة منها والخـيرة) والاسـتعانة بها ، وجعل رمـوز حجرية لها في شـكل أصـنام تعبد ، وتقـدّم إليها القـرابين. كل تلك كـانت أغلالا على طاقـات البشر ، وقيودا تعطل انطلاقته في الحياة.

ان الجـاهلي الـذي كـان يتصـور ان (هبـل) هو الـذي يشـــفيه من مرضه ، لا يطلق طاقاته من أجل البحث عن الـــدواء ، كما انه لم يكن يســـعى من أجل تنمية ماله أو أرضه أو ماشـيته أو تجارته سـعيا عقلانيا لأنه ما دام يعتقد أن بضع ذبـائح تهـدى الى اللات تكفي لفعل المعجـزة في حياته الاقتصادية.

وكان الجاهليون يعطلون عقـولهم حين يتصـورون ان الجنّة (الشياطين) توحي إليهم ، وكـان أحـدهم يجلس في غرفة مظلمة ، ويقـوم بعملية إيحـاء ذاتي مسـتمر حـتى يخيل اليه أن هاتفا غيبيا يحـاوره ، وإنما كـان يحـاور ذاته ، ويجتر خيالاته وظنونه ، وبالتالي كان كلامه لا يعدو تكـرارا لا واعيا لما انطبع بقلبه من أفكـار وانعكاسـات ، وبـالطبع كـان كلامه الـواعي وغـير الـواعي مجـرد أباطيل وأوهـام تقف حاجزا أمام انطلاقة فكره ، وتحرك عقله.

أهداف الشيطان

[118] وقصة الملائكة تختلف عن قصة الشـــياطين فبينما الملائكة عبــاد مطيعــون لله ، لا يشــفعون إلا لمن ارتضى ، وبالتــالي التقــرب إليهم لا ينفع شـيئا لأن الكلمة الحاسمة النهائية إنما هي لله سبحانه ، أما الشياطين فهم مطـرودون من رحمة الله وملعونـون ، ولكنهم اليـوم في فسحة من المهلة ، ولا يعـني قيـامهم بإضـلال البشر أنهم قـــادرون على مقاومة هيمنة الله كلا .. بل يعـــني أن الله أمدهم بفترة من الوقت لكي يمتحن عباده بهم.

فالشيطان وهو إبليس.

(**لَعَنَهُ اللهُ**)

(**وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**)

ان الشـــيطان وهو يمثل قـــوى الشر والخطيئة ، ويدغدغ رغبات السوء في البشر ،

ويمد في جهلة وضلالته. انه جاد في إضلال الإنسان ، وقد خطط للسيطرة على بعض أبناء آدم.

ولـذلك قـال : (نصـيبا مفروضـا) وكأنه تقاسم مع الله البشر فأخذ طائفة معينة وترك طائفة لله سبحانه.

الشيطان وفساد الحياة

[119] الشيطان يستخدم سـلاح الأمـاني في إضـلال البشر ، وعلينا كبشر أن نتحـذر من هـذه الأمـاني حـتى لا يعمل سلاح الشيطان فينا عمله الخطير.

الشيطان يمني الإنسـان بطـول العمر ، وبـالخلود في الدنيا ويمنّيه بالملك الدائم والثروة الطائلة ، وهكذا يصـور الشـيطان للإنسـان ان الوصـول الى أهدافه ممكن عن طريق ملتو.

ويأمر الشيطان الإنسان فيما يأمره من الضلالة ليبتّك آذان الأنعام ، ويغير خلق الله.

إن ذلك يمثل ضلالة الشيطان التي يأمر بها الإنسان ، إنه يمثل دعوة الشيطان للإنسان بـأن ينحـرف عن طريق الاستفادة من الطبيعة الى طريق إفساد الطبيعة.

ان الله خلق الأنعـــــام وخلق كل عضو فيها نافعا لها ومؤديا وظيفة في جسـدها ، وبالتـالي جعل كل عضو من أعضائها يؤدي بصورة غير مباشرة خدمة للإنسـان ، ولكن الشـيطان يضل البشر ويجعله يفسد أعضـاء الحيـوان ، وبالتالي يسقط منافعه المرتقبة له.

(**وَلَأُضِــلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُــرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**)

ولـذلك فمن يتبع الشـيطان فانه يخسر منـافع الحيـاة لأن الشيطان يبعده أبـدا عن الطـرق السـليمة للاسـتفادة من الحياة.

(**وَمَنْ يَتَّخِـذِ الشَّـيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللـهِ فَقَـدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً**).

تسويف الشيطان

[120] ماذا يقول الشيطان للإنسان؟

يقـول غـدا وبعد غد سـوف تحصل على كـذا وكـذا ... فاذا بلغ غـده يعـده بما بعـده حـتى يبلغ أجله ولا يصل الى شيء مما وعده الشيطان.

(**يَعِـــدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِـــدُهُمُ الشَّـــيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**)

ما هي النتيجة؟

[121] اما في الدنيا فسوف يصابون بنتائج غرورهم ،

وأما في الآخــرة فجــزاؤهم فيها جهنم لا يسـتطيعون فيها فرارا.

(**أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً**).

أي لا يزحزحون عنها قيد أنملة ، والكلمة من : حـاص يحيص أي تحرك في مكانه.

[122] أما المؤمنون الذين لم يخلطوا بايمانهم شركا ، وأخلصوا العبادة لله الحق ، فان جزاءهم الجنة.

وهــذا وعد من الله ولكنه وعد حــق. بعكس وعــود الشــيطان الكاذبة لأن الله أجل وأعظم من الكــذب ، ولا يدعوه الى الكذب حاجة أو جهل سبحانه.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً**).

ذلك هو منتهى تطلع الإنسـان أن يسـكن جنة تتـوفر فيها حاجاته الجسـدية ، والمتع النفسـية ، ومن أبرزها الأنهار التي تضـفي جمـالا على الجنة ، وأن يكـون مطمئنا الى مسـتقبله ، وأنه خالد لا يزعجه مـوت أو طـرد عن النعيم المقيم فيه.

(**وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً**)

لَيْسَ بِأَمـانِيِّكُمْ وَلا أَمـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتـابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (123) وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّـالِحاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ لِلَّهِ وَهُـوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْـراهِيمَ خَلِيلاً (125) وَلِلَّهِ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (126)

---

123 [أمـــاني] : جمع أمنية وهي تقـــدير الأمن في النفس على جهة الاستمتاع به وأصله التقدير.

124 [نقيرا] : هي النكتة الصغيرة المنخفضة في ظهر النواة التي منها ينبت.

125 [خليلا] : الخليل مشــتق من الخلة الــتي هي المحبة أو من الخلة الــتي هي الحاجة وإنما اســتعمل بمعــنى الصــداقة لأن كــلّ واحد من المتصادقين يسد خلل.

صاحبه وقيل لأن كل واحد منهما يطلع صـاحبه على اسـراره فكأنه في خلل قلبه.

إبراهيم قدوتنا في الالتزام

هدى من الآيات :

هناك قاعدتان نفسيتان للشرك بالله.

الأولى : اللامسؤولية.

الثانية الجهل بالله.

بالنسبة للقاعدة الأولى : فان من الأسباب التي تدعو البشر الى الشــرك بالله ، والايمــان بالإنــاث من عبــاده ، وبالشــــــــيطان المريد إنما هو محاولة التخلص من ثقل المسؤولية في الحياة.

ذلك ان البشر الــذي يهــوى الفردية المطلقة لنفسه يريد أن يـبرر بطريقة أو بـأخرى أعماله القبيحة ، فيتوسل بفكرة تعدد الآلهة حتى يطمئن نفسه بالخلاص من عقــاب الله عن طريق التزلف الى إله آخر.

ولقد رأينا كيف ان الشــيطان يمد أوليــاءه في هــذا الغي عن طريق إعطاء

الأماني الكاذبة التي تخـدع الإنسـان ، وتعـده بالجنة بـدون عمل.

وفي هذه الآيات ينسف القرآن هذه القاعدة النفسـية ، ويبين أنّ الأماني لا تكون مقبولة أبدا عند الله.

وإن المسؤولية موجودة اعترف بها البشر أو أنكرها ، وأنّ من يعمل سـوءا أيا كـان فله جـزاؤه العـادل. كما أنّ من يعمل الصــالحات يجــزى عليها من دون نقيصة ، وأنّ المقيـاس عند الله هو التسـليم المطلق له لا التمـرد عليه بحجة التحــرر ، أما البرنـامج العملي للإنسـان فهو طريق إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، بعد أن أسلم وجهه لله.

وفي الآية الاخـــــيرة ذكر ســـــبحانه ان له ما في السموات والأرض ، وبذلك نفى القاعـدة الثانية للشـرك ، وهي جهل الإنســـان بعظمة الله ، بواسع قدرته ، وبأنه لا يقارن بخلقه.

بينات من الآيات :

الأماني وواقع المسؤولية :

[123] هل تحصل على مليون دينـار إذا حلمت بـذلك أو تمنيتهـا؟ وهل تبـني مدينة كبـيرة بمجـرد التخيل بـذلك والرغبة فيها؟ كلا ..

فكيف يريد البشر أن يحصل على الجنة ، وهي أغلى وأعظم من مليون دينار ، ومن مدينة كبيرة بمجرد الأمنية.

إن مثل هــذه الأمنية مثل شـيخ كبـير فقد ابنه العزيز عليه في حادثة مفاجئة ، ولهــول الفاجعة لم يســتطع أن يصـدق بها ، فيمـني نفسه بحيـاة ابنه في محاولة لتخفيف الألم عنه.

وبـالرغم من أنه يعلم بمـوت ابنه ، ولكنه يتهـرب من عقله ، ويسـتريح الى ظل خياله الـوارف. كـذلك الـذين يتهربون من مسئوليات أعمالهم بالأماني.

ان نفوسهم صغيرة ، وأن عزائمهم ضعيفة ومتهاوية ، ولا يقـدرون على تحمل المسـؤولية فيتهربـون الى ظل الخيال ، ويمنون أنفسهم بشـتى الأمـاني ، ومنها مثلا : ان المسـيح سـيفدينا بنفسه ، أو ان هبل ينقـذنا من عـذاب الـرب ، وهكـذا .. أما القـرآن فيجعل الإنسـان وجها لوجه أمام مسئولية في الحياة ، ويقول له :

(**لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ**)

التي تزعمـون بها التخلص من المسـؤولية عن طريق التوسل بالأصنام.

(**وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ**)

الذين يزعمون ان المسيح سيفديهم من ذنوبهم.

(**مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

فلا يـدفع أحد عنه عـذاب الله لأنه لا أحد قـادر على مواجهة سلطان الله في الكون.

تخزين الأعمال

[124] وفي المقابل سـيجزي الصـالح بقـدر أعمالـه. من دون أية نقيصة سواء كان ذكرا أو أنـثى ولكن بشـرط واحد هو أن يكـون عمل الصـالحات من منطلق الايمـان بالله. إذ من دون هذا الايمان فان الصالحات ستكون زبـدا طافحا على السيل سرعان ما تنكشف حقيقته.

(**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا**

يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

أي لا يظلمون حتى بقدر ما في الحفرة الصغيرة الموجودة في طرف نواة التمرة ، أو بمقدار موقع نقر الناقر.

وشعور الإنسان بأن كل أعماله حسنة محفوظة له ، وهو مجزي بها عن قريب ، هذا الشعور يدفعه الى التسارع في الأعمال الحسنة ، ومحاولة مضاعفتها يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة.

ولكي يدفع الشيطان البشر الى التكاسل يوحي اليه : أن سيئاته تغفر له بشفاعة فلان وعلّان ، وان حسناته لا تقبل منه ، لذلك نجد القرآن يؤكد عبر هاتين الآيتين أن للحسنات والسيئات جزاءها العادل من دون نقصان.

خط إبراهيم :

[125] ليس التوجه الى الأصنام ، والتنافس في عبادتها ، وتفاخر كلّ فريق بصنمه ، ليس ذلك هو الدين الحسن إنما الدين الحسن هو ما فعله إبراهيم حين أعرض عن كل رموز الشرك والضلالة ، وكل أصنام الظلم والعبودية ، وتوجه الى الله وحده ، وأخلص العبودية له ، وأسلم وجهه له. أي بوجهه كاملا اليه ، فلم يهدف شيئا غير وجه الله سبحانه ، ثم تزود بالصالحات فلم يكتف بالواجب منها فقط. بل أكثر منها حتى أصبح محسنا.

(**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً**)

أي مشى على طريقة إبراهيم في رفضه الأصنام والرموز الحجرية والبشرية.

(**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً**)

فانتفع إبراهيم برفضه العبودية للأصنام والشركاء نفعا عظيما ، حيث قربه

الله اليه ، وجعله خليلا له.

[126] ان الـــــذين يتخـــــذون من دون الله أربابا لا يقــدّرون الله حق قــدره. بل لا يعرفــون الله إطلاقا ، فلو عرفــوا الله وعلمــوا أنه بسط قدرته على كل شــيء في السـماء والأرض إذا لصغرت في أعينهم الأحجـار الصـماء التي تنحت بأيـديهم ، وتتخذ آلهة من دون الله ، ولتضـاءل الأشـخاص الـذين زعمـوا بـأنهم شـركاء لله ، ان معرفة قــدرة الله من النظــرة الفاحصة في الســماء والأرض ، واكتشاف آثار قدرته. انها معالجة جذرية لمشكلة الشــرك في الإنسان ، ولذلك ذكرنا الله هنا بهذه القدرة :

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكــانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً**)

احاطة علم وقدرة. فليس هنـاك شـيء يتطـاول على قدرة الله ، أو يخفى على علمه سبحانه ، وإذا ثبتت قـدرة الله ، وعرفنا ألّا ملجأ منه إلا إليه فـــان من الطـــبيعي أن نسلم وجوهنا له ، ونتبع ملة إبراهيم حنفاء.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (127) وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا

---

127 [يستفتونك] : الفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ، ويقال : استفتيته فأفتى بكذا والاستفتاء السؤال عن الحكم.

128 [الشح] : افراط في الحرص على الشيء ويكون بالمال وبغيره من الاعراض ويقال الشح البخل وعدم التنازل عن الحقوق.

بَيْنَ النِّسـاءِ وَلَـوْ حَرَصْـتُمْ فَلا تَمِيلُـوا كُـلَّ الْمَيْـلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ غَفُـوراً رَحِيمـاً (129) وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّـهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكانَ اللهُ واسِعاً حَكِيماً (130)

العدالة في العلاقات الأسرية

هدى من الآيات :

العدالة أسـاس العلاقـات الاجتماعية ، وعلى المسـلم أن ينشر بــذور العدالة في أســرته. فلا يظلم زوجته الــتي هي في بيته ، وتحت رعايته ، ولا يأكل عليها مهرها خصوصا إذا كانت يتيمة.

وبعد الزوجة يـــأتي دور الأطفـــال الصـــغار الـــذين لا يســـتطيعون دفاعا عن حقـــوقهم ، واليتــامى. حيث يجب تطبيق العدالة في علاقة الشخص بهم.

وعلى الزوجة أن تحـاول من جانبها اقامة علاقاتها مع الرجل على أســـاس المصـــالحة لا المطالبة بكل ذرة من حقوقها.

ذلك ان علاقات المصـلحة الذاتية ، وبالتـالي المطالبة التامة بكل الحقـوق تسـبب الشـقاق بسـبب طبيعة البخل المرتكــزة في نفس البشر ، ولــذلك فالأفضل دائما اقامة علاقة التقـوى والإحسـان والمسـامحة بـدلا من العلاقـات الحدية حيث يطالب كل جانب بكل حقوقه.

وعلى الرجل ألا يحرص في تعدد الزوجــات إذ أن من الصعب عليه اقامة العدل بينهن ، فيضطر الى ترك واحدة منهن أو أكثر كالمعلقة فلا هي زوجته ولا هي مطلقة.

وفي حالة وصـــــــــول العلاقة الزوجية الى حالة من الجمــود والتنــافر فالأفضل الانفصــال دون أي خــوف من الفقر لأن الله هو الرزاق.

ان علاقة الــزوجين ببعضــهما تشــكل جانبا هامّا من علاقـــات المجتمع بعضه مع بعض. كما وانها تنعكس على هــذه العلاقــات ســلبا أو إيجابا ، وكثــير من الــذنوب تنشأ مباشرة أو غير مباشرة من العلاقة السّيئة بين الزوجين.

ولذلك أعاد القرآن هنا الحديث عن العلاقـات الزوجية بعد ما تحــدث عنها في بداية الســورة ، وذلك في اطــار الحــديث عن الــذنوب وطبقة المــذنبين الــذين يختــانون أنفسهم أو يخونون الناس ، لتكـون الـذنوب الـتي تـرتكب في المحيط العائلي مثلا للذنوب التي ترتكب خارجه.

بينات من الآيات :

حقوق المرأة :

[127] بسبب النظـرة الجاهلية المقيتة الى النسـاء ، واعتبارهن العنصر الأقل كفـاءة وحقوقا من الرجل ، فـان الجاهليين كانوا يسألون الرسول كثـيرا عن تجـاوز حقـوق النساء ، هل فيه اثم؟ خصوصا إذا كانت المــرأة زوجة في بيت الرجل لأنها في هذه الحالة تعتـبر في ظن الجـاهليين ملحقة بالرجل ، وليس لها أي استقلال عنه.

فأجاب القرآن هنا عن سؤال الجاهليين حول النساء ، وبين أن علينا أداء حقـوقهن كاملة كما جـاء في الشـريعة الاسـلامية. متمثلة في الكتـاب خصوصا إذا كـانت المـرأة يتيمة فعلنا أداء حقها كاملا إذا أردنا الزواج منها.

(**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ**)

وكذلك حقوق المستضعفين من صغار العمر واليتامى. كل تلك الحقوق يجب أن تراعى رعاية تامة.

(**وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ**)

وعلى المؤمن أن يزيد على أداء الحقوق بالإحسان الى هذه الطبقات ويعلم أن كل عمل يعمله خير مكتوب عند الله.

(**وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً**)

الصلح في العلاقات الأسرية :

[128] كما يجب على الرجل أن يوفي حقوق المرأة فعليها أن تتسامح بدورها عن بعض حقوقها خصوصا إذا رأت في زوجها ميلا الى عدم أداء حقوقها ، أو حتى الاعراض التام عنها.

(**وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**)

فالإسلام وضع حدودا ثابتة في العلاقات الاجتماعية ، وكلف الناس بتطبيقها كلما اختلفوا فيها ، ولكنّه وضع قانون التراضي والصلح لاضفاء المرونة الواقعية على تلك الحقوق ، فمثلا : المهر حق من حقوق المرأة وعلى الرجل ألا يتزوج بلا مهر ، ولكن هناك نساء أغنياء يتزوجن لسبب أو آخر من رجال فقراء. أفلا يمكن أن يتنازلن عن صدقاتهن للأزواج؟

بلى. لأن ذلك يتفق مع واقعية التشريع وكذلك بالنسبة لسائر حقوق

الزوجة ، فقد لا تكــون من مصــلحتها المطالبة بها تماما ، ولعدة أسباب محتملة.

1 / فقد تكـــون الزوجة لا تســـتحق تلك الحقـــوق ، حسب ملابســات حياتها ، فتكــون مثلا امــرأة كبــيرة في السن دميمة في المنظر ، وضـيعة في الشـرف ، عـاقرة جاهلة ، وقد تزوجت ببعل يعاكسها في كل تلك الصفات ، فالأفضل لها أن تتجـاوز عن بعض حقوقها للمحافظة على ودّ زوجها.

2 / وقد تكـون ظـروف الـزوج صـعبة ، وإذا ضـغطت عليه الزوجة للحصــول على كل حقوقها آنئذ يضــطر الى الطلاق فخير لها أن تسكت عن بعض التجـاوزات بانتظـار ظروف أفضل.

3 / وقد يكون الزوج رجلا منحرفـا. يخـون زوجته في حقوقها ، ولكن البقاء معه بانتظار صلاحه المرتقب أفضل من التمـرد عليه وإنهـاء العلاقة الزوجيـة. مما قد يسـبب الضّرر لهما معا.

إذا هنــاك ظــروف اســتثنائية يجب على المــرأة أن تتنـــازل بطـــوع ارادتها عن بعض حقوقها ، وتصـــطلح مع الـزوج ، وتشـريع الصـلح هنا وفي سـائر العلاقـات يعطي مرونة واقعية للتشـريع الاسـلامي. حيث يضع للملابسـات الخارجية دورا في الأحكام الشرعية.

(**وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ**)

أي ارتكزت صفة الشح والبخل والفردية في النفـوس ، ولذلك يحاول كل جانب أن يجر النار الى قرصة ، وعلينا أن نعتـــبر أن إقامة العلاقة الاجتماعية خـــير من فضّـــها فنحاول مقاومة صفة الشح ، ونتسلح بالتسامح والصلح.

(**وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللـهَ كـانَ بِما تَعْمَلُـونَ خَبِيراً**)

أي حين أداء حقوق الآخـرين تزيـدون عليها الى درجة الإخلاص ، وحين أخذ الحقوق منهم تتقون الله فلا تأخذون إلا ما علمتم أنه من حقكم.

تعدد الزوجات :

[129] على الرجل ألا يحـرص في الـزواج بـأكثر من امـرأة واحـدة لأن الـواجب الشـرعي عليه يقضي آنئذ أن يعدل بينهما ، وبما أن ميل الشـخص سـيكون بـالطبع الى الحسـنى منهما ، فلـذلك من الصـعب أن يقيم العـدل في التعامل معهما ، وســيؤدي ذلك بطبيعة الحــال الى تــرك واحدة منهما وإهمالها. حتى تصـبح كالمعلقة فلا هي زوجة تتمتع بحقوق الزوجية ولا هي مطلقة فتكيّف حياتها حسب ارادتها.

(**وَلَنْ تَسْـتَطِيعُوا أَنْ تَعْـدِلُوا بَيْنَ النِّســاءِ وَلَـوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ**)

الى الـــزواج بل اجعلـــوا الـــزواج من الثانية حسب المصلحة أو الضرورة فقط.

فمثلا : إذا وجـــدتم أرملة تحتــاج الى كنف الزوجية ، وليس لها من يتكفل بها فـتزوّجوا منها ، أو إذا كـان عـدد النساء أكبر بكثير من الرجال لسبب أو لآخر ، مما يشـكل مشـكلة اجتماعية ـــ لو لا تعـدد الزوجـات ـــ وإذا كـانت الزوجة الأولى عقيمة أو مريضة أو مســــــــنة بحيث لا تستطيع الوفاء بحقوق الزوجية وهكذا.

أما في الحــالات العادية الـتي يكـون الـزواج بالثانية شـهوة جنسـية بحتة أو تفنّنا في المتعة المجـردة ، فـان العاقبة المنتظـرة هي إهمـال إحـداهما مما يشـكل خرقا لحقوقها.

(**فَتَـذَرُوها كَالْمُعَلَّقَـةِ وَإِنْ تُصْـلِحُوا وَتَتَّقُـوا فَـإِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**)

أي أن الـــزواج بالثانية ليس حراما حـــتى ولو كـــان لمجرد المتعة أو الشهوة الجنسية ، ولكن بشرط الإصـلاح الدائم للعلاقة بين الاثنتين معا ، وبشرط التقوى

والتحــذر من ســحق حقــوق واحــدة منهما تحت ضــغط العاطفة.

فمن كانت إرادته قوية وقـادرة على ضـبط عواطفه ، وكان تقواه يحجـزه عن الحـاق الأخـرى بواحـدة منهما فلا بـأس عليه حـتى ولو صـدرت منه هفـوات من غـير تعمد وإصرار. فان الله غفور رحيم.

وان يتفرقا :

[130] إذا أهمل الـــزوج عقيلته فعليها أن تطـــالب بالطلاق ولا تخشى من الفقر. إذ انه هو بالتــالي علاج. بيد انه يأتي في آخر القائمة. كذلك الطلاق علاج ناجح لظرف صعب لا ينفعه علاج آخر. ذلك ان البقـاء على وضع شـاذ ، ومحاولة الصـبر عليه تضـييع للطاقـات وإفسـاد للضـمير ، وهدر للحقوق.

(**وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَـعَتِهِ وَكـانَ اللـهُ واسِعاً حَكِيماً**)

صحيح ان الله لا يرزق أحدا من دون بذل سعي جدي لطلب الــرزق لأنه ســبحانه حكيم ، ولكن أبــواب الــرزق ليست محصـورة في الـزواج حـتى إذا طلق المـرء زوجته خـافت من الفقـر. كلا فـان الله قـادر على أن يفتح عليها أبوابا جديدة للرزق لأنه واسع .. وعلينا أن الا نحدد أنفسنا ضمن مجالات ضيقة للرزق ، بل ننطلق في رحاب الحيـاة ونفتش أبـدا عن آفـاق جديـدة في هـذه الأرض الواسـعة. ذات الامكانات غير المحدودة.

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَقَـدْ وَصَّـيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُـوا اللـهَ وَإِنْ تَكْفُــرُوا فَــإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكــانَ اللــهُ غَنِيًّا حَمِيــداً (131) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللـهِ وَكِيلاً (132) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكـانَ اللـهُ عَلى ذلِـكَ قَـدِيراً (133) مَنْ كـانَ يُرِيـدُ ثَـوابَ الـدُّنْيا فَعِنْدَ اللـهِ ثَـوابُ الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَكـانَ اللـهُ سَـمِيعاً بَصِــيراً (134) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا كُونُــوا قَــوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ

135 [بالقسط] : القسط العدل.
[تلووا] : من لوى يلوي ، بمعنى الانحراف واللّي الانحراف اليسير.
[تعرضوا] : الاعراض الانحراف مطلقا.

وَلَـوْ عَلى أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَـوى أَنْ تَعْـدِلُوا وَإِنْ تَلْـوُوا أَوْ تُعْرِضُـوا فَـإِنَّ اللـهَ كـانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (135)

المسؤولية الاجتماعية

هدى من الآيات :

حين يتحسس البشر بقــدرة الله الهائلة الــتي تتجلّى في ملكوت السموات والأرض ، وتحيط به في كل شــيء. حين يتحسس بذلك تجري في عروقه قشعريرة وارتعاشة تدفعه أبدا الى الحذر ، وتبعده أبدا عن الطيش والغفلة.

وكلما زادت معرفة البشر بالقدرة الكبيرة التي تحيط به. كلما زاد تقـواه ، وبالتـالي انضـبطت أعماله ، واتجهت في مسـير سـليم ، ونمى في روعه ضـمير واع يردعه من اقــتراف الخيانة أو ارتكــاب الجريمة ، ويدفعه الى اقامة العدل ، وأداء الشهادة لله.

وفي هــذا الــدرس ينهي القــرآن الحكيم حديثه عن طبقة الخائنين والمختانين بمعالجة جذرية لمشكلة الذنب. تلك هي : ازديــاد تقــوى البشر النــابع بــدوره من معرفة قدرة الله ، ولذلك يبدأ هذا الدرس بالتذكير بملكوت الله ، وان الله غــني لا يضــره كفر النــاس ، وانه يملك ما في السموات والأرض ، وأنه قادر على تبديل

الناس بآخرين.

ثم يعطي أملا للإنسان بثواب الله ، وينهي الدرس بما يعتبر علاجا آخر لمشكلة الذنب (الخيانة ـ المعصية) هو :

أن يقــوم النــاس جميعا بالعــدل ، وأن يشــهدوا لله بعيدين عن أي اعتبارات أخـرى ، وطـبيعي أن يقل الـذنب في مجتمع قوام بالقسط شاهد على الحق لله.

بينات من الآيات :

مشكلة الخوف عند الإنسان :

[131] من الـدوافع الأساسـية لارتكـاب الـذنب هو الخوف ، فلو لا خوف الشـعوب المستضـعفة من الطغـاة إذا ما سكتوا على الظلم ، ولو لا خوف الفرد من مجتمعة المنحرف إذا ما استمر في ضـلالات ذلك المجتمع ، ولو لا الخــوف من الفقر لما بخل الأغنيــاء ، ولو لا الخــوف من الموت لما تخلف الجبناء عن الحرب.

وبالرغم من تجذر مشكلة الخوف عند البشر فـان لها حلا يقتلع جذورها اقتلاعا هو : الايمان بالله ، وانه يملك ما في السموات والأرض ، ويأمر بالعدل والإحسان ، ويـدعم من يعمل بهما ، ويخلّصه من عوامل الخــــــــوف بقدرته الكبيرة.

فما دام الله يملك كل ما نخـاف منه فلما ذا لا نخـاف من الله. بل ولماذا نخاف شـيئا ما دام الله ، وهو رب كل شيء لم يغضب علينا.

ان هذه المعادلة الواضحة تجعلنا نقاوم الضغوط التي تدفعنا الى الذنب.

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَقَــدْ وَصَّــيْنَا الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ**)

هذه وصية وليست أمرا فقط لأن الأمر قد يكـون في ضرر المأمور ، بيد أن

الوصية هي دائما في مصلحة من يسمعها ، ثم هي وصــية مشــتركة بين كل أجيــال الرســالة لأنها من القيم العامة التي لا تتغير بالزمان.

ان التقــوى في مصـلحة الإنســان وليس في مصـلحة الله فهو لا يتأثر شيئا بتقواكم أو بكفركم.

(**وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيداً**)

فهو غني بامتلاكه لما في الســموات والأرض ، وحميد لأنه لا يستخدم قدرته في الحاق الضــرر بـالخلق ســبحانه. بل في اللطف بهم والتفضل عليهم.

الاستعانة بالله من الخوف :

[132] من استعان بالله وقاوم ضـغوط الحيـاة ، ولم يســتجب لهــاجس الخــوف الــذي يدفعه الى الــذنب فانه سيجد وراءه ركنا شديدا يعتمد عليه.

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً**)

ومـدافعا لمن اسـتعان به ، ولم يخش عبـاده اعتمـادا عليه.

[133] أما من خشي النــاس ، وخــاف من الطبيعة ، وأسخط الله لارضاء المجتمع أو لتجــاوز أخطـار الطبيعة ، فعليه أن يتحمل مســـئولية عمله إذ أن الله قـــادر على تصـفيته من الوجـود رأسا ، ويـأتي بـآخرين يعيشـون في الأرض مكانه.

(**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكـانَ اللهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً**)

[134] ومن النـــاس من يدفعه الطمع الى اقـــتراف المعصــية ، فيأكل أمــوال النــاس طمعا ، ويتعــاطى بيع الخمـــور ، وإشـــاعة الفاحشة طمعا .. فعلى هـــؤلاء أن يعرفوا أنهم لوا اتبعوا منهاج الله ، وابتعدوا عن معاصــيه ، فسوف يغنيهم الله ،

ويعطيهم لا في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضا.
(**مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الـدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَكانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً**)
يسمع ويبصر أقوال وأعمال الناس الحسنة فلا يتركها من دون ثواب عاجل في الدنيا ، وثواب آجل في الآخرة.
خلاصة القـول : ان كـانت المعصـية بـدافع الخـوف فلنعلم ان الله قـادر على أن يـدفع عنا ما نخشـاه ، وهو أولى بـالخوف من أي شـيء آخر ، وان كـانت المعصـية بهدف الحصول على غنيمة ، فان عند الله غنائم أفضل.

المسؤولية الاجتماعية :

[135] لكي نحافظ على نظافة المجتمع لا بد أن يتوفر عاملان :
الأول : ضـمير رادع عن المعصـية عند كل شـخص (التقوى).
الثاني : احساس الجميع بمسـؤوليتهم عن المعصـية ، ومحاسـبتهم العامل بها أنّى كـان ، وقد تحـدثت الآيـات السابقة عن العامل الأول.
وها هي الآية تتحـدث عن العامل الثـاني الـذي يـبرز دوره في الحقـوق الاجتماعية ، فلو كـان ضـمير المجتمع حيا ، ويحس بمسـؤوليته ، فانه يقتل الظلم وهو في المهـد. إذ ما إن يظلم أحد من النـاس حـتى يردعه أقـرب النـاس إليـه. من قراباته أو أصـدقائه أو زملائه ، وبالتـالي من أولئك الذين يرجو أن يـدعموا موقفه الظـالم. بل قبل أن يهم الظـالم باغتصـاب حق ، فانه عـادة ما يستشـير القريبين منه ، ويحاول تهيئة الأجـواء لجريمته ، فـاذا كـان المجتمع واعيا فـإنهم يمنعونه عن تنفيذ مخططه فيقتلـون الظلم وهو نطفة قبل أن يولد.

وهناك مرحلتان متدرجتان لقيـام المجتمع بمسـؤوليته تجاه الظلم :

الأولى : منع الظلم ، واقامة العدل.

الثانية : في حالة وقــوع الظلم التعــاون على إزالته ، وذلك بالشـهادة ضـده ، ولمصـلحة صـاحب الحق ، وليس للإنســـان أن يســـكت عن إعلان موقفه من الظلم وذلك بالشــهادة لصــاحب الحق ، أنى كــانت الظــروف ، فلان صاحب الحق ضعيف أو غريب أو فاجر ، أو لأن الظـالم له قـوة أو من أقربـائي أو أصـدقائي أو .. أو. لا أسـتطيع لأي من هــذه المــبررات أن أســكت عن الشــهادة. بل علي واجب أن أشهد لصاحب الحق.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**)

أي اعملوا على تطبيق العدالة. لأن صـرح العـدل في المجتمع بحاجة الى جهد ضخم ليتم بناؤه.

(**شُهَداءَ لِلَّهِ**)

أي أقيمــوا الشــهادة بهــدف مرضــاة الله لا خوفا أو طمعا من أحد حتى ولو كانت الشهادة ضد مصالحكم.

(**وَلَـوْ عَلى أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلى بِهِما**)

أي لا عليكم إذا كـان من تشـهدون له غنيا أو فقـيرا ، بل هذا أمر يخص الله. أما أنتم فاشهدوا لله.

(**فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا**)

فلا يضلنكم حب المصلحة ، أو حب الأقارب من اقامة العدل بالشهادة أو بالتنفيذ.

(**وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُــونَ خَبِيراً**)
أي ان تنحرفوا قليلا أو كثيرا فان الله خبير بكم.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْـزَلَ مِنْ قَبْـلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (136) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللـهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (137) بَشِّرِ الْمُنـافِقِينَ بِـأَنَّ لَهُمْ عَـذاباً أَلِيمـاً (138) الَّذِينَ يَتَّخِـذُونَ الْكـافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَـإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (139) وَقَدْ نَـزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتـابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللـهِ يُكْفَـرُ بِها وَيُسْـتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ

---

139 [العزة] : أصل العزة الشدة والعزيز القوي المنيع بخلاف الذليل.

إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (140) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُــونَ بِكُمْ فَـإِنْ كـانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكـافِرِينَ نَصِـيبٌ قــالُوا أَلَمْ نَسْــتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ فَاللــهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَــوْمَ الْقِيامَــةِ وَلَنْ يَجْعَــلَ اللــهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141)

المنافقون وازدواجية الولاء

هدى من الآيات :

في الحــديث الســابق عــالج القــرآن الكــريم قضــية الخيانة بكل أبعادها ، ووضع حلــــــــولا ومواقف لطبقة الخائنين.

اما في هــذا الحــديث فيطــرح قضــية المنــافقين من بعدها الاجتماعي ، اي فيما يتصل بتواجدهم داخل المجتمع المسلم ، وانعكاسات سلوكهم السلبية على ذلك المجتمع خصوصا بالنسبة لازدواجية الولاء ، فهم في الظاهر أعضاء في هذا المجتمع ، وفي الواقع مرتبطون بالأعداء.

ويمهد القــرآن لهــذا الحــديث بترســيخ فكــرة وحــدة الايمان ، وأنه لا يتجزأ ، ثم يوضح فكرة استمرارية الايمان ، وانه لا يمكن التحول منه واليه بين الفترة والاخــرى ، ثم يبشر المنافقين بالعذاب ، وأخيرا يبين القضــية المطروحة ، وهي ان المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء.

ولكي يبقى المجتمع الاســلامي نظيفا من مـــؤثرات الكفر فقد أمرنا الله بـأن نقـاطع مجـالس الكفـار ، فكيف بالولاء لهم؟!

اما هـؤلاء المنـافقون فهم يعيشـون الازدواجية ، فمن جهة يريـدون كسب ودّ المسـلمين حـتى يشـاركوهم في مكاسب الانتصــارات ، ومن جهة ثانية يريــدون درء خطر الكفار حتى يحافظوا على أنفسهم حين ينهزم المسـلمون ، ولكن الله لا يــدع المســلمين ينهزمــون لو انهم امنــوا وجاهدوا في سبيله.

بينات من الآيات :

الايمان الكامل :

[136] الايمان كل لا يتجزأ ، وما دام الإنسان قد آمن ، وعـرف الله ورسـالاته ، فعليه ان يخلص في ايمانه ، ولا ينقصه تحت ضغط المصالح والأهواء.

واي نقص في الايمــان ينـاقض الايمــان رأسـا. إذ ان الايمــان ليس العلم فقط ، بل هو مخالفة الهــوى واتبــاع للعقل.

فلو جــزاء المــرأ إيمانه فأخذ منه ما يوافق اهــواءه ، ورفض منه ما يخـالف اهـواءه ، فهل اتبع هـذا الشـخص عقله أم هواه ، وبالتالي هل آمن؟!

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**)

أي يا من انقطعت حجتهم بســبب اعــترافهم بمبــدإ الايمـان ، ان عليكم متابعة المسـيرة لأنه لا حجة لكم في التوقف.

(**آمِنُـوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَالْكِتـابِ الَّذِي نَـزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ**

قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً)

المواقف المتزلزلة تجاه القوة :

[137] والايمــان كما لا يتجــزأ عضو يا فهو لا يتجــزأ زمنيا ، فليس من الايمـان في شـيء الارتبـاط بجهة الحق كلما كـانت قوية ، ومخالفتها كلما كـانت ضـعيفة هل هـذا ايمان بالحق أم ايمان بالقوة؟

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْـراً لَمْ يَكُنِ اللـهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْـدِيَهُمْ سَبِيلاً**)

هؤلاء كانوا يغـيرون مـواقفهم حسب مـوازين القـوى في المجتمع ، أو حسب ريـاح مصـالحهم الذاتية ، ولـذلك فهم بمثابة الكفار الـذين لا يغفر الله لهم ذنـوبهم ، بل هم أشد سوءا من الكفار إذا انهم تلاعبوا بهدى الله ، واتخذوه مادة المسـاومة لحيـاتهم الـدنيا ، ولـذلك فهم لا ينظـرون الى الايمان نظرة الباحث عن الحق ، فيستحيل أن يهتدوا به.

ان من ينظر الى المـرأة ليشـتريها أو ليعـرف قطرها ووزنها لا يمكنه ان ينظر الى الأشـياء عبرها لأنه مشـغول عن الصـــور المنعكسة داخل المـــرآة بفحص زجاجتها ، وإطارها وإتقـان صـنعها ، كـذلك الـذي يتخذ من الرسـالة وسيلة الارتزاق لا يمكنه ان ينظر إليها الا كما ينظر التاجر الى متجـــره ، والبقـــال الى محله ، فلا يســعى من أجل فهمها أو العمل بها ، لــذلك فهو لا يهتــدي ـــ عمــره ـــ بالرسالة.

المنافقون وحقيقة الارتباط بالأجنبي

[138] (**بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

[139] من هم المنافقون المعـنيون هنا ــ بالـذات ـ؟
انهم الطبقة الاجتماعية المزدوجة الـولاء ، أو الـتي تعيش في مجتمع الايمـــان وتحمل ولاء لمجتمع الكفر بهــدف الحصول على قوة ومنعة وعزة.

فمثلا في المجتمع الاســلامي اليـــوم نجد طوائف مبتلـون بمـركب النقص ، ويحرصـون على الحصـول على القوة والعزة ، ويتقاعسون عن العمل الجاد الذي يعطيهم القوة والعزة ، حسب قيم المجتمع الاسلامي.

فيفتشــون عن الاجنـبي لـيرتبطوا به ، يفتشــون عن منظمـات عالمية يمينية (صـهيونية ــ ماسـونية ــ قومية ــ اقليمية و.. و..) أو يسارية (شيوعية ـ اشتراكية) ويهـدفون من وراء ولائهم لتلك المنظمـــات الحصـــول على قـــوة يركنون إليها.

وربما يسودون في يوم من الأيام بسببها على إخوتهم وأبناء أوطانهم حتى ولو جز ذلك الى بيع الاستقلال بلـدهم ، وتذليل شعبهم ، وتحطيم قيمهم.

ان هؤلاء هم المنافقون.

(**الَّذِينَ يَتَّخِـــذُونَ الْكَـــافِرِينَ أَوْلِيـــاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ**)

كلا ، لا يمكنهم الحصــول على القـــوة بـــالركون الى الاجنـبي ، إذ ان الاجنـبي إذا جـاء فسـوف يسـتعبد أول ما يستعبد هذه الفئة المرتبطة به والخادمة له!

انه لا يعطي هذه الفئة الدعم لسواد عينها بل لتحقيق مكاسب خاصة ، قد تتناقض مع مكاسب هــذه الفئة ، وقد يـبيع الاجنـبي في مائـدة المفاوضـات الفئة المرتبطة به ، ويساوم عليها.

فـأين تكمن عـزة هـؤلاء ، انها تكمن في اللجـوء الى الصف الايمـاني وتقوية شـوكة الشـعب كله حـتى يكـون الجميع اسيادا بين الأمم.

(**فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**)

لله ولمن ينفذ برامجه ، من المؤمنين.

لئلا نصير عملاء

[140] لكي لا يستميل الاجنـبي الكـافر بعض ضـعاف النفوس من أبناء الامة. منع الإسلام الاستماع الى دعايات الكفـار المضـللة الـتي يسـتهدفون من ورائها التـأثير على البسطاء ، ومن ثم استدراجهم للعمالة ، وبيع القيم.

(**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ**)

الكفر هو الإنكـــار المغلّف بما يــــزعم صـــاحبه انه استدلال عقلي.

اما الاســـتهزاء فهو محاولة مفضـــوحة للتـــأثير على البسـطاء عن طريق تهـوين القيم الرسـالية في أعينهم ، ويجب مقاطعة مجــالس الكفر والاســتهزاء لحين تغيــير طابعها العدائي ، وتبديل موضوع الحديث.

(**حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**)

وحين يجلس الإنســـان في محفل يســـتمع فيه الى انكار الرسالة ، والاستخفاف بها ، ثم لا يرد ولا يتأثر ، فانه محسوب من أصحاب هذا المحفل الفاجر.

(**إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ**)

اي انكم منافقون إذ ذاك كما هم كافرون ، وجــزاؤكم آنئذ هو جزاء مشترك وهي النار.

(**إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنـافِقِينَ وَالْكـافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**)

[141] ان المنــافقين يوالــون الكفــار ، ويحضــرون مجالس كفرهم واسـتهزائهم في حالة السـلم ، .. اما في حالة الحــرب فهم يجلســون فــوق التل يراقبــون ســير المعركة لأنهم جبنـاء ، والجبـان لا ينفع اي طـرف يتعـاون معه ، وينتظـرون بالتـالي نهاية المعركة بقلب بـارد ، فـاذا انتصر المسلمون جاءوا وطالبوا بالغنائم باعتبارهم أعضـاء في المجتمع الاسـلامي ، وإذا انتصر الكفـار مؤقتا تسـللوا إليهم وطالبوهم بأجور خدماتهم الـتي أسـدوها لهم (هكـذا يزعمون لهم ، بيد انهم لم يفعلوا شيئا هاما لهم)

(**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ**)

اي ينتظرون نهايتكم.

(**فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قـالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قـالُوا أَلَمْ نَسْـتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

اي حفظناكم من ان يصيبكم سوء من قبل المؤمنين.

وليعلم هـؤلاء : ان عاقبة نفـاقهم حسـاب شـديد يـوم القيامة ، اما في الــدنيا فلان الرســالة تنتصر أبــدا على اعدائها ، فان المنافقين سـوف يفقـدون الـدعم الخـارجي لهم ويسقطون داخل المجتمع الاسلامي.

(**فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلَنْ يَجْعَـلَ اللـهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**)

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَــذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِـكَ لا إِلى هـؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ سَـبِيلاً (143) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الْكـافِرِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ الْمُــؤْمِنِينَ أَتُرِيــدُونَ أَنْ تَجْعَلُــوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُــلْطاناً مُبِينــاً (144) إِنَّ الْمُنــافِقِينَ فِي الــدَّرْكِ الْأَسْــفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِــدَ لَهُمْ نَصِــيراً (145) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (146)

---

143 [مذبذبين] : المذبذب المهتز القلق الذي لا يثبت في مكان.
144 [سلطان] : حجة.
145 [الدرك] : أقصى قعر البحر ويقال للحبل الذي يوصل به حبل آخر ليدرك المـاء درك وأصل الـدرك الحبل الـذي يوصل به الرشا ويعلق به الدلو.

المنافقون صفات وتقييم

هدى من الآيات :

استـمرارا للحـديث السـابق عن الـولاء التـام داخل المجتمع المسـلم ، وإدانة ازدواجية الـولاء كما يفعل المنـافقون يـأتي هـذا الحـديث ، ويـبين في البـدء بعض صـفات المنـافقين الظـاهرة الـتي تـدل على انفصـالهم الـروحي عن منـاهج وقيم المجتمع الاسـلامي وذلك حين يقومون للصـلاة كسـالى ، وأن قلـوبهم كالصـخر لا تخشع لـذكر الله ، وأنهم في حالة شك دائمة ، يراوحـون بين جبهتي الايمان والكفر ، ولا يستقرون على واحـدة منهما ، وأنهم بفعل شكهم ، وعبادتهم لذواتهم ومصالحهم بعيدون عن نور الهداية.

ثم يحذر الله المؤمـنين من المصـير الـذي انتهت اليه هذه الطائفة من المنافقين ، وينذرهم بـأن الله سـيأخذهم بسلطان مبين ، لو سمحوا لأنفسهم بموالاة الكافرين.

تلك العاقبة السـوأى الـتي تنتهي بصـاحبها الى نـار جهنم في أسفل دركاتها حيث لا ينقذهم ولاؤهم للكـافرين من النار.

وقبل ان ينهي القــرآن هــذا الحــديث يفتح أمــام المنـافقين بـاب الأمل ، ويرشـدهم الى التوبة بشـرط ان تقـارن بإصـلاح ما أفسـدوه بالنفـاق ، وذلك بـالولاء التـام للمجتمع الاسلامي ، والإخلاص في تطبيق مناهجه سبحانه ، وآنئذ سوف يلحقون بركب المؤمنين الذين أعد الله لهم أجرا عظيما.

بينات من الآيات :

خداع الله!

[142] يزعم المنـافقون : إنهم كما يخـادعون حسب زعمهم أبناء المجتمع الاسلامي ، كـذلك بامكـانهم مخادعة الله لــذلك تجد ان أعمــالهم الدينية تشــبه ممارســاتهم الاجتماعية.

فـاذا قـاموا الى الصـلاة تكاسـلوا ، وأدوا فقط القشر البارز من الصلاة ، اما جوهر الصلاة فإنهم بعيدون عنه.

بيد أن هذه المخادعة ستنقلب عليهم. إذ أن الله أكبر من أن تنطلي عليه مخادعة العبـــاد ، ويتقبل منهم هـــذه العبادات القشرية الفارغة.

(**إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ**)

كيف يخــادع الله عبــاده؟ انه يمكر بهم ، ويكيــدهم ، ويكيدهم بأن يمهلهم أياما حتى تسـكرهم النعم ، ويفقـدوا عقولهم وأرادتهم ، ثم يأخذهم الله فجأة أخـذا شـديدا كما فعل مثلا بقـوم لـوط ، إذ بعث الله إليهم بملائكة العـذاب في صورة ضيوف ، وألبسهم ثوب الجمـال حـتى اسـتهووا قــوم لــوط الــذين تعــوّدوا على الفاحشة ســابقا ، فلما اجتمعوا إليهم ، وكانوا يمنـون أنفسـهم بليـال حمـراء ولم يبق في أنفسهم ذرة من التقوى أو الايمان.

آنئذ تحول أولئك الملائكة الى صورتهم الاصـلية. فـاذا هم غلاظ شـداد ، وإذا بهم يقتلعـون مـدينتهم ويـدمرونها عليهم.

هكذا يخادع الله عباده عند ما يحاولون مخادعته.

(**وَإِذا قـامُوا إِلَى الصَّـلاةِ قـامُوا كُسـالى يُـراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً**)

فهم لا يصلّون حقيقة لله ، بل يتظاهرون أمام الناس.

وإذا كانت الصـلاة وهي أهم الشـعائر العبادية يؤدونها بهذه الروح فكيف بسائر الواجبات.

هذا مثل لخداع المنـافقين لأنفسـهم ، وكيفية قيـامهم بواجبـاتهم الدينية ، وبالتـالي هـذه صـفة واضـحة فيهم نستطيع أن نكتشفهم عن طريقها.

فقدان المقاييس والحكم بالشك :

[143] والصفة الثانية للمنافقين هي الشك ، وتذبذب المواقف. فهم لا يتخذون مواقفهم حسب رؤية مسـتقبلية ، بل حسب التوفيق بين الجبهة الكـــافرة وبين المجتمع الاسلامي ، وتمييع المواقف ، وتأييد كل طـرف في شـيء حسب المصالح الآنية العاجلة لهم.

(**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ**)

أي بين الكفار والمؤمنين وذلك بإشارة الكلمة الثانية.

(**لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ**)

ولأنهم مذبذبون تستبد بهم الشكوك فان قلوبهم تفقد المقاييس الصحيحة

الـتي تمـيز الحق عن الباطل ، وبالتـالي فـإنهم لن يهتـدوا أبدا.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**)

الله هو الــذي يهــدي عبــاده بعد أن يســعوا من أجل الهداية ، أما الذين يتقاعسون عنها ويسدون أبواب قلوبهم دونها ، إذا كيف يهديهم الله.؟!

انه يـتركهم في ضـلالتهم وآنئذ لا يجـدون من يهـديهم من دون الله.

لنتصــور الهداية كـالعلم. كيف يحصل الواحد منا على العلم؟ بالطبع عن طريق السعي الدّائب ، والبحث الــدائم ، ولكن كيف يكون حال من لا يســعى من أجل العلم ، بل وأخس من ذلك بــأن يسد على نفسه الأبــواب ، ولا يــدع أحــدا يــدخل عليه ليعلمه ، أفلا يبقي هــذا الشــخص في الجهل أبدا؟! كذلك الله يضلل المنافقين.

لمن الولاء

؟ [144] هــذه بعض صــفات المنــافقين ، وعلينا أن نتحذر من انحرافهم الذي يبدأ بــولاء الكـافرين خوفا منهم أو طمعا فيهم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا الْكـافِرِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**)

الإنسان لا يستطيع أن يمنح ولاء لجهـتين متضـادتين : فأما هو ـ بالتالي ـ موال للمؤمنين أو للكافرين.

وإذا والى المؤمن كـافرا ، فانه سـيقطع ولاءه طبيعيا عن المؤمنين ، ولذلك عبر القرآن الكـريم هنا بكلمة «من دون المؤمنين».

نعم يمكن أن يكون ولاء المـؤمن للكـافرين من خلال ولائه للمؤمنين ، وذلك

بأن يخلص ولاءه للمؤمنين ، ولكل من يخدم المؤمنين من الكفار.

(**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً**)

فلا ينصــركم الله أنكم لا تخلصــون الــولاء له ، إذ ان نصر الله انما يــأتي للــذين يعتمــدون كليا عليه ، ويعبدونه بتطبيق برنامجه كاملا غير منقوص.

أما الذين يوالون الكفار فان الله يوكلهم إليهم ، لأنهم في الواقع لا يستطيعون تطبيق برامجه بالكامل.

[145] اما إذا والى المؤمنـــون الكـــافرين فـــإنهم سيكونون منافقين ، وجزاء المنافقين معروف : أنه جهنم.

(**إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**)

طبقات الجنة تسمى بالدرجات ، وأرفعها أعلى عليين ، وطبقات النار تسمى الدركات وأسوأها أسفل السافلين.

(**وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**)

انهم والوا الكفار بهدف الحصول على عــونهم ، ولكن آمالهم ستخيب يوم القيامة. إذ سيجدون أنفسهم في النار دون أن ينصرهم أصدقاؤهم الكفار.

سبيل العودة :

[146] طريق عـودة المنـافقين الى الجبهة الايمانية ، طريق سألك ومعبد وذو مراحل أربع :

الاولى : التوبة بالندم على تعاملهم السابق مع الكفار ، والعزم على عدم

تكراره.

الثانية : الإصلاح بـترميم الجسـور المهدّمة بينهم وبين المؤمـنين ، وذلك بتصـفية عقـولهم من أفكـار الكـافرين ، وتصــفية قلــوبهم من النفــاق والحق على المؤمــنين ، وتصفية علاقاتهم السابقة وتكوين علاقات حميمة جديدة.

الثالثة : الاعتصـام بالله ، وذلك بتوثيق الـولاء للقيـادة الاسلامية والتسليم لها والطاعة لأوامرها.

الرابعة : إخلاص الــدين [1] ، وذلك بإقامة الصــلاة بنشــــاط ووعي ، ومن دون كسل ، وذكر الله كثــــيرا ، واقامة سائر الشعائر ، وممارسة سائر الواجبــات بطريقة صحيحة.

بعد طي هذه المراحل يلحق هـؤلاء بـالمؤمنين الـذين أعد الله لهم أجرا عظيما في الدنيا متمثلا بالنصر المؤزّر ، وفي الآخرة في جنات عدن خالدة.

(**إِلَّا الَّذِينَ تــابُوا وَأَصْــلَحُوا وَاعْتَصَــمُوا بِاللــهِ وَأَخْلَصُـوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَـعَ الْمُـؤْمِنِينَ وَسَـوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً**)

(1) ربما يكون معنى إخلاص الدين هو توحيد الولاء.

ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكـانَ اللـهُ شاكِراً عَلِيماً (147) لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْـرَ بِالسُّـوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللـهُ سَـمِيعاً عَلِيمـاً (148) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللـهَ كـانَ عَفُـوًّا قَـدِيراً (149) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِاللـهِ وَرُسُـــلِهِ وَيُرِيـــدُونَ أَنْ يُفَرِّقُـــوا بَيْنَ اللـــهِ وَرُسُـــلِهِ وَيَقُولُـونَ نُـؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُـرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيـدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِـكَ سَـبِيلاً (150) أُولئِكَ هُمُ الْكـافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَـدْنا لِلْكـافِرِينَ عَـذاباً مُهِينـاً (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُـورَهُمْ وَكـانَ اللـهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً (152)

صفات الكافرين عرض وتقييم

هدى من الآيات :

بعد بيان مفصل لشروط الإصلاح المسبقة التي ينبغي ان يتصف بها المنافق التائب ، وبالتالي كل مؤمن حـتى لا يتسرب النفاق الى قلبه.

يبين السياق ان من ابرز شروط الإصلاح الشكر لله ، والايمـان به ، وتنقية أجـواء المجتمع من الكلام السـلبي ، واشاعة الخير ، والعفو عن السوء.

وبعد بيـان هـذه الشـروط الاساسـية لاقتلاع جـذور التفرقة والنفـاق من ارض المجتمع يعـود القـرآن ليحـدثنا عن طبقة اخـرى من المنـافقين ، وهم الـذين يبعضـون ايمـانهم ، فيؤمنـون ببعض الرسل وببعض التعـاليم السماوية الموصى بها إليهم ، ويكفرون ببعض.

ويقرر القرآن انهم هم الكـافرون ، لان الايمـان كل لا يتجزّأ ، ويؤكد هذه الحقيقة في الاية التالية ، وفي الـدرس القادم يضرب مثلا من بني إسرائيل الذين

آمنــوا ببعض الرسل ، وكفــروا ببعض. ان ايمــانهم ببعض التعاليم وكفـرهم ببعضـها الآخر انما هو حسب ما تقتضـيه مصالحهم الذاتية.

بينات من الآيات :

شكر الله والنظرة الايجابية

[147] ان الله غــني عنا ، غــني عن أعمالنا ، وغــني عن عذابنا ، انه لا يتلذذ بعـذاب أحد سـبحانه ، بيد انه حين يعذب الناس فانما لاستحقاقهم ذلك ، وبالتالي بســبب جر النار الى أنفسهم بأنفسهم.

ولكي يتحصن الإنسان من شر اعماله فعليه ان يؤمن ، ولكي يؤمن فعليه ان يشكر الله ، إذ ان النفس الشاكرة لأنعم الله عليها ان تتمتع بنظــرة ايجابية متفائلة للحيــاة ، وتنظر الى كل نعمة باعتبارها عطــاء جديــدا لا تســتحقه ، وانه يمكن ان يؤخذ منه في اية لحظة ، فهو من جهة يقدر النعمة حق قدرها ، ومن جهة ثانية يقّــدر من أعطاها إياها وهو الله ســبحانه ، حق قــدره ، وبــذلك يــزداد ايمانه بالله ، ووعيه التـــام برحمته الواســـعة ، وبهيمنته الدائمة على الحياة.

أرأيت لو استضافك رجل كــريم ، ليس لك عليه حق ، وهيأ لك أفضل أنـــواع المتع واللـــذات ، ولم يحـــدد نهاية ضــيافته لك ، أو لست تبقى تشـــعر بالامتنـــان اليه طيلة فــترة ضــيافته ، وتعمل خلالها بكل لباقة وأدب يتناســبان ورجل ضــيف مثلك ، لأنك تقــدر من جهة العطــاء الــذي قدمه لك على غير اســتحقاق ، وتخشى من جهة ثانية من الطرد في اية لحظة.

كذلك الشـاكر يـزداد وعيه بنعم الله ، وبالتـالي ايمانه بالله ، وشـــــعوره بمنته عليه كلما اوتى نعمة جديـــــدة ، بعكس المنافق الذي كلما زادت نعم الله عليه كلما

أحس بأنّها جـــــــــــزء من حقوقه ، ودليل على عظمته ، وبالتالي يزداد طغيانا وكفرا.

(**ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَـكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكـانَ اللهُ شاكِراً عَلِيماً**)

فكلما ازداد شـــكرك ، وتقـــديرك لنعمه عليك ، كلما شـكرك الله ، واغرقك بنعم جديـدة ، وهو إذ ذاك يعلم كم شكرته ومتى؟

علاج بعض الأمراض الاجتماعية

[148] حين تتشبع النفس بالشـكر لله ، وبالرضا يقل الحسد والحقد والكراهية المنبعثة عن ضـــــــــيق الأفق وتتنــاقص البغضــاء النابعة من الاســتئثار والفردية ، ويعم مكانهما الصـــفاء والمحبة والتســـامح ، مما ينعكس على أحاديث الناس فتصبح ايجابية سليمة.

لان الله لا يحب التجاهر بالأحاديث السلبية السـيئة الا إذا كانت ذا هدف شريف وهو : الضـرب على يد الظـالم ، والاستعانة بالناس ضده.

(**لا يُحِبُّ اللـهُ الْجَهْـرَ بِالسُّـوءِ مِنَ الْقَـوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً**)

يســمع الغيبة والتهمة والنميمة والتنــابز بالألقــاب ، والانتقـاص من قـدر هـذا أو ذاك ، ويعلم كـذبها ودوافعها ، وهل هي تظلّم؟ أو استعانة ضد جائر أم لا؟

ان الله حين لا يحب شيئا فلأنه يضر بمصلحة الناس ، وسوف يعاقب عليه في الدنيا والاخرة.

[149] بلى ان الله يحب ذلك المجتمع النظيف من سلبيات الكلام العاكف على عمل الخير سواء كان ظـاهرا أو مستترا ، ومن ابرز اعمال الخير العفو.

أو لم يقل ربنا في أية اخـــرى : (**يَسْـــئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُـونَ قُـلِ الْعَفْـوَ**) ، ان العفو يربط أبنـاء المجتمع ببعضه ربطا ويقتلع جذور النفاق منه.

(**إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً**)

ان الله يعفو عمن عفا عن النـــاس ويعفو عمن يعمل الخــير للنـــاس. يعفو عنهم بـــالرغم من قدرته عليهم ، أو ليس من الأفضل أن يتخلق العبد بخلق ربه ، وأن يكــــون هو الآخر عفوا؟!

كيف تعبد الذات

[150] ما هو الايمان؟

؟ الجواب : انه اخضاع قـوى الشـرفي الـذات لارادة الحق ، وتسليم النفس لهدى العقل ، انه استجابة الإنسان لنداء الله ، وبالتالي مخالفة أهـواء النفس ، واتبـاع بـرامج الله.

وإذا كان هذا هو الايمان فليس بمؤمن أبدا ذلك الـذي يوافق الحق حين يتوافق مع مصـــــــالحه ، ويخضع للحق بهـدف تحقيق شـرور ذاته ، وتسـلم نفسه للعقل بشـرط موافقة اهوائه ويستجيب لنداء الله حين لا يضر بشهواته ، وهكذا.

انما هـــــذا الرجل متوغل في الكفر لأنه يعبد ذاته ولا يرى الحق الا وسيلة لتحقيق مصالحه.

والـذين يبعضـون رسـالات الله فيأخـذون ما يوافق مصالحهم ، ويتركون ما

خالفها .. انهم بالتالي يعبـدون مصـالحهم ولا يعبـدون الله ، لذلك فهم الكافرون حقا ، وقد اصدر القـرآن عليهم حكم الكفر مسبقا وقال :

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِاللـهِ وَرُسُـلِهِ وَيُرِيـدُونَ أَنْ يُفَرِّقُـوا بَيْنَ اللـهِ وَرُسُـلِهِ وَيَقُولُـونَ نُـؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً**) [151] (**أُولئِكَ هُمُ الْكـافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَـدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً**)

والتفريق بين الله والرسـول يـاتي بهـدف عصـيان الرسول ، والادعاء بأنهم يكتفون ببرامج الله.

ولكن هل تعـني بـرامج الله شـيئا من دون قيـادة الرسول ، انهم يكذبون كذبة مفضوحة حين يـدعون وجـود علاقة بينهم وبين الله ، إذ لو كـان كـذلك إذا لخضـعوا لرسوله.

ان كل الطغاة عبر التاريخ يحاربون رجال الإصلاح في الوقت الذي يدعون انهم مؤمنون بالإصلاح ذاته ، ويقتلـون النبـيين باسم المحافظة على الـدين ، ويسـحقون علمـاء الدين ، ويتظاهرون بحماية الدين.

ان الرسـول لا ينفصل عن الله ، ولا ينفصل عن الإصـلاح ومنـاهج الـدين وعن حملتهما من المصـلحين والعلمـاء ، وانما يهين الله هـؤلاء الكـافرين بعذابه يـوم القيامة أو حـتى في الـدنيا ، لأنهم خـالفوا رسل الله ، وبالتـالي كفـروا بالله بـدافع كـبرهم وعـزتهم الكاذبة ، وغرورهم الفـارغ ، لـذلك يخـزيهم الله ويـذلهم في الـدنيا والآخرة.

[152] وفي مقابل الكفـار الـذين يفرقـون بين الله ورسله ابتغاء المصالح العاجلة هنـاك رجـال صـادقون في ايمانهم يبتغون أجر الله الذي سيوافيهم عاجلا أم آجلا.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَـدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَـرَ مِنْ ذلِـكَ فَقـالُوا أَرِنَا اللـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَـذُوا الْعِجْـلَ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَتْهُمُ الْبَيِّنـاتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِـكَ وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِينـاً (153) وَرَفَعْنا فَـوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُـوا الْبـابَ سُـجَّداً وَقُلْنا لَهُمْ لَا تَعْـدُوا فِي السَّـبْتِ وَأَخَـذْنا مِنْهُمْ مِيثاقـاً غَلِيظـاً (154) فَبِما نَقْضِـهِمْ مِيثـاقَهُمْ وَكُفْـرِهِمْ بِآيـاتِ اللـهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَـقٍّ وَقَـوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْـفٌ بَـلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ

---

154 [لا تعدوا] : العدوان والتعدي.

بُهْتانــاً عَظِيمــاً (156) وَقَــوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِــيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَما قَتَلُـوهُ وَما صَـلَبُوهُ وَلكِنْ شُـبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُـوا فِيـهِ لَفِي شَـكٍّ مِنْـهُ ما لَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبـاعَ الظَّنِّ وَما قَتَلُـوهُ يَقِيناً (157) بَلْ رَفَعَـهُ اللّـهُ إِلَيْـهِ وَكـانَ اللـهُ عَزِيـزاً حَكِيمـاً (158) وَإِنْ مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ إِلاَّ لَيُـؤْمِنَنَّ بِـهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُـونُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً (159) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هـادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّبـاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللـهِ كَثِـيراً (160) وَأَخْـذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْـوالَ النَّاسِ بِالْباطِـلِ وَأَعْتَــدْنا لِلْكــافِرِينَ مِنْهُمْ عَــذاباً أَلِيمــاً (161) لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُـونَ يُؤْمِنُـونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّـلاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الزَّكـاةَ وَالْمُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (162)

156 [بهتانا] : البهتان الكذب الذي يتحير فيه من شدته وعظمته.

دوافع الكفر

هدى من الآيات :

لماذا يفرق المرء المؤمن بين الله ورسله. هل لأنه لا يقتنع بصدق الرسول؟

كلا .. ان أكـثر النـاس يخـالفون الرسـول اسـتجابة لأهوائهم ومصالحهم الانية ، وانما يغلفون مخالفتهم بطبقة من الجدل الفكري فهؤلاء بنو إسرائيل يطـالبون الرسـول بأن يأتيهم بقـراطيس منزلة من السـماء مباشـرة كـألواح موسى ، فهل كفـــروا بالرســـول لأنه لم يـــنزل عليهم قراطيس من السماء؟ وهل انهم يؤمنـون إذا نـزلت هـذه القـراطيس؟ كلا .. لقد جـاءهم موسى بما اقـترحوا ولكن لم يؤمنـوا به أيضا ، وانما قـالوا لموسى : أرنا الله جهـرة حـتى نـؤمن لك ، وهل كـان من الممكن اسـتجابة طلبهم التعجـيزي؟! ثم انهم أشـركوا بالله بعد ان اقتنعـوا بـالحق عن طريق البينـات الـتي جـاءتهم ، وأكـثر من ذلك انهم نقضوا ميثـاقهم بعد ان أحكمه الله عليهم أحكاما ، بعد ان ظلّل عليهم جبل عظيم ، فكاد يقع عليهم لولا انهم تعهدوا بالطاعة ، فلما رفع عنهم الجبل عادوا الى غيهم ، وكفـروا بآيات الله ، وقتلـوا الأنبيـاء ، وادعـوا ان قلـوبهم مقفلة لا يدخلها نور الايمان ، وانما هم الذين اقفلوها

على أنفسهم بالكفر.
ومثل آخر : ان بني إسرائيل كفروا بعيسى ، واتهمـوا امه الصـديقة مـريم ببهتـان عظيم. وادعـوا انهم قتلـوا المسيح الذي لم يقتلوه ، بل انهم اشتبهوا فيه ، ولكن الله رفعه اليه ، وقبل ان يموت أي واحد منهم فسـوف يـؤمن بالمسيح لأنه حق. والإنسان قبل موته يرى الحق بوضوح.
إذا ماذا كـان وراء كفر هـؤلاء؟ انه الظلم الـذي حـرم الله عليهم بسـببه كثـيرا من الطيبـات الـتي أحلت لهم سابقا.
فـالظلم سـواء كـان ذاتيا أو اجتماعيا فانه العامل الاساسي للكفر ، والظلم الـذاتي مثل شـرب الخمر ، والظلم الاجتماعي مثل محاولة تحريف الناس عن الحق ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وكل هذه تسبب الكفر ، ومرد الكفر عذاب اليم.

بينات من الآيات :

حقيقة الكفر من واقع بني إسرائيل :

[153] يجب الّا تخدعنا كلمات الكفار التي يتظاهرون بها. ان مخالفتهم للرسالة انما هي لعدم قنـاعتهم الفكرية بها ، ويقدمون طلبـات يزعمـون أنها لو تحققت إذا لآمنـوا كلا ، فعلينا أن نكشف عن دوافعهم ورغباتهم الاجتماعية.
فهؤلاء بنو إسرائيل طالبوا الرسـول بـأن يـنزل عليهم كتابا من السماء غير القرآن ، ويبدو أنهم كانوا يريدون أن يكون الكتـاب محتويا على بعض الأفكـار ، أو أنهم طـالبوا بكتـاب مكتـوب في الألـواح ، كما نـزل على موسى عليه السلام.

بيد أن هــذا الطلب لم يكن في الواقع ســوى ســتار لإخفاء دوافع كفرهم المصلحية.

إذ أن موسى عليه السلام جاء إليهم بمثل ما يريــدون فلم يلبثـوا حـتى طلبـوا منه طلبا تعجيزيا سـاذجا فقـالوا : أرنا الله!!!

أو يمكن أن يــرى ربنا ســبحانه؟! بيد أنهم اشــترطوا على موسى أن يريهم الله حتى يؤمنوا.

(**يَسْئَلُكَ أَهْـلُ الْكِتـابِ أَنْ تُنَـزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابـاً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقـالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**)

نزلت صـاعقة عليهم أبـادتهم عن آخـرهم ثم أحيـاهم الله ، والسؤال : لمـاذا نـزلت الصـاعقة عليهم بعد طلبهم السخيف؟

الجــواب : لأنهم كــانوا من قبل ظــالمين لأنفســهم وللناس ، وما كان طلبهم الّا غطاء لظلمهم ، أو لأن مجرد هــذا الطلب كــان دليلا على أنهم يكفــرون بالله ، وبقيمة ومناهجه.

وأوضح الله لهم البينــــات لقد عــــبروا البحر بعد أن انفلق لهم وتحـــول الى طريق ســالكة ، ولقد قضى الله على عدوهم فرعون بالموت غرقا.

ولقد نــــزل عليهم المن والســـلوى وتفجـــرت لهم الصخور بالميـاه العذبة ، ومع كل ذلك عبـدوا العجل ، أفلا يــــدل ذلك على ان لهم دوافع مصـــلحية تـــدعوهم الى الكفر؟!

(**ثُمَّ اتَّخَـذُوا الْعِجْـلَ مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَتْهُمُ الْبَيِّنـاتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً**)

استطاع بذلك السلطان قمع التمرد المتمثل في عبادة العجل ، وقتل الكثير من الداعين اليه ، وضمن الوحدة الفكرية لبني إسرائيل.

[154] ومثل آخر من واقع بني إسرائيل أيضا ، حين اقتطع الله قطعة من الجبل فوضعها فوق رؤوسهم ، وهددهم بإفنائهم حتى تعهدوا له بتطبيق الميثاق ، ثم أمرهم بأن يدخلوا المدينة ساجدين لله سبحانه لا متكبرين ولا طامعين ، ونظم حياتهم ، فأمرهم بألّا يصيدوا يوم السبت ، وأخذ منهم ميثاقا وتعهدا شديدا بأن يطيعوا أوامره. فهل فعلوا؟! كلا .

(**وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ**)

أي رفعنا فوق رؤوسهم الجبل ليتعهدوا بالميثاق والعهد.

(**وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً**)

لله ، والباب هو باب المدينة التي فتحها الله لهم بعد أن تعبوا من حياة البداوة ، وسألوا الله بأن يرزقهم حياة الزراعة والتحضر.

(**وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**)

أي لا تتعدوا حدود الله في السبت.

(**وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**)

[155] ولكن لماذا نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء ، وابتعدوا نهائيا عن اتباع الحق ، وبرروا ذلك لأنفسهم ، بأن قلوبنا مغلقة ، ولا تستطيع أن تستوعب هذه الحقائق ، أو ليس لأنهم كفروا؟! فلما كفروا طبع الله على قلوبهم ، وأغلق فيها نوافذ الهدى ، ولم يعطهم الهداية التي هي منّة الله ،

وكـان مثلهم مثل الـذي أغمض عينه عن الشـمس حـتى غابت عنه فهل يستطيع أن يراها حـتى ولو فتح عينـه؟ كلا ..

أنهم اختـاروا العمى على الهـدى ، فسـلب الله عنهم نور الهدى جزاء لكفرهم به.

(**فَبِما نَقْضِـهِمْ مِيثـاقَهُمْ وَكُفْـرِهِمْ بِآيـاتِ اللـهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍ**)

بـالطبع لا يكـون قتل النـبي بحق ، وانما جـاء القـرآن بكلمة (بغير حق) تأكيـدا ، أو أراد أن يـبين أنهم لم يقـاتلوا الأنبياء ، فيقتلـوهم في الحـرب مما قد يـوحى الى البعض أن قتلهم حق ، كلا ..

إنما قتلوهم صبرا ، ومن دون أي مـبرر حـتى عنـدهم هم ، وحسب مقاييسهم الجاهلية.

(**وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ**)

أي مغلفة. لا تستطيع أن تسـتوعب نـور الحق ، وهـذا تبرير سخيف يتوسل به كل المعاندين الذين يريـدون قطع الجـدل على من يخاصـمهم ، فيقولـون هكـذا خلقنا الله ، أننا لا نفهم ، أننا لا نسـتطيع أن نـؤمن ، وبالتـالي يلقـون بمسؤولية كفرهم على الله سبحانه ، ولكنه كذب واضح.

(**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ**)

فهم كانوا قـادرين على فهم الحقـائق ، وقد سـاواهم الله في نعمة العقل ، وفرصة الهداية كـالآخرين ، ولكنهم سـدوا على أنفسـهم الطـرق بكفـرهم بالله ، وعنـادهم المتعمد وحـتى الآن هم قـادرون على تغيـير مسـارهم ، ولكن بصعوبة كبـيرة ، وذلك بـأن يـتركوا عنـادهم ويتوبـوا الى الله من جحودهم ، وآنئذ يتوب الله

عليهم ، ويعيد إليهم نعمة العقل ونــور الهـدى المســلوب عنهم.

بيد أن هذه العملية صعبة جـدا ، ولا يقـوم بها الا قليل منهم.

(**فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً**)

بيد أن وجــود هــذه الفئة القليلة الــتي تــؤمن من بعد الكفر لــدليل على ســخافة فكــرة (حتمية الضــلالة) الــتي تشبثوا بها لتبرير كفرهم.

قصة المسيح وأمه :

[156] كيف كفر هؤلاء حتى طبع الله على قلوبهم؟

انهم كفروا بعيسى ، وأضــافوا على كفــرهم اتهــام أم عيسى الصديقة مريم ببهتان عظيم.

(**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً**)

اتهموها بالزنا لإســقاط شخصــية نــبيهم عيسى في أعين الناس ، وكــانوا يعلمــون ان هــذه تهمة باطلة ، وأنها تهمة كبيرة.

[157] وأيضا بهدف إسقاط شخصية عيسى في نظر الجماهير ، وبالتالي إسقاط رسالته قالوا : انا قضــينا على عيسى ، قالوه كذبا ، وانما قتلوا رجلا آخر شبيها بعيسى.

(**وَقَــوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِــيحَ عِيسَــى ابْنَ مَــرْيَمَ رَسُولَ اللهِ**)

وانما كرّم القــرآن اسم عيسى هنا بأنه كــان المسـيح وهو ابن مــريم الصــديقة ، وهو رســول الله ، لكي يقابل محاولة اليهود لإسقاط شخصيته في أعين الناس.

(**وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**)

فقد قتلوا شخصا آخر ، أو أنهم تصـوروا قتل المسـيح بيد أنه كان قد رفع الى السماء حيا.

(**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ**)

ومجــرد اختلافهم في كيفية قتله لــدليل على أنهم لم يقتلـوه يقينا ، وإلا فعملية القتل خصوصا لشخصـية كبـيرة كعيسى لا يمكن ان تبعث الشك والتردد ، بل تكون موضع يقين واتفاق الجميع.

(**ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِ**)

ذلك الظن الآتي من غياب عيسى فادّعوا بأنهم قتلوه ، وبعض أدّعوا بأنهم صلبوه.

(**وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً**)

علما بأن القتل يكون شيئا يتيقن الإنسان به.

[158] انما اســتعاده الله ورفعه الى الســماء ، وهو حيّ يــرزق والله قــادر على ذلك بعزته ، وهو حكيم يرفع عيسى بعد ان أدّى رسالته ، وانتهت وظيفته.

(**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً**)

متى يؤمنون :

[159] وهـؤلاء الـذين يقـرءون الكتـاب يعلمـون ان عيسى لم يكن سـوى رسـول من اللـه. وان ارتيـابهم فيه ليس الا بهدف المصالح ، أو بسبب ضيق

النفس ، وعامل الحسد والكبر وحين تسقط عنهم حجب الريب فتنتهي المصالح ، ويطهر القلب من الحسد والكبر. آنئذ يؤمنون بعيسى ، ولكن متى يتحقق ذلك؟

إنما يتحقق عند الموت ، فعند الموت يفكر الإنسان تفكيرا جديا سليما بعيدا عن مؤثرات الدنيا الفانية ، وآنئذ يعرف الحقائق ، ويعلمها يقينا.

(**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**)

بماذا يشهد عليهم ، أنه يشهد بكذبهم وجدلهم ، ومحاربتهم له. لا لشيء الّا لأنه حمل إليهم رسالة الله ، وأراد لهم الخير ، يشهد على أنهم إنما كفروا به بعد أن عرفوه ، وأن ارتيابهم فيه لم يكن سوى غطاء لحسدهم وحقدهم.

والإنسان حين يتصور نفسه في لحظة مفارقة الحياة ولقاء الله ، آنئذ يكتشف زيف كثير من التبريرات التي يمني نفسه بها ، ويرى الحقائق بوضوح تام ، وعلينا إذا ان نتصور ذلك بين فترة وأخرى لعلنا نهتدي الى الحق.

علاقة الكفر بنقص النعم :

[160] ان كفر اليهود (وجحودهم وعنادهم) سبب لهم العمى ، وان الله طبع على قلوبهم ، وبالتالي سبب لهم انحرافا رئيسيا في الحياة كما رأينا وانتهى بهم الى نقض الميثاق ، وقتل الأنبياء ، وادعاء قتل عيسى.

أما ظلمهم (تعديهم على حقوق بعضهم) فقد سبب لهم حياة البؤس حيث لم يستطيعوا التلذذ بنعم الله في الحياة.

(**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**)

هل حرمها الله عليهم تحريما تشريعيا (كما حرم عليهم أنواعا من اللحم) أم

حرمها عليهم طبيعيا ، أي منعها عنهم بطريقة تكوينيـــــة. كما حرم مثلا على موسى وهو رضيع المراضع.

قد يكـون هـذا وذاك معـا. إذ أن الامة الظالمة يشـدد الله عليها في التشريع كما أن المجتمع الظـالم يسـتوجب نظاما شديدا وقوانين رادعة كثيرة ، وقد كان بنو إسرائيل من هذا النوع ، ولـذلك رأينا كيف أن الله تشـدد معهم في قصة البقرة لظلمهم ، وهكذا.

والامة الظالمة لا تتنعم بنعم الله ، لان كل فريق منهم يحـــاول الاســـتيلاء على حقـــوق الفريق الآخر ، ولا يحــاولون أن يتحــدوا ، ويكثفــوا الجهــود من أجل تحقيق رفاهية الكل واســـتغلال مـــوارد الطبيعة من أجل خــــير ورفاهية الجميع.

ولكن يبقى سؤال : ما هو الظلم الذي يمنع النعم؟.

الجــواب : أولا : منع النــاس عن الاكتســاب ، ووضع عراقيل أمـــام الطاقـــات أن تحقق الرفـــاه مما يســـميه القرآن هنا بسبيل الله.

ومن الطـبيعي أن تتخلف الامة الـتي تكبل الكفـاءات وتضع عليها قيودا كثيرة.

ثانيا : باســتغلال القــوي للضــعيف حيث ان القــوي يتكاسل ـ إذ ذاك ـ عن العمل البنـاء ، ويكتفي بما يسـتغله من الناس.

والضــعيف لا يــؤدي دوره لأنه مســتغل ، ويضــرب القرآن لنا بمثلي أخذ الربا ، وأكل اموال الناس بالباطل .. فالأول : استغلال مبطّن والثاني : استغلال سافر.

(**وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً**)

علم راسخ ، وفطرة ايمانية :

[161] (**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَـوا وَقَـدْ نُهُـوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَـذاباً أَلِيماً**)

بما أن الحديث السـابق كـان عن بـني إسـرائيل على وجه الإطلاق وبصــفة عامة فقد خصص القــرآن العــذاب للكـافرين منهم لكي لا يـزعم أحد : أن كل بـني إسـرائيل كفـار ، ولكن يسـتثني منهم طبقة خاصة يتحـدث عنها في الآية التالية.

[162] (**لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ**)

الـذين لم يتخـذوا العلم وسـيلة ارتـزاق ، بل منظـارا لمعرفة الحياة.

(**وَالْمُؤْمِنُونَ**)

الـذين طـابت نفوسـهم ولم تحمل رواسب الجاهلية ، وهــذه الآية تــدل على ان البشر يجب ان يتمتع ، أما بعلم راسخ أو بفطــرة إيمانية نظيفة ، وبالتــالي : أما أن يفهم الحقــائق كلها شخصــيا ، أو يســلّم لمن يفهمها بعد أن يكتشــفها ببصــيرة طـاهرة ، ويتجــرد عن ذاته ، ويتسـلح بصدق وصفاء.

(**يُؤْمِنُـونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّـلاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الزَّكـاةَ وَالْمُؤْمِنُـونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً**)

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْــــكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُــــوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْــدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْــراهِيمَ وَإِسْــماعِيلَ وَإِسْــحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهـارُونَ وَسُـــلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُـــوراً (163) وَرُسُـــلاً قَـــدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللــهُ مُوسى تَكْلِيمــاً (164) رُسُــلاً مُبَشِّـــرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيـزاً حَكِيمـاً (165) لكِنِ اللـهُ يَشْـهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْـكَ أَنْزَلَـهُ بِعِلْمِـهِ وَالْمَلائِكَـةُ يَشْـهَدُونَ وَكَفى بِاللــهِ شَـهِيداً (166) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـــدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ قَـدْ ضَـلُّوا ضَـلالاً بَعِيـداً (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْـدِيَهُمْ طَرِيقاً (168) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً

وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِـيراً (169) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمُ الرَّسُـولُ بِـالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَـآمِنُوا خَيْـراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُــرُوا فَــإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (170)

دلائل صدق الرسالة

هدى من الآيات :

في اطــار الحــديث عن الطبقــات الاجتماعية انتهى القرآن في حديثه السابق الى طبقة الكفار ، وضــرب مثلا من واقع بني إسرائيل الذين طالبوا الرسول بكتـاب يـنزل من السماء ، وغلفوا دوافع كفرهم بهذه المطالبة فــردهم القـــرآن ، وبيّن ان للكفر دوافعه النفســـية والمصـــلحية والاجتماعية.

أما لو أوتي البشر رســـوخا في العلم أو ايمانا فانه لا يكفر ، وفي هذا الحديث يسوق القرآن بعض البينات على رسالة الرسول ، فيقول :

أولا : ان الرسالة ليست جديدة على النـاس ، بل هي امتـداد للرســالات الســماوية الســابقة الـتي نـزلت على النبيين.

ثانيا : أن الهــدف من الرســالة الّا يبقى للنــاس على الله حجة ، فلا يعذبهم دون ان ينذرهم سلفا.

ثالثا : ان الله هو الشاهد على صـدق الرسـالة ، فكل من يعــرف الله يعلم ان الله يحب الخــير ، ويــدعو الى الإحسـان والصـدق والفـداء ، وكل تلك القيم تتفق وروح الرسالة ، ثم يبين الله مصير الكفار بالرسالة فقال : أنهم منحرفـون عن الصــراط ، وان طــريقهم يــؤدي بهم الى النار.

ويأمر الناس أخيرا بأتباع الرسـالة لأنها خـير للنـاس ، وأنهم لو خالفوها فلن يضروا الله شيئا ، بل انما يعرضـون أنفسهم لعقاب الله وسخطه العظيم.

بينات من الآيات :

خط الأنبياء :

[163] لأن وحي الله لبعض عبــاده خـــرق لعــادة الطبيعة ، ومخالفة للسنن التي يألفها الناس ، لـذلك كـان يـردّ مـدعي الرسـالة ، وأوضح تـبرير لـردّه كـان مخالفته للمألوف الذي تعود على الناس ، ولكي يتجاوز القرآن هذا الحاجز النفسي المانع للناس عن اتبـاع الرسـالة. ذكـرهم بـأن هنـاك سلسـلة طويلة من الأنبيـاء على فـترات من التــاريخ ، إذا فليس الرســول بــدعا من الرسل ، ولا هو عجيب من امر الله الذي بعث الأنبياء السابقين.

(**إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ**)

بعد نوح جاء أنبياء كثيرون لا يعرف عنهم التاريخ شيئا ، ولــذلك أشــار القــرآن هنا الى ذكــرهم أشـارة ، كما لا يعرف بالضبط الفترة الفاصلة بين نوح وإبراهيم.

(**وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْــراهِيمَ وَإِسْــماعِيلَ وَإِسْــحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهـارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً**)

وبـالرغم من ان الزبـور لم يكن كتـاب تشـريع ، بل كتاب دعاء وابتهـال ، فانه أوحي الى داود وحيا ، مما يـدل على ان الله أوحى الى بعض رسـلـه حـتى الادعية والابتهالات.

[164] هـؤلاء بعض رسل اللـه. وهنـاك آخـرون لا يعرفهم الناس فمن قال لكم : إن الرسـالة مخالفة لسـنة الله ، أو لطبيعة الحيـاة كلا انها جـزء من هـذه الطبيعة ، وتلك السـنة ، وان ابسط دليل على ذلك هو وقوعها بشكل مكرر.

اننا نعرف ان المطر جـزء من سـنة الحيـاة لأننا نـرى وقوعه مكررا ، وان الزلازل جزء من طبيعة الأرض ، لأنها تقع بشكل مكرر وكذلك الرسالات ما دامت توحي بشـكل مكرر فانها جزء من سنن الحياة ..

(**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُـلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**)

وهناك أكثر من مجـرد الـوحي ، بل كـان هنـاك تكليم مباشر من قبل الله مع الإنسـان ، وبـالطبع دلالة الحـديث المباشر أقوى من الوحي من وراء حجاب.

(**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً**)

التبشير والتحذير وظيفتا الرسل :

[165] كـانت الغاية من بعث الرسل هي : التبشـير بحياة أفضل ، والتحذير من الهلاك ، حـتى لا يقـول النـاس غـدا : ربنا لم لم تبعث إلينا الرسل حـتى لا نضل ولا نقع في الهلاك ، ان هـذا الهـدف العقلاني لـدليل على ان الله قد بعث الرسل بالتأكيد ، ثم لأن الله قـادر على بعث الرسل لا ريب في ذلك ولأنه حكيم ، فهو

لا يعـــذب البشر قبل ان يقطع عليهم الحجج ، ويســـوق إليهم بالاعذار.

(**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً**)

فلو لم يبعث الرسل بالبشارة والإنذار ، ثم عذاب من عذب ونعم من نعم ، إذا لكـان ذلك مناقضا لعزته وحكمته ، وبالتـالي دليلا على انه أما أن يكـون غـير قـادر ، أو غـير عارف بالمصالح وبظرف العمل سبحانه عن ذلك.

شهادة الله دليل صدق الرسالة :

[166] والدليل الثاني على صـدق الرسـالات شـهادة الله الذي انزل الوحي بعلمه ، ولكن كيف يشهد الله؟

ان الله زود الإنســـــان بعقل ، وان عقله يهديه الى معرفة الله من خلال التفكر في آيات الوجـود ، بل ويهديه الى معرفة صفات الله الحسـنى ، والى طائفة كبـيرة من تعاليمه وقيمه.

ان نظرة واحدة الى الكون تهدينا الى ان الله عادل ، وأنه رحيم يحب الخـير والإحسـان ، وانه يكـره الفسـوق والظلم والفاحشة ، ونحن نعـــرف ذلك من خلال العدالة المنتشــرة في أرجــاء الكــون ، ومن خلال الرحمة الــتي تتمثل في نعم الله على الحيــاة ، ومن خلال وصــول كل فرد الى جزاء عمله ، وهكـذا يعـرف العقل قيم الله الـتي تطابق الرسالات السماوية التي يوحي الله بها الى الأنبياء ، فبنظـرة واحـدة الى برنـامج الرسـالات يكتشف الفـرد صـــدق هـــذه الرســـالة وارتباطها بالله ، وانها تتفق وقيم العدالة والخير والرحمة ، وانها بالتالي أنزلت بعلم الله.

شهادة الملائكة :

(**لكِنِ اللـهُ يَشْـهَدُ بِما أَنْـزَلَ إِلَيْـكَ أَنْزَلَـهُ بِعِلْمِـهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً**)

كيف تشهد الملائكة؟ هل ان شهادة الملائكة تعني ان حقـائق الكـون وقـوى الطبيعة تتفق ورسـالات السـماء ، باعتبــار ان الملائكة هي القـــوى العاقلة الموكلة من قبل الله بالطبيعة؟

ربما كــان ذلك ، وربما ان الملائكة يشـــهدون بـــدعم جبهة الرسالة عمليا كما فعلوا في بعض حروب الرسول ، أو ان الملائكة هي تعبـــير عن نـــوازع الخـــير في قلب الإنســان ، تلك النــوازع الــتي تـدعمها الملائكة ، وتخالفها الشـياطين ، وحين تتفق نـوازع الخـير ورسـالات السـماء نعرف ان الملائكة يشهدون على صدقها.

ألم يشر الرسـول مـرة الى قلب واحد من الاعـراب وقال له : «ما قال لك هذا فافعله فانه الحق».

المهم أن الله وملائكته يشـــهدون بصـــدق الرســـالة وبطرق شتى.

شهادة الكفار دليل حي :

[167] وهناك شـهادة على صـدق الرسـالة تـأتي من الطـــرف الثـــاني أي من الكفـــار أنفســـهم ، حيث أن مقـــاومتهم لقيم الرســـالة ومن أبرزها : الحرية والعدالة تجسد أمامنا الضلالة بكل ما فيها من قبح وبطلان.

إنك قد لا تشعر بمدى خطـورة الكبت والقهر والظلم الا حين تراها مجسـدة في نظـام طـاغوتي ، وتـرى كيف تســحق كرامة النـــاس ، وتغتصب حقـــوقهم ، وتصـــادر حريــاتهم في ظل هــذا النظــام ، آنئذ تفهم مــدى بطلان الايديولوجية التي يعتمد

عليها هذا النظام ، كما تعرف صـدق الفكـرة الـتي تخالفه وتخالف ايديولوجيته.

إذا نظـــرة الى جبهة الكفر كافية للدلالة على صـــدق الرسالة.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً**)

وسبيل الله هو كل خير يدعو اليه الله وينتهي اليه.

[168] هـؤلاء يصـادرون حريـات النـاس ولا يـدعونهم يتمتعون بنعم الحياة ، وبالتالي يصدونهم عن سـبيل الله ، كما انهم يصـادرون حقـوق النـاس وأمـوالهم ، فهل يمكن أن يكون هؤلاء على حـق؟ ويكـون الرسـول على باطـل؟ وهل يمكن ان يدخلهم الله الجنة ويـدخل الرسـول النـار؟ كلا إن الــــرب الــــذي نعرفه من خلال نعمه الســـابقة ، ورحمته الواسـعة ، وعدالته الشـاملة ، وبالتـالي من خلال أسـمائه الحســنى في الكـون ، إنه لا يرضى بالتاكيد عن الظلم ، وانه يخالف تلك الفكـرة الـتي تـدعو الى الظلم ، وبالمقابل يؤيد تلك الرسالة التي تدعو الى العدالة.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَظَلَمُـوا لَمْ يَكُنِ اللـهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً**)

[169] (**إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَكـانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**)

فبالرغم مما يملك هؤلاء من عز وسـلطان في الـدنيا مما يعظم في أعين النـــاس ، فـــإنهم هنـــاك في الاخـــرة منبوذون في النار خالدين فيها ، لان عـزتهم وسـلطانهم لا شيء عند قدرة الله وسلطانه.

الواقع دليل بارز

[170] ودليل أخر على صـــدق الرســالة دليل واقعي آت من تجربتها العملية ، حيث نكتشف من خلال التجربة ان تطبيق الرسالة يؤدي الى الخير (الرفاه ،

والســــعادة ، والحرية ، والعدالــــة) لأنها حق ، ومطابقة لواقعيات الحياة وسننها وقوانينها.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمُ الرَّسُـولُ بِـالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْـراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**)

اي انه قادر غني عنكم وعن عبادتكم ، ولكنه لا يــوفر لكم الخير الا بعد اتباعكم لرسالته ، لأنه حكيم ولأنه عـالم بأعمالكم ، ويجازي عليها إن خيرا فخيرا وان شرا فشرا.

يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لا تَغْلُـوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُـوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَـرْيَمَ رَسُـولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللـهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَـدٌ لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللـــــــــهِ وَكِيلاً (171) لَنْ يَسْـتَنْكِفَ الْمَسِـيحُ أَنْ يَكُـونَ عَبْـداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَـةُ الْمُقَرَّبُـــونَ وَمَنْ يَسْـــتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِـــهِ وَيَسْـــتَكْبِرْ فَسَيَحْشُـرُهُمْ إِلَيْـهِ جَمِيعـاً (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ

---

171 [لا تغلوا] : أصل الغلو مجاوزة الحد.

172 ـ [يسـتنكف] : الاسـتنكاف الأنفة من الشـيء وأصـله من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك.

فَيُـوَفِّيهِمْ أُجُـورَهُمْ وَيَزِيـدُهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْـتَنْكَفُوا وَاسْـتَكْبَرُوا فَيُعَــذِّبُهُمْ عَــذاباً أَلِيمــاً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (173)

لا تغلوا في دينكم

هدى من الآيات :

تكميلا للحـــديث عن ضـــرورة الـــوحي ، وتوضـــيحا لمواصــفات الطبقة المؤمنة ، حــتى لا تختلط بالطبقــات المتظاهرة بالايمـان ، جـاءت هـذه الآية لتتحـدث عن زيف فكرة انصاف الآلهة التي ابتـدعت في مـذاهب النصـارى ، فزعمـوا : ان نـبيهم عيسى بن مـريم كـان ابنا للـه. كلا ، عيسى وجميع الأنبيــاء انما هم بشر ، وصــفتهم الممــيزة التي جعلهم الله بها أنبياء ، واختـارهم للـوحي تلك الصـفة هي عبوديتهم التامة لله وخضوعهم الكامل له.

ونهت الآية الأولى عن الغلو في الـــدين ، والافـــتراء على الله غــير الحق بــأن عيسى ثــالث ثلاثة ، يشــكلون بالمجموع قيادة موحدة لادارة الكون ، بينما المسـيح (كما تقــول الآية الثانيــة) لا يتكــبر عن عبودية الله ، ولا يــرى نفسه أكــبر من هــذه العبودية ، وهــذا سر عظمته ، أما المتكبرون عن عبادة الله فان جزاءهم عذاب أليم.

بهــذا نقّت الآيــات فكــرة الرســالة عما لصق بها من رواسب الشرك

الجاهلية ، وجعلها مقبولة للعقل البشري.

والواقع ان كثيرا من الـذين ينكـرون الحقـائق الدينية انما ينكرون ما لصق بها من خرافات وأوهام ، ولو صفّيت الحقائق عن تلك الخرافات والأوهام ، فان أكثرهم سيعود الى الرشد ، ويؤمن بالحقائق.

لذلك تعتبر تصفية فكرة الرسالة من رواسب الشرك بمثابة دليل على صــدق الرســالة لأنه يفتح الطريق أمــام الايمان بها.

بينات من الآيات :

الغلو :

[171] الغلو في الدين بمثابة الإنكار للــدين. ذلك لان إضـرار الغلو لا تقل عن إضـرار الجحـود أو الانتقـاص من الــدين ، وقد يكـون الغلو في الــدين سـببا لكفر كثـير من الناس الآخرين الذين ترفض فطرتهم النقية شـوائب الغلو ، فينكرون ما ارتبط بها من حقائق الدين أيضا.

وقد كـــان غلو النصـــارى في عيسى ســـببا لهـــروب المثقفين منهم وإنكـــارهم الرســـالة رأسا لأنهم وجـــدوا بفطرتهم الصافية ان الايمان بألوهية بشر مثلهم سخافة ، فآثروا الكفر بالـدين رأسا ، ولم يجهـدوا أنفسـهم بالفصل بين الخرافة والحقيقة في الدين.

لذلك تجد القـرآن الحكيم يعامل المغـالين في الـدين بذات العنف والقسوة التي يعامل بها الكفار والجاحدين.

(**يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لا تَغْلُـوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُـوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ**

(**مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ**)

وليس إلها في مسـتوى الله سـبحانه ، وليست ولادته الخارقة الا دليلا على قـدرة الله وعظمته ، وليس فيها اى دلالة على ألوهية عيسى.

(**وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**)

وكلمة الله يعني مشيئته التي تتجسد في كلمة «كن» الــتي تتحقق بها الأشــياء ، كــذلك خلق الله الســموات والأرض. وكذلك خلق الله عيسى. قـال الله : كن ، فكـان في رحم أمه مـريم ، ولـذلك عـبر الله عن ذلك ب (ألقاها الى مــريم) أي تلك الكلمة الـتي أنزلها الله على مــريم ، فكوّن بها عيسى عليه السلام.

ذلك لان جبرئيل هو الـذي نفخ في جيب مـريم متمثلا في رجل سوي ، وبذلك النفخ خلق الله عيسى.

اما الروح فانها حسبما ـ يبدو لي ـ روح القدس الــذي أيد الله به عيسى ، فعلم الغيب وأحيا المـــــــوتى وعمل المعجزات.

وبذلك لم تكن معجـزات عيسى دليلا على انه اله من دون الله ، بل انه مزوّد بروح من الله.

(**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**)

ســواء كـان خلقهم بغـير أب أم لا ... وســواء أحيــوا الموتى أم لا ... إذ أن المهم ان يكون الشخص رسولا من قبل الله ، وليس المهم سائر الميزات المتوافرة عند هــذا أو ذاك.

(**وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُـوا خَيْـراً لَكُمْ إِنَّمَا اللـهُ إِلـهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ**

لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللـهِ وَكِيلاً)

وهل من المعقـول : ان يتخذ رب السـموات والأرض واحـــدا من البشر بمثابة ابن له .. وما قيمة معجـــزات عيسى بالنسبة الى قدرة الله الهائلة المتمثلة في ملكوت السموات والأرض.

وهل يتناسب ان يكـــون عيسى البشر المحـــدود الضعيف ابنا لذلك الرب العظيم .. القادر.

وبـدلا من ان يتخذ الواحد منا عيسى إلها ، أفلا يكـون من الأفضل أن يتخذ الله إلهـــه؟!. أفليس الله يغنيه عن عيسى وغــير عيسى من البشر ، أفلا يكفيه وليا ونصــيرا وقائدا؟!

العبادة لله هي الامتياز :

[172] أبسط دليل على ان عيسى لم يكن ســـوى بشر عبادته لله وطاعته لمناهجه ، تلك العبـــادة والطاعة التي أتقنها وأكملها المسيح ، كما أتقنها سائر الرسل. مما دل على أنهم ـــ كما نحن ـــ عبـــاد الله علينا جميعا ان نطيعه.

(**لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ**)

اي لا يرى ذلك غـير مناسب لشخصـيته ، أو غـير لائق لعظمته كرسول.

(**وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**)

أولئك الـذين تصـور بعضـهم انهم يشـاركون الله في الالوهية سبحانه ، هم بـدورهم لا يـرون العبـادة غـير لائقة بهم .. كلا بل هي من صميم وجودهم الناقص

الضعيف.

(**وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ**)

أي من يرى نفسه أعلى من العبادة تكبرا وكـذبا ، فلا بد أن يعرف انه ليس سوى بشر ضعيف ، وآية ضـعفة انه سوف يحشر الى الله بكل خضوع.

(**فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً**)

[173] وهناك ينقسم الناس فريقين :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ فَيُـوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا**)

ودفعهم استنكافهم الى الكفر.

(**وَاسْتَكْبَرُوا**)

ودفعهم استكبارهم الى ترك الأعمال الصالحة.

(**فَيُعَذِّبُهُمْ عَـذاباً أَلِيمـاً وَلا يَجِـدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

فلا ينفعهم أولئك الـــذين اتخــذوهم انصـــاف الهة ليخلصوهم من عذاب الله.

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمْ بُرْهـانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُـوراً مُبِينـاً (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَاعْتَصَـمُوا بِـهِ فَسَـيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَـةٍ مِنْـهُ وَفَضْـلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْـهِ صِـراطاً مُسْـتَقِيماً (175) يَسْـتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَـةِ إِنِ امْـرُؤٌ هَلَـكَ لَيْسَ لَـهُ وَلَدٌ وَلَـهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْـفُ ما تَـرَكَ وَهُـوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كـانُوا إِخْـوَةً رِجـالاً وَنِسـاءً فَلِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ أَنْ تَضِـلُّوا وَاللـهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (176)

---

174 [برهان] : البرهان الشاهد بالحق وقيل البرهان البيان يقال بـرهن قوله أي بين حجته.

حكم الإرث

هدى من الآيات :

بعد ان ســاق القــرآن الحجة بعد الحجة على صــدق الرسالات السماوية ـ عموما ـ اختص الحـديث عن رسـالة النبي محمد (ص) وبين انها تحتوي على ذات المواصــفات الموجودة في أية رسالة سماوية.

فهي برهان من الله يشهد عليه الله ســبحانه بما فيها من قيم صادقة ، وهي نور مبين ينير للإنسان كافة جوانب حياته ، وهي خـير لمن اتبعها واعتصم بهـا. سـعادة ورفـاه وهدى.

وختم القرآن سورة النساء بما بـدأ السـورة من بيـان حكم اجتمــاعي يتجلى فيه حكم الإســلام العــادل الــذي يعطي كل ذي حق حقه.

بينات من الآيات :

القرآن نور وهدى :

[174] القـرآن برهـان من الله ، وبـذلك يكـون هـدى لحياتنا فيه كل الجوانب

العامة من قيم الخـير ، وهو نـور من الله ، وبـذلك يكـون توضيحا لتفاصيل خطوط الحياة.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـــدْ جـــاءَكُمْ بُرْهـــانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً**).

[175] ولأن القـرآن برهـان من الله فهو يربط البشر بربه وعلى البشر ان يستجيب لهذا الربط بالايمـان ، ولأنه من جهة اخـرى ـ نـور ـ فعلى البشر ان يستضـيء به ، ويتبعه ويعتصم ويتمسك بحبله.

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ**)

حيث جاءهم برهان من الله.

(**وَاعْتَصَمُوا بِهِ**)

حيث جاءهم نور من الله.

(**فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ**)

متمثلة في حيـاة سـعيدة تتـوافر فيها حاجـات الجسد والروح والفرد والمجتمع وبكل طبقاته وعناصره.

(**وَفَضْلٍ**)

متجسد في الرفاه المادي ، والتطلع الروحي. ذلك ان السعادة هي الدرجة الاولى من الخـير ، وقد يكـون الفـرد سـعيدا ولكنه لا يكـون ذا رفـاه عظيم ، بيد ان الفضل هو الدرجة العليا في سلم الخـير ، وهو الـذي يـوفره الايمـان واتباع الإسلام.

(**وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً**)

فيكـــون تحقيق الخـــير والفضل في الـــدنيا مقدمة لسعادة ورفـاه أكـبر في الآخـرة ، كما يكـون تحقيق هـذه جميعا بأقل قـــــدر ممكن من الجهد لأنه يتبع صـــــراطا مستقيما وهو أقرب الطرق الى الهدف.

كيف ترث الطبقة الثانية :

[176] وكمثل على ذلك منتزع من حكم الإسـلام في القضايا الاجتماعية التي ابتدأت سورة النساء بها ، وتختتم بها أيضا ، كمثل على ذلك يـبيّن القـرآن حكم الإرث الـذي هو من جهة رابط اجتمـاعي بين أجنحة الاسـرة الواحـدة ، ومن جهة ثانية : طريق ســـليم لتوزيع الـــثروة ومحاربة تكريسها ، ومن جهة ثالثة : احترام لحقوق الفـرد (الميت) الذي بذل جهودا كبـيرة للحصـول على المـال ، فمن حقه ان يقسم هـذا المـال بعد موته على أقـرب النـاس اليه ، وذلك بعد أداء ديونه وتنفيذ وصاياه.

في الإرث طبقات ثلاث متدرجة لا ترث الطبقة الثانية فيها الّا بعد ان ينعـــدم أي شـــخص في الطبقة الاولى ، والطبقة الثالثة لا ترث شـيئا الا في حالة عـدم وجـود أحد من أبناء الطبقة الثانية والاولى.

والأخوات هن في الطبقة الثانية (بعد الأبوين والأولاد) وفي حالة وجـود أخت واحـدة للميت تـرث نصف التركة ، وإذا كانت له اختان فإنهما تتقاسمان ثلـثي المـال ، أما إذا كانوا أكثر من ذلك ، بل مختلطين ، أي كـان للميت اخـوة وأخوات فهم يتقاسمون المال على أساس نصيبين للـذكر ونصيب للأنثى.

كل ذلك في حالة عـدم وجـود أحد من أبنـاء الطبقة الاولى ، أي الوالدين والأولاد.

(**يَسْتَفْتُونَكَ**)
أي يسألونك أن تصدر فتوى في قضية الكلالة.
(**قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ**)
أي الاخوة والأخوات.
(**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ**)
ولا والد ، وانما أغفل القـــرآن ذكر الوالد لان الأغلب عدم وجود الوالد مع هلاك الشخص.
(**وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ**)
أما إذا ماتت هي وتركت أخا أو مـات رجل وتـرك أخا لا غير ، فهو يرثها أو يرثه بالكامل.
(**وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ**)
أما إذا مـات الرجل ، وخلف أخـتين فهما تتقاسـمان ثلثي المال لكل واحدة الثلث.
(**فَـإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثـانِ مِمَّا تَـرَكَ وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَنِساءً**)
فهم يرثون المـال على أسـاس نصـيب واحد للأنـثى ، ونصيبين للذكر.
(**فَلِلـذَّكَرِ مِثْـلُ حَـظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللـهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)
أي انما يـبين الله احكامه لكم لكي لا تضـلوا ولكي لا تبخسوا حقوق أحد

لحساب الآخـرين ، والله يعلم ما يناسب الصـلات الرابطة بين أبنـــاء المجتمع ، وأبسط الحقـــوق ، فيضع لها احكاما مناسبة. هل هناك من يعلمها الّا الله ، حاشا لله ..

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الهداة الميامين.

فضل السورة

عن عيسى بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جـــده ، عن علي عليه السلام قال :

«كان القرآن ينسخ بعضه بعضا ، وإنما كـان يؤخذ من أمر رسول الله (ص) بآخره ، فكـان من آخر ما نـزل عليه سـورة المائـدة ، نسـخت ما قبلها ، ولم ينسـخها شـيء ، فلقد نــزلت عليه وهو على بغلته الشــهباء ، وثقل عليه الوحي حتى وقعت وتـدلّى بطنها حـتى رأيت سـرتها تكـاد تمس الأرض ، وأغمي على رســول الله (ص) حــتى وضع يـــده على ذؤابة شــيبة وهب الجمحي ، ثم رفع ذلك عن رسول الله (ص) فقرأ علينا سورة المائدة ، فعمل رسول الله (ص) وعلمناه»

الإطار العام

استوحى اسم السورة من قصة ذكرت في اخرها والعبرة فيها : أنّ الرفاه الاقتصادي نعمة تهبط على البشر من السماء بقدر التزامهم بمناهج الله وأحكامه.

وتتناسب هذه العبرة مع الإطار العام لأحاديث السورة ، التي تدور في محور التنظيم الاجتماعي وبصورة تكاد تكون قريبة الى اطار سورة النساء اللهم الا في نقطة واحدة. ان هذه السورة تعني في الأغلب بالروابط الاجتماعية العامة ، بينما كانت سورة النساء تركز على العلاقات الأسرية والحقوق المتبادلة فيها ، وبالذات قضايا الإرث ، وما أشبه.

تبتدء السورة بضرورة الوفاء بالعقود ، باعتبارها الرابطة الاعتبارية الأساسية التي تبني حضارة الإنسان ، ولكن القرآن يحدد العقود في حدود احكام لا يجوز أن تتجاوز.

من ابـرز هـذه الأحكـام ما بيّنه القـران ، في الأطعمة الـتي هي أول واهم ما تتناوله عقـود البشر ، لأنها مرتبطة بأشد الحاجات ضرورة لهم.

وبعد بيـان طائفة من أحكـام الأطعمة الـتي فيما بينها حكم الصيد ، وحكم حرية التجـارة ــ خصوصا في الأشـهر الحرم ـ والتعاون على البر والتقوى وما أشبه ، مما يتصل من قريب بقضية الطعام (الآيات 1).

بعدئذ يتحدث عن طعام الذين أوتوا الكتاب حيث يحله القرآن للمسلمين ، ويشجع بذلك التجارة بين أهل الكتاب وبين المسلمين في الاطعمة (الاية).

ثم يبين القـرآن بعض احكـام الطهـارة في الإسـلام ، المتصل بالعلاقـــــات الاجتماعية (حيث ان التطهر يحبب النـاس بعضـهم الى بعض ، وهو حق من حقـوق المجتمع على الفرد) (الآية).

ويحدثنا القران (بعدئذ) عن ضرورة الوفـاء بـالمواثيق باعتبارها ركنا اساسـيا للعلاقـات الاجتماعية ، وإذا كـانت العقـود وسـيلة للتبـادل التجـاري ، فـإن المواثيق وسـيلة للتعــاون السياسي الاجتمــاعي ، الا ان المواثيق يجب ان تهدف تحقيق العدل في الحياة (الآيات 7).

كما تحددت العقود بالاحكام الشرعية وبالتعــاون على البر.

والميثاق السياسي للدولة الاســلامية هو أهم ما يجب على الأمة احترامه ، ويســوق القــرآن قصصا تاريخية من واقع بــني إســرائيل ليجسد لنا مــدى ضــرورة الالــتزام بالمواثيق وكيف أن نقضـها يـورث الـدمار واللعنة (الآيـات 12).

ثم يحــدثنا عن ضـرورة تطـبيق شـريعة السـماء في المجتمع. انها نور وهدى ، سواء

نـــــزلت على موسى في التــــوراة ، أو على عيسى في الإنجيل ، أو على محمد في الكتاب المهيمن على التــوراة والإنجيل.

ويسوق القرآن الكريم من تـاريخ بـني إسـرائيل كيف ان مخـالفتهم لأوامر السـماء جعلتهم يـتيهون في الأرض أربعين سنة ، ثم يبين حكم القتل بعد بيان قصة ابــني آدم حيث وقعت أول جريمة قتل (الآيات 15).

ومن القتل ينتقل القرآن الى حكم الفساد في الأرض (قطــاع الطــرق) ومنه الى جريمة الســرقة ، ومنها الى جريمة التجسس مما يرتبط جميعا بقضـــــــــــية الأمن الاجتماعي. (الآيات 33).

ويبّين ضـرورة الالـتزام برسـالات السـماء انى كـانت وأن من يخالفها كـــافر أو ظـــالم أو فاسق حسب طبيعة المخالفة ، ويســـوق أمثـــالا لهـــذه المخالفـــات الثلاث .. (الآيات 43).

بيد انه ليس من الضـــروري لاقامة الدولة الاســـلامية أتباعهم لان القيادة والهيمنة تكون للإسلام ، حيث لا يجـوز للقائد اتباع أهوائهم لأنها جاهلية (الآيات 48).

والـــولاء السياسي داخل المجتمع المســـلم يجب ان يكون خالصا للقيادة الاسلامية (الآيات 51).

وبعد ان بيّن القـــرآن طبيعة الـــولاء السياسي داخل المجتمع المسلم ، والذي سـماه بحـزب الله (الآيـات 54) عـاد وحـذر من ازدواجية الـولاء ، وبيّن بعضا من مسـاوئ أهل الكتـــاب ، ومن أبرزها حقـــدهم على المســـلمين ، ومسـارعتهم في الإثم والعـدوان ، وقـولهم يد الله مغلولة وفسادهم في الأرض

(الآيات 57).

وماذا يستفيد الناس من تطـبيق شـريعة اللـه؟ يجيب القــرآن : بــأنهم ســوف يــأكلون من فــوقهم ومن تحت أرجلهم إذا طبقــوا كتب الله ، هــذا في الــدنيا ، اما في الاخرة : فسوف يرزقهم الله جنة النعيم (الآيات 65).

وعلى الرسـول ان يبلغ رسـالة الله في كل الشـؤون (ومن أبرزها قضـية القيـادة الاسـلامية) ولا يخشى أحــدا (الآية 67).

ذلك أن رســالة الله هي خــير للنــاس وان الأمة لا تساوي شيئا لو لم تطبق هذه الرسـالة بالكامل ومن دون زيادة فيها (الآية 68).

وان قيمة الايمـــــان والعمل الصـــــالح هي القيمة الاساسية التي يقاس بها الأشخاص في المجتمع الاسلامي على اختلاف انتماءاتهم (الآية 69).

ولكن حرّف أهل الكتاب دينهم ، واتبعوا أهواءهم حتى انه لو جـاءهم نـبي يخـالف أهـواءهم كـذبوه أو قتلـوه ، وزعمـوا انهم بقتله ضـمنوا لأنفسـهم حيـاة هانئة ، ولكن كانت النتيجة بالعكس من ذلك تماما (الآية 71).

اما النصــارى فقد اتخــذوا المســيح إلها بينما كــان المسيح يـدعو الى الله ، وينهى عن الشـرك به ومنهم من قـال : ان هنـاك آلهة ثلاث ، المسـيح واحد منهم ، وهـؤلاء كفار سوف ينالون جزاءهم إذا لم يستغفروا ربهم.

إذا ، لم يكن المسـيح سـوى رسـول مثل سـائر رسل الله ، وأن امه صديقة ، وان اي شـخص يعبد من دون الله لا يملك ضــرا ولا نفعا فهو الأخر عبد لله ، وإنما تســربت فكــرة تعــدد الألهة الى الرســالات الســماوية من أفكــار الجاهلية ، وقد

حاربها كل أنبيــاء الله ومن بينهم ـــ المســيح بذاته (الآية 78).

وهــؤلاء الــذين أدخلــوا هــذه الأفكــار الكــافرة في الرسـالات هم كفـار وبعيـدون عن روح الرسـالة ، وابسط دليل على ذلك انهم لا يتناهون عن المنكـرات ، وان كثـيرا منهم يتخذون الكفار قادتهم وأولياءهم ، وهذه صفة الكفر ، إذ لو كانوا يؤمنون بالله حقا ، لما اتخذوا الكفار أوليــاء ، بيد ان بعضا من علمــاء النصــارى لا يزالــون متمســكين برســالة الله ، وان لهم جــزاء حســنا. وبهــذا الســرد أراد القــــرآن فصل قيــــادة المجتمع الاســــلامي عن اليهــــود والنصارى ، ثم عاد يتحدث عن : تنظيم الحيــاة الاجتماعية وضــرورة الانتفــاع بالطيبــات في اطــار مراعــاة حقــوق الناس.

ومن الحقــوق مراعــاة اليمين الــذي ينظم جانبا من حياة المجتمع.

والمجتمع الاســــلامي متماسك لأنه بعيد عن الطيش (هو ســبب من أســباب النزاعــات الجاهليــة) فلا خمر ولا ميسر ولا أنصاب ، ولا أزلام داخله.

ولا يعني ذلك ان كل لذة حرام في هـذا المجتمـع. كلّا إذ أن كل شــيء حلال في حــدود القــانون الــذي تحصــنه التقوى والإحسان (الاية 92).

فمثلا : كل الطعام حلال إلا بعض الصيد ، الذي جاءت حرمته امتحانا وتربية للناس وذلك هو الصيد وقت الإحرام ، ويختص ذلك بصــيد الــبر اما صــيد البحر فهو حلال حــتى في وقت الإحرام وتكميلا للصــورة .. تحــدث القــرآن قليلا عن الكعبة ، وانها تخدم النظام الاجتماعي. فلو حــرّم الله الصيد خلال رحلة الحج فلأن ذلك ســوف ينتهي الى تنظيم الحياة الاجتماعية الآية : (97).

وبعد ان تحدث القــرآن عن ضــرورة الالــتزام بتعــاليم السماء ، بينّ سخافة

بعض ما ألصق بالدين من خرافات وأساطير.

وبالتـــالي بيّن : ان الزيـــادة في الـــدين هي بمثابة النقيصة فيه. لا تصـلح الحيـاة به (الآية 103) وانها جـاءت نتيجة التقاليد الجاهلية ، وان على الامة أن تتحصن ضد هذه التقاليد ولا تأبه بها (الآية 105).

وتنظيما للحيـاة الاجتماعية يـأتي دور الشـهادة حيث انها تحصن المجتمع من الاسـتهتار بـالحقوق ، ويـبين الله احكام الشهادة هنا بايجاز ضمن مثل حي (الآية 108).

ثم يعــود الى الحــديث عن الرسل ودورهم الــذي لا يتعدى البلاغ ، وانهم حتى لو فعلوا المعجـزات فانما بـإذن الله ، وبما أتاهم من قـوة وعلم ، وان الرفـاه الاجتمـاعي الــذي يعقب الرســالات الســماوية ، انما هو من الله كما انزل الله مائدة من السماء على الحـواريين ، فـان نـزول المائدة لا يدل على ان عيسى كان إلها ولذلك فهو يســأل يـوم القيامة عن مقالة النـاس فيه ولكنه ينتصل فـورا عن فعله اتباعه لان الملك لله وحده (الآية 120).

سورة المائدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا أَوْفُــوا بِــالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَـةُ الْأَنْعـامِ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْـرَ مُحِلِّي الصَّـيْدِ وَأَنْتُمْ حُـرُمٌ إِنَّ اللـهَ يَحْكُمُ ما يُرِيــدُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تُحِلُّوا شَـعائِرَ اللــهِ وَلاَ الشَّــهْرَ الْحَـرامَ وَلا الْهَــدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَــرامَ يَبْتَغُــونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْـواناً وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْـطادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

---

1 [بالعقود] : عقود جمع عقد وهو كل التزام وميثاق بين جانبين.
[بهيمة] : البهيمة من الإبهـام ، ويـراد بها كل دابة ، وسـميت بهيمة لأنها أبهمت.
2 [شـــعائر] : الشـــعائر جميع شـــعيرة ، وهي أعلام الحج واعماله واشتقاقها من قولهم :
شعر فلان بهذا الأمر إذا علم به.
[القلائــد] : جمع قلادة وهي ما يقلد به الهــدي ، والتقليد في البــدن أن يعلّق في عنقها شيء ليعلم أنها هدي.

الْحَرامِ أَنْ تَعْتَـدُوا وَتَعـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوى وَلا تَعـاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُـدْوانِ وَاتَّقُـوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (2) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَـةُ وَالـدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُـوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُـبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِـمُوا بِـالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْـقٌ الْيَـوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْـطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (3)

[شنأن] : بغضاء وعداوة.
3 [أهـل] : اي ما ذكر عليه غـير اسم الله ، وهو ما كـان يـذبح لأجل الأصنام.
[تستقسموا] : الاستقسام طلب القسمة.
[الأزلام] : جمع زلم وهو القدح اي السهام الـتي كـانوا يجيلونها للقمـار
[مخمصة] : شدة ضمور البطن.
[متجانف] : المتمايل للاثم ، المنحرف اليه.

ركائز المجتمع المؤمن

هدى من الآيات :

لتأمين الحد الأدنى من الحضـارة تحتـاج البشـرية الى تبادل موارد الرزق ، فيعطي كل إنسان الفائض من غذائه للآخر بدلا من اخذه الفائض من غذاء الآخرين.

وقد بدأ القرآن سـورة المائـدة الـتي خصصت لتنظيم الحياة الاجتماعية العامة بتقرير مبدأ الوفـاء بـالعقود حيث انها تنظم علاقات الأفراد الضرورية لتعاونهم في التجارة.

وقد تعيش مجموعة من الناس بغير مناهج ـ اقتصادية ، اجتماعية ، سياسية ، خلقية ـ ، ولكنهم كمجموعة يكاد لا يجتمعون بدون تبادل تجاري.

ولكن مبـدأ الوفـاء بـالعقود يجب ان يكـون في اطـار النظام الاقتصادي العام للإسلام.

لذلك تحدث القـرآن عن المباحـات والمحرمـات فـور حديثه عن العقود وقال ان بهيمة الانعام حلال والصـيد في الإحرام حـرام ، كما يحـرم شـعائر الله والشـهر الحـرام ، والهـدي والقلائد ، ويحـرم إيـذاء من يقصد الـبيت الحـرام لغـرض التجـارة أو الحج ، وكـذلك الاعتـداء على الآخـرين حتى ولو كانوا هم البادئين.

ثم يــبين بالمناســبة ضــرورة التعــاون لتحقيق الخــير للمجتمع ولتطبيق نظام الله الذي فيه السعادة.

وعــاد الى الحــديث عن بعض المحرمــات مثل الميتة والـــدم ولحم الخـــنزير ، وبين ان من الضـــروري تجنب العادات الجاهلية دون خوف ، لان الدين كامل لا نقص فيه ، وفي حالة الضـرورة يجـوز الانتفـاع بالمحرمـات ، ولكن بقـــدر الضـــرورة ومن دون الانحـــراف الى المحـــرم ولو نفسيا.

بينات من الآيات :

الوفاء بالعقود :

[1] يجب الوفـــــــاء بالعقد أي تطبيقه تطبيقا تاما ، حسب ما تراضى عليه وتعاهــدا به الطرفــان والعقد : هو العهد والميثــاق أو هو الالــتزام المتبــادل حيث يلــتزم كل طرف بشيء في مقابل التزام الطرف الثاني بما يقابله.

ومبدأ وجوب الوفـاء بالعقد وجوبا شـرعيا ، لأنه يلـزم صاحبه حقا من حقوق المجتمـع. ان هـذا المبـدأ يجعل كل عقد مشـروعا سـواء كـان تجاريا أو غـيره ، وسـواء كـان عقدا معروفا بين الناس في عهد الإسلام الاول أم لا ، كما يجعل هـذا المبـدأ التشـريع الاسـلامي يـواكب تطـورات الزمن.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**)

ولعلنا لا نجد في كتب القــانون والفقه كلمة مــوجزة كهذه الكلمة تفيض بعشـرات الأحكـام والقـوانين العامة ، وربما جاء التعبير ب «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**».

للايحاء بأن الوفاء بالعقود يدخل ضمن ركائز المجتمع المؤمن ، وكأنه يقول : ايها المجتمع المؤمن عليك الوفـاء بالعقود.

ومبدأ الوفاء بالعقود يوحي بحرية التجــارة الا ان بقية الاية تحــدد هـذه الحرية باطـار التشـريع الاسـلامي العـام الذي يحل أشياء ، ويحرم اخرى.

(**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ**)

أي الانعــام الــتي لا تفهم شــيئا ، هي حلال عموما إلا بعض المستثنيات.

(**إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ**)

ومن هذه الاستثناءات :

(**غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**)

اي الاصطياد في حالة الإحرام ، اما الصــيد في غيرها فهو جائز ويوجب الملكية.

(**إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ**)

وعلينا الا نتصـور أننا أحـرار في شـؤوننا نختـار النظم التي تعجبنا .. كلا. فالحاكم هو الله وحده.

إذا هناك حرية وانطلاق في الإسلام في حرية التعامل التجاري وحيازة المباحـات ، ولكن في حـدود الارادة العليا لخـالق الكـون ، والمصـلحة العليا للانسـانية وفي الآيـات تفصيل مبين لهذه القضايا.

أنواع الأحكام :

[2] ما هو الحكم الذي يفرضه الله حسبما يريد؟

يضــرب الله لنا مثلا واقعيا لهــذا الحكم فيقــول : ان احكام الله الاجتماعية نوعان :

الف / هناك احكام تحافظ على أمن الناس ، وتصــون حــريتهم ، وتعطي لكل إنســان فرصة للانطلاق وذلك مثل اقامة أماكن حرة تنحسر عنها الاعتداءات بـاي مـبرر كـان فلقد جعل الله ـ الكعبة البيت الحرام ـ وفرض فيه السلام والأمن ، واعطى الحرمة والحصـــــانة لكل من دخله لكي يســتطيع القــادمون من تبــادل التجــارة وتــداول الأفكــار والتعارف على بعضهم ، وبالتالي التعاون في سبيل الخير.

ان الهدف من هذا النوع من الأحكام هو حفظ النـاس من شرور بعضـهم وفسح المجـال أمـام كل الطاقـات ان يساهم في بناء المجتمع.

بــاء / وهنــاك نــوع من الأحكـام تنظم علاقة الإنســان بالطبيعة والهدف منها صـيانة البشر من أضــرار الطبيعة ، وذلك مثل حرمة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أشبه.

وعن النوع الاول يحدثنا الله سبحانه قائلا :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ**)

اي لا تجعلوا الشـعيرة الـتي جعلها الله حراما ، إحلالا والشـعيرة هي البهـائم الـتي تسـاق الى بيت الله يحـرم الاعتـــداء عليها بالســـرقة أو النهب ، أو انها الحج نفسه وفيما يلي توضيح ذلك

(**وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلائِدَ**)

اي لا يعتدي بعضـكم على بعض في الشـهر الحـرام ، ولا يسرق أو ينهب أحدكم الهدي الذي اختص بالكعبة ، ولا تـأكلوا البهـائم الـتي تقلد برقابها قلادة للدلالة على انها تساق الى بيت الله.

غـرض كل هـذه الأحكـام هو تبـيين حرمة الكعبة على النـاس ، وهي مقدمة لفـرض جو من السـلام على ربـوع تلك البلاد المقدسة ، وعلى الطـــرق المؤدية إليها من كل أفق بعيد ، لذلك قال الله بعدئذ :

(**وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ**)

اي الذين يقصـدون زيـارة الـبيت الحـرام ، فلا تعتـدوا عليهم ولا تحلــوا حـــرمتهم ذلك لأنهم يهـــدفون رزق الله ورضاه.

(**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً**)

اي انهم لا يريـدون سـلب أمـوال النـاس ولا الاعتـداء على حقـــوقهم ، بل يريـــدون الحصـــول على رحمة الله المتمثلة في حيـازة المباحـات ، أو التبـادل التجـاري ، كما أنهم لا يهدفون الخروج على الانظمة الاسلامية بالحصــول على مكاسب غير مشروعة بل يبتغـون رضـوانا من الله ، من هنا نعرف ان الذين يقصدون من وراء

الحج أكل أمــوال النــاس بالباطل أو مخالفة احكــام الله فإنهم لا حرمة لهم.

ان الطبيعة واســعة وبإمكــان الجميع ان ينتفعــوا بها دون مزاحمة الآخــرين ، وإذا اســتل من قلــوب النــاس الأحقاد وروح الاعتداء ، استطاع الجميع الاستفادة من نعم الله. بيد ان هـذه الأحقـاد تـأتي عـادة بسـبب ردة الفعل ، فكل طـرف يتصـور انه ليس هو المبتـدء بالاعتـداء وانما يقتصّ ممن أعتـدوا عليه باعتـداء مماثل وهـذا هو الـذي يقف حاجزا امام تعاون الجميع.

وعلى الجميع ألّا يدفعهم الاعتداء على مضـاعفة الـرد (الصـاع بصـاعين) ، ولا ان يخـرجهم من حـدود العدالة ، وانئذ فقط يمكن للجميع أن يتعاونوا.

(**وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا**)

ان الله جاء بهذا التمهيد لتوجيه الإنسـان الى نعم الله الواسعة ، وإبعادهم عن النظر إلى أمـوال بعضـهم ولـذلك لم يلبث ان قال :

(**وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ قَــوْمٍ أَنْ صَــدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا**)

اي لا يحتم عليكم اعتــداء الآخــرين عليكم مقــابلتهم بالمثل ، وذلك بــــأن تعتــــدوا عليهم قصاصا على أنهم منعوكم عن المسجد الحـرام ردحا من الـزمن. كلا ... ان شـنآن هـؤلاء وعـداوتهم لكم يجب الا تخـرجكم عن اطـار العــدل بل العكس من ذلــك. عليكم ان تهــدفوا تحقيق التعاون.

التكتّل الايماني :

(**وَتَعـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوى وَلا تَعـاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ**)

هنالك تكتلات عدوانية الهـــــدف منها ظلم النـــــاس واستغلالهم مثل تكتل التجار المحتكرين ضد المســتهلكين ، وتعــاون الانظمة الجــائرة ضد الشــعوب المستضــعفة ، وهذه لعنة سوداء ..

وهناك تكتلات تهدف إشاعة الخير ، وتطـبيق النظـام. أما إشاعة الخير ـ فهي الـبر ــ وليس الـبر أن تسـعد على حساب غيرك ، بل أن تسعد ويسعد الجميع معك.

وأما النظام وتطبيقه فهو التقوى إذ هو الحذر من الله ، واتقاء بلائه ، وهو لا يكون إلا بتطبيق نظامه الـذي أوحى به إلى رسله ، ومراعاة ســننه الـتي أركزها في الطبيعة ، وبتعبـير أخر يجب أن يكـون الهـدف من التعـاون اشـاعة الخير ومقاومة الشر أنى كان مصدرهما.

ويضع القـــــرآن في مقابل الــــبر الإثم ، وفي مقابل التقـوى العـدوان فـالإثم هو الحصـول على أمـوال النـاس بالخديعة (الغش ـــ الســرقة ـــ الاحتكــار ـــ التعــاون مع السلطات الجائزة ـ الحلف الكاذب).

بينما العدوان : هو الاستيلاء على حقوق الناس بالقوة ، وبلا أي غطاء.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

ومن أنواع عقابه الشديد أن يضرب بعضــكم ، بعضا ، ويشــعل بعضــكم نــار حــرب بعض على بعض فيحــترق الجميع.

أو إنكم بتحالفــاتكم العدوانية يخشى بعضــكم بعضا ، فيتوجه الجميع الى صـــناعة الســـلاح ويضع الميزانيـــات الرهيبة لغرض التدمير ، فتمتص ميزانيات التسلح ثرواتكم وتحرق جذور السعادة والرفاه ، فتصــبحون على ما فعلتم نادمين.

أو ليس هذا بعض ما يعيش فيه العالم؟!
أفلا يرجعون الى هدى الله؟! والى متى؟!
[3] لكي يسعد المجتمع لا بد ان تنظم علاقاته ببعضه على أساس ثابت من العدل والتعاون ، كما لا بد أن تنظم علاقته بالطبيعة بحيث لا تضره شـرورها. وقد بين القـرآن في هــذه الاية جانبا من تنظيم علاقة الإنســان بالطبيعة ، وبالذات جانبا من العادات المحرمة التي كانت شـائعة في المجتمع الجاهلي انئذ فقال :

(**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ**)

لأنها كلها تضر بصحة الإنسان.

(**وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ**)

اي كل ذبيحة ذبحت على غير اسم الله.

(**وَالْمُنْخَنِقَةُ**)

الذبيحة التي قتلت خنقا وليس ذبحا.

(**وَالْمَوْقُوذَةُ**)

وهي الـتي ضـربت بآلة غـير حـادة حـتى مـاتت (كـأن ضربت بصخرة).

(**وَالْمُتَرَدِّيَةُ**)

التي وقعت من عال فماتت.

(**وَالنَّطِيحَةُ**)

التي نطحتها البهائم حتى ماتت.

(**وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ**)

وما تبقى من فضــلاته الا إذا جرحها الســبع وقبل ان تموت استطعتم ذبحها بالطريقة الشرعية.

(**وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**)

من أجل إرضاء الأصـنام الـتي لا تضر ولا تنفع فعليكم اجتنابه لأنه يمتزج بعبادة الأصنام ، وبالتالي بالشرك.

(**وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ**)

تلك العادة الـتي كـانت في الجاهلية حيث كـان يجتمع طائفة من الناس ويساهمون في شراء شاة ثم يقسمونها بينهم لا حسب ســـــهامهم بل حسب الأزلام حيث توضع أخشــاب مختلفة في كيس أو في بطن صــنم ثم يســحب كل واحد نصيبه ، فاذا خـرجت له خشـبة معينة يأخذ نصف الذبيحة ، وإذا خــرجت اخــرى لا يأخذ منها شــيئا ، أو يأخذ الرأس فقط ، وهذا نوع من أنواع القمار المحرم.

ان الذبيحة تحرم في هـذه الحالة إذا كـانت قد ذبحت باسم الصنم الـذي يقـترع في بطنه على نصـيب كل واحد من المشركين.

(**ذلِكُمْ فِسْقٌ**)

وعمل محرم يخـرج الإنسـان عن حـدود التقـوى ، بل عن حدود الايمـان إذا كـان بهـدف التقـرب الى الأصـنام ، وبالتالي إذا كان العمل ذا خلفية شركية.

وإذا كـان الجـاهليون قد تعـودوا على هـذه العـادات السيئة فعلينا مقاومتهم وإياها ، وعـدم التنـازل لهم فيها ، ذلك لأن خطا واضـحا قد رسم بيننا وبينهم فقد يئسـوا منا ونحن بـدورنا لا يجب أن نـداهنهم ، ولا نتنـازل عن بعض واجباتنا استسلاما لهم.

علينا ان نعـــرف ان ديننا كامل لا نقص فيه ، فلما ذا نرجع للعادات الجاهلية للاخذ منها.

(**الْيَـــــوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَــــرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**)

الإسلام هنا بمعناه اللغوي الذي استخدمه القـرآن في سـائر الآيـات بمعـنى التسـليم لله ولمناهجه وانه دين الله الذي ارتضاه لنا ويتجسد في تقـوى الله ، واتبـاع مناهجه ، وفي طاعة رســول الله وأولي الأمر من بعـــده الـــذين يشكلون الامتداد الرسالي والطبيعي لخط الله والرسول.

وبما ان سورة المائدة جاءت بعد سـور القـرآن كلها ، فـان قضـية تكميل الـدين طـرحت فيها ، وبـالطبع تكـون قضـية القيـادة الاسـلامية هي أبـرز وأهم القضـايا المعلقة الـتي كمل بها الـدين بعد نـزول سـورة المائـدة ، وعـرف النـاس ان الائمة المعصـومين عليهم السـلام هم القـادة الرسـاليون للأمة سـواء حكمـوا البلاد سياسـيا أم لا ... وسواء قاموا بمصالح الأمة العليا أم لم يقوموا.

بيد أن القيادة لا تعني شـيئا في منطق الإسـلام لو لم تنفصل عن رواسب الجاهلية ، بل لو لم تتحد الجاهلية بشجاعة ومن دون خشية ، وتطبق تعاليم الإسلام.

لذلك جاءت الاشارة الى القيـادة ضـمن الحـديث عن طائفة من عـادات الجاهلية الـتي نسـفها الإسـلام ليعطي للقيادة بعدها الرسالي بحيث يجعلها لا تنفصل عن منــاهج الدين ، فلا يعترف الإسـلام بقيـادة لا تطبق هـذه المنـاهج وان اختفت تحت غطــــاء كـــثيف من الكلمــــات الدينية والشعارات الرسالية.

(**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

أي إن الحالة الواحـــدة الـــتي يجـــوز فيها الاكل من البهـــائم الميتة المحرمة هي حالة الاضـــطرار ، حين تعم المجاعة البلاد ، فيجوز الاكل منها بقدر الاضطرار بحيث لا يجوز ان يميل الى أكل الميتة ميلا نفسيا ، بل يظل يعرف ان الاضـــطرار هو الســـبب في أكل الميتة فمـــتى رفع الاضطرار استطاع بسـهولة ان يقلع عن أكلها الميتة ، لأنه لم يتعود (لا أقل نفسيا) عليها.

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (5)

الضوابط القانونية في العقود

هدى من الآيات :

في ذات الــوقت الــذي يحــرم الإســلام طائفة من الأشـياء ، لا يريد ان يكبل البشر بهـاجس الحرمة ، فيجمد عن الانطلاق والعمل ، لذلك يسد عليه أبواب الحـرام ، ثم يفتح أبوابا اخـرى ويـدفعهم الى ولوجها ففي هـذا الـدرس يحلل الإسلام الطيبات بوجه عام فالقاعـدة الأساسـية هي حلية الطيبات الا ما استثني مما جاء فيه نص.

والأدوات الـتي تسـتخدم في الحصـول على الطيبـات هي الاخرى يجب أن تكـون حلالا الا ما يتلى ومنها : أدوات الحيازة كـالكلاب ووسـائل التجـارة ، أو كالتجـارة مع أهل الكتاب ، فكلاب الصيد يجوز أكل ما أمسكن به من الأحياء بشرط أن يذكر الصياد اسم الله عليه.

كما يجوز التبـادل التجـاري مع أهل الكتـاب للحصـول على منــافع مشــتركة ، ليس هــذا فقط بل حــتى المتعة الجنسية غير المحرمة ، إلا في حدود معينة فيجوز

التمتع بالنسـاء العفيفـات سـواء كن من المؤمنـات أو من أهل الكتـــاب بشـــرط أن يلـــتزم كل طـــرف بواجباته ، فالزوجة تحصن نفسـها ولا يتبعها لقـاء ذلك أجر ، والـزوج يؤدي أجورها بالكامل.

إذا فـــدين الله ليس دين الجمـــود ، ولا دين الكبت والإرهاب ، بل هو دين النظافة والتوجيه.

بينات من الآيات :

كل شيء طّيب الّا :

[4] الجهل يدعو صاحبه الى التطرف يمنة أو يسره ، كما إذا ، ضل شـــخص في الصـــحراء وجهل الطريق فانه ينحرف عنه ذات اليمين وذات الشمال.

وليس بامكانه من دون العلم ان يلـــتزم بـــالطريق المستقيم ، ولقد كانت الجاهلية تعيش بين خطي الفوضى المطلقة ، حيث لا شيء حرام عنـدهم ، كما كـانت الحـال عند عرب الجزيرة غالبا حيث خط (الجمود المطلـق) فهم يحرمون على أنفسهم طيبات الدنيا (كما كانت الحال عند بعض المسيحيين والمترهـبين من العـرب) وجـاء الإسـلام بـالقول الفصل ، فحـرم ما يضر البشر صـحيا أو خلقيا أو اجتماعيا ، وحلل الطيبات وجعل القاعدة الأساسية أن كل شيء طيب حلال حتى تعلم حرمته بالذات.

وسائل الكسب :

والطيب هو كلما يستطيبه العقل السليم.

(**يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ**)

وسـألوا عن بعض الوسـائل الـتي يحصـلون بها على الطيبات ، فأجاب القرآن عن وسـيلتين إحـداهما : نمـوذج لوسـائل الحيـازة والاسـتفادة من الطبيعة ، ولكنه نمـوذج يثير الشك ويدعو الى التساؤل إذ أنه غـريب على الطبيعة وهو صيد الكلب.

فهل يمكن استخدام الحيوانات في حيازة المباحـات ، والكلب بالذات حيوان نجس ومكروه في الـدين فهل تحل ذبيحته؟

وحين أجاب القرآن عن هذا التسـاؤل بالإيجـاب تـبين أن الطرق الاخرى التي قد تستخدم في حيـازة المباحـات طرق مشروعة (كاستخدام اليد أو الآلات الحادة كالسكين أو الحيوانات المحببة الاليفة وما أشبه)

والثانية : وسـيلة من وسـائل التعـاون في الحيـاة ، وتبادل المنافع والتجارات وهي أيضا وسيلة قد يثـأر حولها بعض التساؤلات :

هل يجوز التعامل التجاري مع أهل الكتاب أم لا؟

فلما أجاب القرآن بالإباحة تبيّن بـالطبع حرية التجـارة مع كافة المسـلمين. هكـذا خصصت هـذه الآيـات عن ضـرورة التخلص من الرهبنة ، واتخـاذ كل شـيء حراما ، بل بالعكس كل شيء حلال ، حتى يتلى فيه نص صريح.

(**وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَـوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُـونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ**)

فهذا إرشاد بان تعليم الجـوارح ليس فقط مباحا ، بل ومستحبا أيضا ، لأنه يساعد على رفاه الإنسان.

(**فَكُلُـوا مِمَّا أَمْسَـكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُـرُوا اسْـمَ اللـهِ عَلَيْهِ**)

بأن يذكر الصياد اسم الله حين يبعث كلبه.
(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ**)
[5] وإذا كانت الطيبـات أو بعضـها محرمة على بعض أهل الكتاب بسبب سوء أفعالهم ، وظلمهم لأنفسهم فانها قد أحلت لكم حيث انتهى السبب الداعي الى التحريم.
(**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ**)
والوسـيلة التجارية الـتي تحصـلون بها على الطيبـات محللة لكم هي الاخـرى حـتى ولو كـانت التجـارة مع غـير ملتكم مثل (أهل الكتاب).
(**وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتـابَ حِـلٌّ لَكُمْ وَطَعـامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**)
وبالرغم من ان الطعام يعم الحبوب والفواكه ويشمل الذبيحة والمطبوخـات الجـاهزة للأكل ، بـالرغم من ذلك فـان سـياق الآية يـدل على التبـادل التجـاري ، والتبـادل التجاري لا يكون عادة الا في المأكولات غير الجـاهزة مثل الحبوب والبهـائم غـير المذبوحة ، اما المـأكولات الجـاهزة فهي قليلة التداول خصوصا في ذلك الوقت.

والمحصنات من أهل الكتاب :

(**وَالْمُحْصَـنـاتُ مِنَ الْمُؤْمِنـاتِ وَالْمُحْصَـنـاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**)
اي يجوز لكم التمتع بهن في عقد دائم أو عقد مؤقت والجنس ليس خسة أو خبثا ، أو حالة بهيمية عند البشر ، كلا ان الجنس لذة طيبة هيأها الله للإنسان.

ولكن يجب ان يكون التمتع بالجنس في حدود الشرع المقدس.

فـأولاد : يجب ان تكـون المـرأة محصـنة (أي عفيفة ، أحصــنت فرجها ، وصــانت كرامتهــا) ومن جــانب ثــان : أحصنها زوجها أي جعلها في حصن اللذة المشروعة حــتى لا تفتش عن لذة حرام.

ثانيا : أن يلتزم الزوج بـأداء حقوقها ، وبالـذات مهرها الذي هو أجر حصـانتها وإخلاصـها للـزوج ، وتمكينها للـزوج انى دعته إليها حاجة جنسية.

ثالثا : الا يهــدف الــزوج من وراء العلاقة مع المــرأة السفاح ، وضياع مـاء الحيـاء ، والتلـذذ بالمقاربة الجنسـية لفــترة محـــدودة ، بل يكـــون هدفه بنـــاء حصن الزوجية الرصـــــينة حيث يحافظ كل واحد على حقـــــوق الثـــــاني وحرماته.

رابعا : الا يكــون الهــدف من وراء العلاقة الصـــداقة المائعة ، حيث يـــــوفر كل واحد لصـــــديقه الجنس مقابل توفير الثاني له ذلك من دون التزامات قانونية محـدودة ــ كلا ـ يجب ان يكون تراضي الطرفين على أساس الأحكام الشرعية وبالتعهد على الالتزام بها.

انك قـادر على تبـادل الهـدايا مع اصـدقائك أو أقاربك لأن ذلك التبادل لا يؤدي إلى الخلاف والنزاع ، ولا يضعضع علاقاتك الاجتماعية الأخـرى ، ولكن لا يجـوز لك أن تبـادل امـــــرأة اجنبية الحب والجنس كهدية متقابلة لان الجنس قضـية هامة في حيــاة البشر ، وركن اساسي من أركــان التعاون الاجتماعي فلو سمح لنا القانون بان يكون الجنس حسب أهـــواء الطـــرفين ، ومن دون الضـــوابط القانونية لكانت نهايته تفكيك عروة من العرى الاجتماعية ولتزلزلت أرسخ قاعـــدة من قواعد التماسك الاجتمـــاعي ، من هنا فرض الإسلام أحكاما في العلاقة الجنسية ، وأمر

بان يكون ترابط الطرفين بينهما على أساس هذه الأحكام ، وليس لمجرد الصداقة واتخاذ العلاقة كهدايا متبادلة.

(**إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسـافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ**)

واعتـــبر القـــرآن الخـــروج عن هـــذه الانظمة بمثابة الخـروج عن الـدين ، إذ أن الفكر ليس قـولا انما هو عمل وسلوك.

الايمان قول وعمل :

(**وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**)

اي من يكفر بعد ان كـــان مؤمنا ، أو مع التظـــاهر بالايمــان فــان اعماله الصــالحة غــير مقبولة عند الله بل تحبط وتقذف في وجهه ، ولا تنفعه شيئا.

(**وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

فلا يظن أحد ان بإمكانه الجمع بين العقيدة الصـحيحة ، والعمل الفاسد ، إذ أنه ســـــــوف يؤخذ بعمله ولا يؤبه بعقيدته التي يدعي أنه يلتزم بها فكريا.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

التطهر واجب اسلامي

بينات من الآيات :

[6] تـأتي آية التطهر في إطـار الحـديث عن المجتمع الاسلامي للدلالة على الجـانب الاجتمـاعي في الطهـارة ، ولبيــان العلاقة بين طهــارة القلب وطهــارة الجسد ، وقد رأينا في سـورة النسـاء كيف جـاءت اية التطهر (43) بعد ايــات النهي عن البخل والريــاء ، وقبل ايــات النهي عن تحريف الدين.

وهنا جــاءت هــذه الآية في ســياق النهي عن طائفة اخــرى من المنكــرات بينها الزنا ، فكــان الحــديث عن الوضــوء والغسل مناســبا لطبيعة العلاقة بين حرمة الزنا وحرمة الميتة والــدم و. و.. وتنظيم العلاقة الجنســية مما يرتبط بصــحة الجسم ، وبين الطهــارة الــتي تتصل هي الأخرى بالصـحة ، اضـافة الى العلاقة بين طهـارة الظـاهر التي تجسده واجبات الوضـوء والغسل ، وطهـارة البـاطن التي يمثلها الابتعاد عن المحرمات.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــــوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّـــــلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ**)

الوضوء :

ان الشـــرط المســـبق للتحـــدث مع الله في مراسم العبــادة ، هو التطهر وذلك بغسل الوجه مما يصــدق عليه الوجه عرفا ، وقد حــدده الفقهــاء بأنه من منــابت الشــعر الى نهاية الـــذقن طـــولا ، وبما يشـــمل عليه الإبهـــام والوسطى عرضا.

اما اليد فانها تطلق عـــادة على اي جـــزء من العضو المشهور.

ولذلك حــدد القــرآن مقــدار المغســول منها بــالمرفق على ان يكون المرفق جزء منه.

الغسل :

وقد سكت القرآن عن بيان طريقة الغسل وما يغسل به ، ولكن بما ان القـــرآن يتحـــدث الى النـــاس الـــذين يمارســون الغسل طبيعيا ، ويعرفــون كيفياته ، فــان ذلك يكفينا دليلا عن كافة التفاصيل.

شرائط الغسل :

فأولا : الغسل يكون بالماء وليس باي ســائل آخر (فلا يجوز بعصير البرتقال أو بالكحول مثلا)

ثانيا : ان الغسل يكون عـادة من الأعلى الى الأســفل لان الهـــــدف منه ان يحمل المـــــاء الوسخ في جريانه ، وبـــالطبع فالمـــاء لا يجـــري الى الأعلى بل يجـــري الى الأسفل.

من هنا يجب ان نصب المـاء اولا على الجبهة ومن ثم ينحدر على الوجه ،

كــذلك يجب ان نصــبه على المرفق ومن ثم ينحــدر الى الذراع والكفين.

كيفية الغسل :

وأتصور ان التفسير الـذي يجعل كلمة (الى) في هـذه الاية بمعــنى (نهاية عملية الغســل) ويــزعم ان بــدايتها الكفان وان الغسل ينبغي ان يكون من تحت الى الأعلى ، أتصور انه تفسير ساذج لا يتفق مع بلاغة القـرآن ، كما انه يخالف العرف العـام ... أو ليس إذا قـال الأب لابنه اغسل يــدك الى الرسغ ، هل يفهم من ذلك ان الغسل يبــدأ من الرسغ ، فلا يتصور الا بن ان والـده امـره بـان يقلب كفيه حين يغسل؟ أو ليس إذا أمرت الصـبّاغ بـان يصـبغ غرفتك الى السقف ، أو لست تضحك عليه إذا رايته يأخذ بالصــبغ من أسفل الغرفة صـاعدا الى السـقف ، بل قد تنهـاه عن ذلك لأنه يسبب تشوية الغرفة ، فاذا قال لك أنت امرتــني بان اصـبغ الى السـقف ، أو تـرد عليه بـاني انما أردت ان يكون نهاية المقـدار المصـبوغ عند السـقف؟! ولم أرد ان يكــون أســلوب الصــباغة من تحت الى فــوق ... إذ ان الأســلوب شــأنك أنت وليس من شــأني .. وأنت تعرفه جيدا.

كذلك في العرف يعـرف كيف تغسل الأشـياء ، ولكن على الشريعة ان تحدد لهم فقط المقادير.

كيفية المسح :

(**وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**)

اي امسحوا بجـزء من رؤوسـكم فتـدل البـاء هنا على ضـرورة مسح جـزء من الـرأس ، اما الرجل فبـالرغم من أنها هي الأخرى يمسح عليها ولكن القران جعل

الكلمة منصـــوبة من ناحية الاعـــراب (أرجلكم) بفتح اللام لمــاذا؟ لأنه لو جعلها مجـــرورة (أرجلكم) بكسر اللام إذا لكـان تقـديره (بـأرجلكم) ومن الطـبيعي ان هنـاك اختلافا كبــــيرا بين المسح بالرجل والمسح بـــالرأس ، فالمسح بالرجل يعــني عند العــرف جعل الرجل اداة للمسح كـأن تقول امسح برجلك الأرض فقد قال الله تعالى :

(**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ**)

بيد ان الــرأس لا يصــبح أداة للمسح فلا يتصـــور ان يكــون معــنى امسح برأسك اي اجعل رأسك اداة للمسح بشــيء أخر ، بل يتبــادر إلينا معــنى (البعضــية) اي امسح ببعض رأسك.

من هنا كــان من البلاغة ان يفتح كلمة الرّجل ليكــون المعنى (وامســحوا أرجلكم) فيجعل لفظ أرجلكم معطوفا على محل (برؤسكم) وليس على لفظه ، أو يقدر له كلمة امسحوا بدلالة السياق.

ولو قـال القـران امسـحوا بـأرجلكم لكنا نتسـاءل اي شيء نمسحه بأرجلنا ، وكأن الأرجل اداة للمسح والكعبان هما قبتا الرجل.

التّيمم :

(**وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا**)

اي اغتسلوا.

(**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَــفَرٍ أَوْ جــاءَ أَحَــدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مـاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً**)

أي توجهوا الى تراب طاهرا وارض طـاهرة لتتطهـروا بها تيمما.

(**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ**)

بـان تضـربوا أيـديكم على الـتراب ، فـاذا علقت به عالقة من الـــتراب فامســـحوا بها بعضا من وجـــوهكم ، وبعضا من أيـــديكم ، اما الوجه فهو الجـــبين والجبهة الى بداية الأنف ، أما اليـدان فتمسح الكفـان منهما ابتـداء من الرسغ حتى رؤوس الأصابع.

إن حكم التطهـير ليس الهـدف منه ابتلاء المؤمــنين بعمل شـاق ، بل الهـدف منه تطهـيرهم من النجاســات الظاهرة والباطنة.

الحرج :

(**ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**)

ان اي حكم شـــرعي يصل في صـــعوبته الى درجة الحرج (وهي الصعوبة الشديدة التي لا تحتمـل) فانه يلغى أو يبدل بما هو أخف منه فالحج والصوم والصـلاة و. و. إذا كانت تحتوي على صـعوبات جسـدية لا يحتملها ولا يطيقها الشخص فانها تخفف فيسـقط بعض واجبـات الحج ويبقى البعض فقط ، وكذلك تصبح الصلاة عن جلوس بدل القيام ، أو بالإيمـاء بـدل الحركـات ، أو انها تحـذف فيما إذا كـان الواجب لا يتحرز .. مثل الصوم ، فانه يحذف مـرة واحـدة إذا كان ذا صعوبة بالغة لا يطيقها الفرد.

وقد ضـــرب الله مثلا لهـــذه القاعـــدة الفقهية الـــتي تسمى بقاعدة (الحـرج) من واقع الـتيمم الـذي جـاء بـديلا عن الوضوء والغسل في أوقات الحرج مثل المرض أو

الـبرد القـارص ، أو قلة الـوقت لعجلة السـفر ، أو فقـدان الماء ، أو الخوف من عدو قاهر ..

ونسـتطيع ان نسـتأنس بهـذه الأمثـال الـتي سـاقها القرآن الحكيم هنا في تفصيلات قاعدة الحــرج وتعميماتها على الأحكام الجزئية الأخرى.

انهم أناس يتطهرون :

(**وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

الهــدف من الغسل والوضــوء أو الـتيمم هو طهــارة الجسد ، وطهارة الروح ، والجسد يطهـره المـاء والـتراب اما الروح فانها تتمـرغ في أو حـال الشـهوات فتحتـاج الى ان تتطهر بتجدد الايمان ، وعمليات التطهـير هي رمز هـذا التجدد. كيف؟

الرجل ينام ويلبي بـالنوم حاجة جسـدية ملحة ، ولكن روحه وغـير راضـية عن ذلك ، إن الـروح تتطلع الى عمل دائب ، وجهد مستمر لتحقيق مزيد من أهدافها في فرصة العمر لذلك فحين يقوم المرء من النوم يجد روحه كسولة غير راضية ، فيـذهب الى المـاء ويتطهر اسـتعدادا للصـلاة بهــدف تحقيق مرضــاة الله في العمل بواجبــات الــدين ، وبالتـالي في تحقيق اهـداف الـروح ، فـيرفع الكسل عن روحه بــذلك ، ويجد أن روحه بــدأت تســير في الاتجــاه الصحيح.

ان قيمة التطهر الروحية آتية من انه مقدمة وتمهيد للواجبات واستعداد نفسي لها.

والله حين يبين حكم التطهر فانما يكمل الدين بذلك ، ولا يـدع الـدين مرتبطا بـالجوانب المعنوية فقط ، بل بكل الجوانب وهذا من تمام نعمة الله على الإنسان ،

ولكن هل يشكر البشر ربه بهـذه النعمة التامة المتجسـدة في دين كامل أنزله اليه ، وهل يعمل به حــتى يســعد في الدارين. هذا السؤال؟! ومنك الاجابة.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَـوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْـطِ وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـــالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِــرَةٌ وَأَجْـــرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ

---

8 [ولا يجــرمنكم] : جــرمت وأجــرمت بمعــنى واحد لا يجــرمنكم : لا يدخلنكم في الجرم ، كما يقال آثمته اي أدخلته في الإثم.

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللـهَ وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)

الميثاق

هدى من الآيات :

بين الرب والعبد :

بين الإنسان المسلم وبين الله ميثـاق اجتمـاعي عليه ان يلتزم به لأنه سبب مباشر لنعمة الله عليه ، ونصـره له ، والالتزام يجب ان يكون نابعا من القلب فلا يداخله تـردد أو نفاق.

اما بنود هذا الميثاق فهو :

اولا : العمل الـــــدائب من أجل الله من دون كلل أو كسل.

ثانيا : الشهادة بالقسط لا بالزور ولا من أجل مصــالح خاصة.

ثالثا : اقامة العدل في المجتمع حتى مع الأعداء.

رابعا : التقــوى في تطــبيق هــذه البنــود وغيرها من فرائض الدين.

وبالالتزام بهذه البنود يمنح الله المؤمـنين مغفـرة منه تمحي ذنـوبهم السـابقة ، وتعـرض عن تخلفهم وتكاسـلهم في الماضي ، وتفتح لهم آفــاق التقــدم والرفــاه ، بينما العكس يورد الجحيم.

تطبيق الميثاق :

ولكي نطبق الميثاق بـدافع قـوي علينا ان نتـذكر أبـدا أن تطبيق هـذا الميثـاق في السـابق هو الـذي خلصـنا من براثن العدو بعد ان امتدت إلينا ، وفي المسـتقبل سـيكون الوضع كــذلك لو آمنا بالله ، وتوكلنا عليه ، ولم نخضع لأية ضــغوط جاهلية تمنعنا عن تطــبيق منــاهج الــدين وفي طليعتها الميثاق المقدس.

بينات من الآيات :

الرسالة :

[7] أكــبر نعم الله على الإنســان نعمة الرســالة ، إذ أنها الاداة الـتي تمكن البشر من الانتفـاع بسـائر نعم الله عليه ، فمن دون منـــاهج الــدين لا ينتفع البشر من نعمة الصـحة ، بل يفسـدها بارتكـاب الموبقـات ولا ينتفع بنعمة العقل ، بل يدسه في تــراب الشــهوات ، ولا ينتفع بنعمة الحرية بل يكبلها بـــــأغلال الشـــــرك ، وعبودية الجبت والطاغوت.

من هنا يــذكرنا الله بالنعمة الكــبرى (نعمة الرســالة) التي وفرّت لنا فرص الانتفاع بنعم الحياة ، يذكرنا بها مرة بعد مرة فيقول :

(**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**)

بيد ان هذه النعمة بحاجة الى ما يكرسها وهو الميثاق الـــذي تعهـــدنا مع الله في العمل به فمن دون الالـــتزام بالميثاق لا نقدر على الاستفادة من نعمة الرسالة.

(**وَمِيثاقَـــهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِـــهِ إِذْ قُلْتُمْ سَـــمِعْنا وَأَطَعْنا**)

لا بد ان نتـذكر يـوم الميثـاق حـتى لا نتصـور أن نعمة الرسالة وما وراءها من نعم الحياة سـوف تبقى لنا أزلية ، كلا ... انما تبقى لنا ما دمنا ملـــتزمين ـــ نحن بـــدورنا ـــ بالميثاق وذلك هو التقوى.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

فأيّة نية لنقض الميثـــاق ترصد من قبل الله ، ويؤآخذ صاحبها عليه أخذا شديدا.

بنود الميثاق :

[8] لهذا الميثاق بنود ثلاث :

الأول : العمل النشـــــــيط من أجل الله ، فعلينا ألا نتـــــــوانى عن تنفيذ واجباتنا الدينية ، أو مســـــــئولياتنا الاجتماعية.

ان الله لا يحب الامة الكســـولة المتخلفة الــــتي لا تنشط في الحيــاة ، كما لا يحب الأمة الــتي تنشط لا من أجل الله بل من أجل مصالحها العدوانيـة. إن الله يريد منا ان نكـــون مجتمعا دائم الحركة والفعالية ولكن باتجـــاه الأهداف السامية ، وهذا معنى أن نكون كما قال الله :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ**)

أي أن نبـــالغ في القيـــام من أجل تحقيق أهـــداف الرسالة المتجسدة في عمارة الأرض ، وإشاعة الخير في أرجائها.

الثـاني : أن تكـون الأمة واعية لـذاتها ، ولما يجـري حولها ، وتمتلك موقفا ســليما ، وتعلن عن هــذا الموقف بإصرار.

فالأمة الـتي يلفها الجهل والغيبة عن الحيـاة ، والأمة الـتي لا تملك المقيـاس الصـحيح لتقـييم أحـداث الحيـاة ، والأمة الـــتي لا تعلن عن مواقفها الســـليمة. انها ليست الامة التي يريدها الله والتي يقول عنها :

(**شُهَداءَ بِالْقِسْطِ**)

ذلك لان الشهادة لا تكـون إلا بعد العلم بالحقيقة وبعد الاستعداد لإعلان الموقف منها.

الثالث : يجب ان تكون الأمة عادلة حتى مع اعـدائها ، ولا تنمو فيها الحساســيات العدائية ضد هــذا أو ذاك ، ولا تنجر وراء هذه الحساسيات في سلب حرية الأمم الأخـرى ونهب خيراتها.

(**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْـدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى**)

العدل هو أقرب وسـيلة لتحقيق مرضـاة الله ، واتقـاء عذابه ، أما الظلم فهو أقرب طريق الى النار.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

مكتسبات تنفيذ الميثاق :

[9] وبسبب تنفيذ بنود الميثاق تجازى الامة بجائزتين.

الاولى : إصلاح ماضيها السيء ، وتصفية رواسب هـذا الماضي.

الثانية : ضمان مستقبلها الحافل بالخيرات في الحياة الدنيا وفي الاخرة.

(**وَعَـدَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**)

والله لا يخلف وعـده وقد جـاءت كلمة (لهم) تأكيـدا على أن الله قرر هـذا الجـزاء لهـؤلاء قـرارا نهائيا لا رجعة فيه.

[10] اما من خـالف هـذه الصـفة فبـدلا من الايمـان الكفر ، وبـدلا من تطـبيق منـاهج الإسـلام بالعمل الصـالح التكـذيب بهـذه المنـاهج المنزلة في آيـات القـرآن وبـذلك فانه من المقيمين في الجحيم.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ**)

[11] ان نعمة الايمـان تسـتقطب سـائر النعم وفي طليعتها نعمة العـزة والمنعة ، ولقد كـانت العـرب في الجاهلية أذلاء يطمع فيهم كل دنيء ورديء فجـاء الايمـان ونفخ فيهم روح الشـجاعة والوحـدة ، فانتصـروا على أعدائهم.

اننا يجب أن نتـذكر دائما كيف كنا قبل الايمـان أذلاء وكيف أصـبحنا أعـزة ، ذلك لان هـذا التـذكر يجعلنا نعـرف أكـثر فـأكثر قيمة الايمـان ، وننـدفع الى العمل بواجباته وفروضه ، ومن أبرزها العمل ببنود الميثاق الآنف الذكر.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ**

(أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ)
لان الله قذف في قلوبهم الرعب فتولوا هاربين.

سبيل الانتصار :

(وَاتَّقُوا اللهَ)
بتطبيق مناهجه ، وتنفيذ الميثاق الذي بينكم وبينه.
(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)
فلا يخشـون القـوى الاجتماعية المناهضة ان تنحـرف بهم عن العمل بمسـؤولياتهم كأمة رسـالية ، بل يسـتمروا على طريق الحق برغم ضغوط الأعداء.

ان العامل الاساسي الــذي ســوف يحسم الصـــراع القائم بين الجاهلية والإسلام هو الخـوف ، فـاذا اسـترهب الجاهليون جانب المسلمين انهزموا ، وهذا ما كان يحــدث دائما اما إذا تمكن الخوف من قلوب المؤمنين فان العــدو ســيهزمهم ، وتقــوى الله (بتنفيذ برامجــه) والتوكل عليه (بالشـجاعة والاقـدام) هما اللــذان يطـردان الخـوف من الامة ويقذفان به في قلوب العدو.

وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقالَ اللـهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَـناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَـيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ فَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذلِـكَ مِنْكُمْ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـواءَ السَّـبِيلِ (12) فَبِما نَقْضِـهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً

---

12 ميثاق : اليمين المؤكدة لأنها يستوثق بها من الأمر.
نقيبا : أصل النقيب في اللغة من النقب وهو الثقب الواسع ، ونقيب القـــوم كالكفيل والضـــمين ينقب عن الأســـرار ، ومكنـــون الإضـــمار ، والنقاب الرجل العالم بالأشياء الزكيّ القلب الكثير البحث عن الأمور.
عزرتموهم : التعزير التوقير.

يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِـعِهِ وَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَـزالُ تَطَّلِـعُ عَلى خائِنَـةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْـفَحْ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ (13) وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَـذْنا مِيثـاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَـداوَةَ وَالْبَغْضـاءَ إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ وَسَـوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللـهُ بِما كـانُوا يَصْنَعُونَ (14)

---

14 فأغرينا : معـنى الإغـراء تسـليط بعضـهم على بعض ، وقيل معنـاه التحريش وأصله اللصوق ، ويقال غريت بالرجل غريا إذا لصقت به.

الامة التي نقضت ميثاق ربها

هدى من الآيات :

بعد ان بين القـران في حديثه السـابق أهمية الميثـاق وضرورة الالتزام ببنوده عاد ليضـرب مثلا من واقع اليهـود الذين نقضوا الميثاق ، ومثلا من واقع النصارى.

اما اليهـود فقد أخذ الله منهم الميثـاق ، وأرسل اثـني عشر رئيسا عليهم ــ باعتبــارهم اثنــتي عشــرة قبيلة ــ وفرض عليهم في الميثاق اقامة الصـلاة ، وإيتـاء الزكـاة ، والايمان بكل الرسل والسير وراءهم ، والمبالغة في عمل الخـير ووعـدهم إنهم ان طبقـوا هـذه المواثيق ، فسـوف يغفر الله ذنــوبهم ويــدخلهم الجنة ، اما من كفر فســوف تلفه الضلالة وينحرف عن السبيل.

بيد ان اليهود نقضـوا الميثـاق ، فلعنهم الله ، وأول ما جـازاهم بنقض الميثـاق كـانت قسـوة القلب الـتي كـانت العلة في سائر المحرمات ومنها :

اولا : تحريف ايــات الكتــاب وعــدم الاســتفادة منها عمليا.

ثانيا : الخيانة التي أصبحت عادة شائعة فيهم ، ولذلك نصح الله رســوله بــأن يعفو عنهم ، ويحسن إليهم لعلهم يرجعون.

هكذا لعن الله اليهود بنقض الميثاق.

أما النصــارى : فــإنهم لما نقضــوا الميثــاق أوقع الله بينهم العـداوة فأخـذوا يتـآكلون داخليا ، ويضـرب بعضـهم بعضا ، وسوف يظلون هكذا الى يوم القيامة حيث يأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر.

إن هـذا كـان مصـير اليهـود والنصـارى حين نقضـوا الميثـاق ، ولكن دعنا نعتـبر منهم ونلـتزم بالميثـاق التزاما شديدا.

بينات من الآيات :

ميثاق بني إسرائيل :

[12] لكل أمة ميثاقها المرتبط بظروفها الحياتية وبحاجاتها التشريعية ، وبنو إسـرائيل اتخذ الله منهم ميثاقا مرتبطا بظروفهم يعالج مشاكلهم ، وأبرز مشـاكلهم الـتي لازمتهم خلال تـاريخهم كـانت مخـالفتهم لرسـلهم ، فـاذا جاءهم رسـول بما لا تهـوى أنفسـهم خـالفوه ، فقتلـوه أو كذبوه.

وكان اتباع وتعزير الرسل أهم بنود الميثاق ، بالاضافة الى اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتضحية بمزيد من المـال في سبيل الله.

هذا من جانب بني إسرائيل.

واما من جانب الله فقد وعدهم بـان يكـون معهم في الدنيا ، ينصرهم في

الحرب ، وينعم عليهم في السلم والرخـاء وأن يكفر عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم الجنة في الآخرة.

(**وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْـرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً**)

أي جعل الله لكل طائفة منهم نبيا أو قائـــدا يــــدبر شؤونهم.

لنستوجب رحمة الله :

(**وَقالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ**)

(**لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ**)

(**وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ**)

(**وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ**)

(**وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**)

البند الأخير : يعني الجهاد في سـبيل الله بالمـال وهو يختص بـــالظروف الاســـتثنائية (كحالة الحـــرب أو حالة المجاعة) حيث يجب على كل فـرد ان يتنـازل عن حقوقه المشــروعة ، ويطــوع إرادته من أجل الصــالح العــام اما الزكـــــاة فهي حق واجب على المـــــؤمن ان يدفعه في الظروف العادية.

ان الميثاق كان يأمرهم بهذه البنود ويعدهم بأن يكون الله معهم في الدنيا وان يكون جزاؤهم في الاخرة حسنا.

(**لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَـيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

وجاء في الميثاق إنذار صريح لمن لا يطبقه.

(**فَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذلِـكَ مِنْكُمْ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـواءَ السَّبِيلِ**)

وكيف حـال من يضـيع الطريق المسـتقيم ويتيه في الصحراء؟

القلب والتحريف :

[13] بيد أن أغلب بـني إسـرائيل خـالفوا الميثـاق ولعنهم الله.

(**فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ**)

فأبعـدهم الله عن حظـيرة الايمـان ، ولم تعد قلـوبهم تسـتوعب نـور معرفة الله لعظمته ، وتخشى عذابه ، وترجوا رحمته ، لم تعد نفوسهم تندفع الى الخير ، وترهب عواقب الشر ، فأصبحت قلوبهم جامدة لا تهزها متغـيرات الحياة ، ولا تؤثر فيها الأحداث ، وبالتالي أصـبحت قلـوبهم قاسية.

(**وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً**)

ان القلب يلين بالمعرفة والموعظة ويقسـوا بالجهل والغفلة .. ان معرفتك بالله تجعلك تخافه وترجـوه ، وبين الخوف والرجـاء يلين قلبك ويسـتعد للتفكـير الموضـوعي ويتقبل الحق الذي يهديه اليه تفكيرك الموضـوعي وينـدفع للعمل الذي يستوجبه الخوف والرجـاء ، القلب اللين يحب ويكـره. يحب ما يسـبب له السـعادة ويكـره ما يشـقيه فـالقلب اللين كـأرض لينة تنبت الـزرع ، وتسـتجيب للعمران.

اما إذا جهلت الحيـاة ، ولم تـؤمن بالله ، ولم تع الاخطار الـتي تهـددك ولم تعـرف المنـافع الـتي يمكن ان تأتيك فان قلبك يقسو ويصبح صلبا لا يتحرك لرجاء

ولا يهتز لخوف ، انك تشعر وكان الكون جامد من حولك ، وان ما عندك من خير ونعمة لا يزول أبدا ، وان ما بك من نقص أو عجز لا يـزول أبـدا ، فلما ذا الخـوف إذا؟ ولمـاذا الرجـاء؟ ولمـاذا التفكـير الموضـوعي؟ ، وبالتـالي لمـاذا التحرك والنشاط؟

القلب القاسي يقبع في زنزانة الذات ، ولا يرى سـببا لمعرفة الحيـاة ولا للتوافق مع سـنتها وحقائقها ، إذ أنه لا يخاف ولا يرجو ، ومن هنا فانه يسـتهين بـالعلم ويسـتخف بالحق وبرسالات السماء بل ويلعب بها حسبما تملي عليه أوهامه.

انه يحـرف كلام الله لأنه لا يـرى قيمة لكلام الله ، ولا يشـعر بأنه هو الـذي يجلب الخـير اليه ويـدفع الضر عنه ، ذلك لأنه أساسا لا يعقل زوال الخير عنه ، ولا خطر نـزول الضربة.

من هنا لعن الله اليهـود بقسـوة القلب فحرفـوا كلام الله.

(**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ**)

يحرفـون كل كلام عن موضـعه الصـحيح ، ويضـعفونه في موضع آخر إما بتحريف الكلمة ذاتها مثل ما فعلـوا بما يخص بشـارة نبـوة نبينا محمد (ص) فغـيروا فيها بحيث لا تتوافق ودلائل بعثته ، أو بتأويل الكلمة الى غــــير معانيها الأصلية.

لقد قالت اليهـود : ان كل ما جـاء في التـوراة من ذم الربا والسحت وأكل اموال النـاس بـالإثم والعـدوان ، انها جميعا تختص بعلاقة اليهـــود ببعضـــهم ولا تشـــمل علاقة اليهود بغيرهم من الأميين حيث زعمـوا انه يحـوز الاعتـداء عليهم.

وبذلك حرفوا الكلم النازلة حـول هـذه الموبقـات عن مواضعها الصـحيحة ، وهي علاقة النـاس ببعضـهم (اليهـود وغيرهم) الى مواضع اخرى تتوافق مع

أهدافهم الخبيثة.
ولم يكتف اليهـود بتحريف الكلم ، بل وحرفـوا بعض بنود الرسالة لأنهم حين قست قلوبهم لم يعطوا للرسـالة قيمة فحرفوا منها ما خالف أهواءهم.
(**وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**)
ولم يقل القران حذفوا قسما من الرسـالة بل قـال : (**نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**).
لان الرسـالة باقية لا تتغـير ، ولا يقـدر أحد ان يحـذف منها شيئا بل هم الـذين نسـوا وبالتـالي ابتعـدوا عن بعض بنود الرسالة.
ثم عـبر القـران بكلمة (حـظ) عن جـانب للدلالة على ان القسم الـذي نسـوه من الرسـالة كـان بالتـالي في صالحهم كسائر أقسام الرسالة.
وأخـيرا قـال الله (مما ذكـروا بـه) لبيـان أن عقـولهم كـانت تتوافق مع بنـود الرسـالة الـتي كـانت تـذكيرا لتلك العقول ، بيد أنهم أداروا ظهورهم عن هـدى عقـولهم أيضا ... فلم يحفلوا بالرسالة ولا بما ذكّرت به.
ولم تنته فصـول اللعنة الـتي أحـاطت بـاليهود بسـبب نقض الميثـاق عند هـذا الحد ، بل سـيطرت اللعنة على سلوكهم العام.
(**وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**)
لأنهم أصيبوا بقسـوة القلب ، والاسـتخفاف بالرسـالة وتحريفها ، ونسـيان جـانب منها ، فقد توغلـوا في الأنانية وما الأنانية سوى وليـدة الاسـتهانة بقيم الحق ، والتمحـور حول الذات.

وهذه الأنانية ولدت عندهم خيانة بعضهم البعض الآخر ، لأن الامانة تأتي نتيجة الخوف والرجـاء والالـتزام بـالقيم والتمحور حول الحق.

اما هؤلاء فكـانت قلـوبهم صـخرية ، ولم يجـدوا حـتى رائحة القيم فلما ذا الامانة؟

بيد ان خيانة هؤلاء يجب الا تدعونا الى خيانة مضادة ، إنّ الأمة الإســلامية يجب ان تحتفظ بأخلاقياتها الســامية عند تعاملها مع الأمم الفاســـدة خلقيا ، والا تكتسب منها سيئات خلقها وسلوكها.

لذلك نبه القرآن الى ذلك بالقول :

(**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)

العفو : هو عدم مؤاخذة المذنب بذنبه ، والصفح : هو نسـيان هـذا الـذنب كلية ، والإحسـان : هو محاولة إصـلاح المذنب برفع أسباب ذنبه (كالفقر والجهل أو الحقد).

النصاري النموذج الآخر :

[14] كانت تلك قصة نقض اليهود للميثـاق ، اما قصة النصارى في نقض الميثـاق فهي تختلف جزئيا في قسـوة القلب فلان رسـالة المسـيح كـانت منصـبة على المواعظ والترغيب والترهيب فان النصارى لم يصـابوا بلعنة قسـوة القلب.

بيد ان النصــارى نســوا ــ مثل اليهــود ــ جانبا من رسـالتهم ، واتبعـوا في ذلك الجـانب أوهـامهم وشـهواتهم ومصالحهم.

ولأنّ البشر حين يتبعـــون أوهــــامهم وشــــهواتهم ومصالحهم فإنهم يختلفون فيما

بينهم بسـبب اختلاف الأوهـام والشـهوات والمصـالح من طائفة لأخـــرى بل من شـــخص لآخر لـــذلك فقد اختلف النصارى وانتهت حياتهم الى جحيم.

(**وَمِنَ الَّذِينَ قـالُوا إِنَّا نَصـارى أَخَـذْنا مِيثـاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِـهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَـداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**)

ان الـتزام الأمة كلها بالميثـاق ، يوحـدها ، ويصـبح الميثاق بوتقة تطهر خلافاتها ومصالحها.

فاذا تركوا الميثاق عـادوا الى الخلاف الأبـدي ، وليس هناك ما يوحد الناس مثل الالتزام بميثاق واحد.

(**وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ**)

لان الله مهيمن عليهم ، يحصي عليهم أعمـــالهم ، ويسجلها ليحاسبهم بها في يوم القيامة.

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جـاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُـبُلَ السَّـلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (16) لَقَـدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ قُـلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَـيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِـكَ الْمَسِـيحَ ابْنَ مَــرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعــاً وَلِلَّهِ مُلْــكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُـقُ ما يَشـاءُ وَاللـهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُـلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشـاءُ وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)

الإسلام بصيرة هدى ومنهاج صلاح

هدى من الآيات :

لقد نقضت اليهود والنصارى الميثـاق ، وحـرّفت كتبها ... فما هو العمل الآن؟ ان عليهما الالتفـات حـول رسـالة الله الجديدة التي لا تـزال بيضـاء نقية ولم تـدخلها شـائبة الشرك بالله.

إن هذه الرسالة أوضحت الحقـائق ، الـتي حـاول أهل الكتــاب إخفاءها ، وإلغــاء بعض الأحكــام المؤقتة الــتي استوجبتها ظـروف خاصة ، وهي بالتـالي نـور يـذكر البشر بربه ويثير دفينة عقله ، ويزكي ضميره.

كما انها كتاب مفصل ، يحمل خريطة واضحة لـدروب الحيـاة السـالكة الـتي طالما تـاهت البشـرية فيها وكـانت عاقبتها الهلاك.

لقد أصبح النصارى كفارا بسبب قولهم في المسـيح : انه هو الله ، وأصبح اليهود مشركين بقولهم نحن أبناء الله ، ولم يبق للبشرية رسالة نقية سوى

الإسلام.

فلم يكن المسيح سوى عبد لله ، وليس اليهود سـوى بشر كسائر البشر.

اما الله فهو رب الســـــموات والأرض ، ولا يعقل أن يتجسد في شخص المسـيح ، كما لا يعقل أن يتخذ اليهـود أبناء له (**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً**).

بينات من الآيات :

رسالة الله بين التجديد والتكامل :

[15] جاءت الرسالة الاسلامية مجددة لرسالة الأنبياء من قبل ومكملة لها ، أما التجديد فلأن أهل الكتاب الـذين استأمنهم الله على رسـالته خـانوا الأمانة ، وأخفـوا كثـيرا من بنود الرسالة التي خالفت مصالحهم ، فجاءت الرسالة لتجديد التأكيد على تلك البنـــود لأنها كـــانت ضـــرورة اجتماعية لسائر الأفراد.

فمثلا : أن يكـون العـالم الـديني المطـاع ، زاهـدا في الدنيا ، راغبا فيما عند الله. إن هذا الأمر أخفاه علماء أهل الكتـاب عن الجمـاهير ، لأنه كـان يتنـاقض مع مصـالحهم العاجلة فجاء القرآن يوضح هذا الأمر ويجدد التأكيد عليه ، وان على النـاس التمـرد على السـلطان الجـائر أمر أخر أخفاه أهل الكتاب ، فجاء الإسلام يظهره إظهارا.

وجــاءت الرســالة مكملة ، حيث ألغت بعض الأمــور الهامشــية ، الــتي اقتضى تشــريعها ظــروف خاصة مثل تحــريم أقســام من اللحم كــان يعقــوب قد حرمها على نفسه ، فحرمها الله على بـني إسـرائيل مرحليا ، لمجـرد التأسي بيعقوب أو لتأديب

بني إسرائيل ، فجاء الإسلام ليعفو عن هذا التحريم.

(**يا أَهْـلَ الْكِتـابِ قَـدْ جـاءَكُمْ رَسُـولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**)

رسالة الله الكنز الأعظم :

والرسالة السـماوية نـور وكتـاب ، نـور لأنها توقد في ضـمير البشر مشـعل العقل فيمشي في ظلمـات الحيـاة بصيرا سويا.

إن رسالات السماء تـذكر الإنسـان بربه ، وتفتح نوافذ بصـيرته على آيـات الله في الكـون ، إنها تـذكره بعقله ، وتحذره من الهوى والشهوات والغضب والغفلة ، وبالتـالي من كل ما يسد عليه أبـواب المعرفة ، ويحجب عنه أنـوار العقل.

وإذا فتح عقل الإنســان ، واســتثيرت بصــيرته ، فانه سيعرف الكثير من خفايا الحياة ، سواء تلك التي أوضحتها الرسالة السماوية وفصلتها ، أم لا.

بيد ان الله لا يكتفي بإعطــاء البشر نــورا ، بل يكمل عليهم النعمة ، بــأن يرسم لهم خريطة متكاملة لــدروب الحيـــاة ، ويوضح لهم المســالك المهلكة ، والصــراط المســتقيم ، وذلك عــبر تشــريعات منفصــلة ، وواضــحة يسميها القران ب (الكتاب) ويقول :

(**قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ**)

كيف تستحق هدى الله

؟ [16] بيد أن نور الله وكتابه ، وبالتالي رســالته ، لا تنفع إلا الذين يتبعون

مناهج الله التي فيها رضوانه ، فالذي يتولى عنها سـوف لا تعطيه رسالة الله نورا في القلب ، ولا شريعة في الحياة.

إن عقل الإنســان يتبع إرادته ، فلو أراد الإنســان أن يفهم ، لتحـــرك نحو أســباب الفهم ولفتح عينه وســمعه وقلبه ، ولبحث عن وسائل المعرفة.

أما الذي لا يريد أن يفهم ، فإن عقله يدس في تـراب الجهل ، ويخبت نوره إلى الأبد.

والذي يريد الفهم عليه ان يجهد في سبيل ذلك ، بـأن يبحث عن العلم ، فــإذا وجــده عمل به ، وكلما زاد عمل الإنسان في شيء زاد علمه فيه.

اما من علم علما فلم يأبه به ، ولم يعمل بهداه ، فان العلم سيرتحل عنه بلا توديع ، وقد جاء في الحديث :

«العلم يهتف بالعمل ، فــــــان أجابه والا ارتحل»

لــذلك فــان هــدى الله لا يعطى الا لمن عمل به ، واستعد لبـذل الجهد في سـبيل تطبيقه ، فـاذا فعل البشر ذلك ، فســوف تتوضح له دروب الســلامة في مختلف حقــول الحيــاة ، درب الســلامة في : الاجتمــاع ، ودرب السلامة في السياسة ، وفي الاقتصاد وهكذا.

ذلك لأن لكل حقل دربا سليما ، ودروبا مهلكة ، تنتهي بسـالكها الى المأسـاة ، وهـذه الـدروب لا يهتـدى إليها الا العاملون فقط.

(**يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**)

إن الـذين يتبعـون منـاهج الله ، يهـديهم ربهم للطـرق السالمة في الحياة بعيدا عن

الطرق المهلكة.

(**وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**)

اي إن الله لا يكتفي بـأن يرسم للبشر خريطة للحيـاة توضح لهم دروب الســـلامة بل ويعطيهم مشـــعل العقل والايمــان ، حــتى يكتشــفوهم بأنفســهم هــذه الــدروب ، ويستوضحوا ما خفي عنهم منها.

(**وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

اي أن سـبل السـلام تنتهي بالتـالي الى صـراط واحد مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف ينتهي بصاحبه الى الجنة.

لقد كفر الذين قالوا :

[17] وأبرز معالم الصراط المستقيم الذي هـدى الله عباده اليه ، وزودهم بنـور العقل للمشي فيه ، انه صـراط التوحيد الخــالص ، بينما الطــرق الأخــرى إنما هي ســبل الشــرك ، والانحــراف ، وقد احتــاجت البشــرية جميعا ، وبالذات اليهود والنصارى لهداية الله ، وتجديد رسالته لهم لأنهم انحرفوا عن هـذا الصـراط المسـتقيم فقـالوا أقـوالا كافرة على أنبيائهم فمثلا قالت النصارى (أو طائفة منهم) : إنّ الله قد حل في المسيح حلـولا ، فأصـبح المسـيح هو الله؟!

انها كلمة كفر ، وصراط أعوج. أن يكون العبد العـاجز الـذي لا يملك لنفسه ضـرا ولا نفعا ، إلها يملك السـموات والأرض؟!

أية ضلالة أكبر من هذه الضلالة! ان يتصــور البشر أن واحدا مثلهم يأكل ويشــرب ويمشي في الأســواق وتعتريه أسباب الضعف والعجز هو إله يملك الشمس

والقمر والنجوم والكواكب؟!

(**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قـالُوا إِنَّ اللـهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِـكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**)

هل يملك المســيح القــدرة على منع الله من إهلاكه وإهلاك أمه ، والناس الـذين يقولـون عنه انه إلـه؟! كلا ... ان المسـيح أعجز من ذلك ، فكيف يـدعي انه إله سـبحان الله وهل يفهم الـذين يزعمـون ان المسـيح هو الله ، هل يفهمـون ما يقولـون؟ هل يعرفـون مقـام الألوهية ... وأن الله يملك الســموات والأرض وانه يخلق وانه قــادر على كل شيء؟!

انهم لو تصــوروا قليلا ضــخامة الســموات والأرض لصــغرت في أعينهم شخصــية المســيح على عظمته ، واعادوه الى مرتبة عبودية الله.

هــذه الأرض الواســعة بما فيها من قفــار شاســعة ، وبحار عظيمة ، وجبال راسية ، وأنهار واحياء مختلفة ، هل يملكها المسيح (من دون الله) أبدا هذا غير معقول!

وهذه الشـمس العملاقة الـتي لو وضـعت أرضـنا فيها لضاعت كما تضيع حلقة صغيرة في صحراء واسعة!!!

هــذه المجــرات الـتي تحتــوي على ألف الملايين من الشموس بعضها أكـبر من شمسـنا بحيث لو وضـعت فيها شمسنا لضاعت كما تضيع حبة الرمل في الصحراء.

وهذه الملايين من المجرات الـتي تسـبح في القضـاء اللامتناهي ، التي تضيع فيها مجرتنا على ضخامتها.

كل هــذه يملكها الله ، أم المســيح البشر الضــعيف الذي لا يكاد يملأ حيزا من

الأرض؟! ومن هو الجـــدير بالالوهية الله أم المســـيح بن مريم؟!

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما**)

إن أحد الأسـباب الرئيسـية للكفر أو الشـرك هو جهل عظمة الله ، وعـــدم معرفة ســـلطانه الواسع ، وملكوته العظيمة ، ولــذلك كلما تحــدث القــران عن الشــرك بين جانبا من قدرته لينـــتزع من قلب الإنســـان أهم أســـباب الشرك به.

(**يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

[18] وحين قالت النصارى : ان المسيح ابن الله ، أو إنه هو الله ، فـــإن دافعهم النفسي كـــان التملص من مسئوليتهم كبشر.

انهم قـــالوا : ان المســـيح هو الله ، ونحن اتباعه المقربون اليه ، فهو لن يعذبنا ، بل سوف يقف حاجزا بين رب العرش وبيننا حتى لا نعذب بذنوبنا.

وهذه هي الضلالة الكـبرى الـتي يقع فيها البشر ، فما ذا ترجو من بشر لا يــرى نفسه مســئولة عن الخطيئــات التي يرتكبها؟ أفترجو منه سوى الجريمة والعدوان؟

(**وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**)

انظر كيف ان الله فضحهم وأكـذب أحـدوثتهم رأسا ، وبلا مقدمات ، فلم ينـاقش مسـألة أنهم أبنـاؤه أم لا ، بل ناقش قضية المسؤولية مباشرة فقال :

ان الهــدف الــذي تبغونه من وراء هــذه الــدعاوي هو الخلاص من مســئولية أعمــالكم .. كلا .. إنكم مســئولون عنها ، وابسط دليل على ذلك مســئوليتكم في الــدنيا عن أعمـالكم. إن الواحد منكم يشـرب الخمر فيسـكر ويجـرح نفسه ، أو

يمـرض ويمـوت أو ليست هـذه مسـئولية مباشـرة لعمل شـــرب الخمر ، والاخر منكم يأكل الميتة وهي حـــرام ، فيموت متـأثرا بـالجراثيم الـتي كـانت فيها أو ليست هـذه مسئولية لحقت به جـراء عملـه. إذا فـأنتم مسـئولون عن أعمالكم ، معذبون بسيئاتكم ، وهذا ابسط دليل على انكم كسائر البشر خلقكم الله.

(**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ**)

بلا حتم عليه من قبل الناس أنفسهم.

وعــاد القـــران وذكرنا بقـــدرة الله ، وملكوته ، لعلنا نتذكر استحالة اتخاذ الله لبعض عباده أبناء له.

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما**)

ثم ذكرنا مرة اخرى بالمسؤولية أمامه ، تجـاه أعمالنا قائلا :

(**وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**)

وهناك يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء.

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (20) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (21) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (22) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)

قــالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَـدْخُلَها أَبَـداً ما دامُـوا فِيها فَـاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقـاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِــدُونَ (24) قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِـي وَأَخِي فَـافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَـوْمِ الْفاسِـقِينَ (25) قـالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَـةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (26)

---

26 يتيهون : أصل التيه التحير الذي لا يهتدى لأجله للخروج عن الطريق الى الغرض المقصود.

بنو إسرائيل في التيه

هدى من الآيات :

لقد استخدم القران أسلوب الترغيب في الدرس السابق ، لتشجيع بني إسرائيل على اتباع رسالة الإسلام.

اما في هذا الدرس ، فقد استعمل التهديد المبطن ، وقال : لو لم يلتف بنو إسرائيل حول الرسالة ، فان أخطارا كبيرة تهددهم ، وسوف يندمون من دون جدوى.

وضرب لهم مثلا من تاريخهم ، كيف أصابهم السوء بسبب عصيانهم أمرا من أوامر الله ، وها هم اليوم يخالفون رسالة بكاملها فما ذا ينتظرون؟

لقد أمرهم الله على لسان موسى بن عمران بأن يتذكروا نعم الله عليهم ، ويلتزموا بتعهداتهم تجاه هذه النعم ، ويدخلوا الأرض المقدسة سلما أو حربا ، ولكنهم أبوا القتال ، وخافوا من بطش الذين كانوا يسكنون فيها ، وطالبوا نبيهم

بـان يقـوم هو وربه بالقتـال نيابة عنهم ، بيد أن الله حـرم المدينة عليهم ، وجعلهم يتيهون في الصحراء أربعين سنة.

وهكذا تكون عاقبة الذين يخالفون أوامر الله ، وهكـذا تكون عاقبة من لا يؤمن برسالاته.

بينات من الآيات :

استمرارية الرسالات :

[19] الرسالة السماوية مسـتمرة سـواء في شـخص الرسـول أو في أوصـيائه ، وحملة علمه وهديه ، وبالتـالي فانها لا تنقطع في أي زمـــان ، بيد انها قد تغـــتر ، وتتباطأ خطواتها وتقدمها في الحياة ، وحينئذ يختار الله من عبـاده رسولا جديـدا يعطي دفعا لمسـيرة الرسـالة ، ويزيل عنها فترتها وتباطؤها.

وقد جــاء الرســول (ص) وفقا لهــذه الســنة الإلهية ، والهدف من بعثته توضيح المسيرة للناس بعد ان طمست التحريفات معالمها.

(**يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ**)

والرسالة نعمة إضافية للإنسـان ، فقد زود الله البشر بالعقل والعلم ، وعليه أن يتجنب المهالك بهما.

ولكنه مع ذلك من عليه بالرســــــالة إتماما لنعمته ، وتكميلا لفضله ، لكي لا يأتي غـدا ويلقي بمسـؤولية هلاكه على الله سبحانه ويقول مثلا : يا رب لماذا لم تبعث رسلا فقد كنا غافلين جهلة وها هو الله قد بعث الرسل.

(**أَنْ تَقُولُـوا ما جاءَنا مِنْ بَشِـيرٍ وَلا نَـذِيرٍ فَقَـدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ**)

وإذا اشهدوا على أنفسـكم أن لو هلكتم فانما بسـبب عملكم وسوء اختياركم.

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

فهو قـادر على ان يعـذبكم مـتى شـاء إذا خـالفتم الرسل ، كما هو قـادر على ان يبعث عليكم رسلا بـالغيب وبصورة مخالفة لطبيعة الأشياء.

دور الأنبياء ومسئوليتهم :

ما هو دور الأنبياء وما هي مسئولية الأمة تجاههم؟

[20] دور الأنبياء هو توجيه البشر الى ما فيه خـيرهم ، أما مسئولية الأمة فهي العمل بـذلك التوجيه ، ومن دون التوجيه لا توجد فرصة امـام النـاس للعمل ، ومن دون العمل لا يكفي التوجيه وحده وهذه قصة بني إسـرائيل مع رسلهم.

(**وَإِذْ قـالَ مُوسى لِقَوْمِـهِ يا قَـوْمِ اذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**)

الأنبياء جاءوا بتوصيات اتبعها الناس ، فأصبحوا بسببها ملوكا في الأرض ، فلما أصـبحوا ملوكا دبت فيهم آثـار الرخاء فظنوا ان وصولهم الى الملك إنما هو من أنفسـهم أو من الله ، ولكن بسـبب ان الله فضل عنصـرهم على غيرهم تفضيلا عبثا وبـدون حكمة ، لـذلك أوصـاهم موسى بتذكر نعمة النبوة وانها لو أهملت فان الملك سوف يـنزاح عنهم إلى غيرهم.

(**وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ**)

ليس عبثا! بل بسبب اتباعكم للرسل الذين جعل الله فيكم.

[21] بعد ان بيّن موسى لقومه دور الأنبياء ومسئولية الأمة تلقاء الأنبياء ، وبعد ان ذكرهم بأن في اتباع الأنبياء يصبح بنو إسرائيل ملوكا في الأرض ، أمرهم بدخول الأرض المقدسة (فلسطين) بعد ان قادهم من مصر عبر البحر الى تلك الأرض ، وكان امر موسى حازما يشبه الأوامر العسكرية إذ قال :

(**يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ**)

إن الله كتب لبني إسرائيل آنئذ بدخول فلسطين ، لأنهم كانوا يمثلون الأمة المؤمنة الوحيدة ولأن حكام فلسطين كانوا قوما جبارين يفسدون في الأرض.

ثم حذرهم موسى من ان رجوعهم يسبب لهم الخسارة.

التبرير افيون الحضارة :

[22] أما رد بني إسرائيل فكان جبانا بما فيه الكفاية وفوق ذلك وعلى أساس ايدلوجي فهو خاطئ ، وهو أن على الأنبياء ان يهيئوا غيبا كل وسائل التقدم المادي بعيدا عن جهد البشر ولذلك قال بنو إسرائيل وبلا خجل :

(**قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ**)

وانما كرروا كلمة موسى استعطافا وتذكيرا بدوره الغيبي في عبور البحر ، وهلاك فرعون ، ولذلك شبهوا حكام فلسطين بحاكم مصر السابق ، وان كليهما كان جبارا.

(**وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَـإِنْ يَخْرُجُـوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ**)

وكأن دخـولهم المدينة بعد خـروج الجبـارين منة منهم على الله ، أو انها طاعة يبتغون من ورائها ثوابا منه.

والواقع ان هـذا تفكـير موجـود عند كثـير من النـاس انهم يتبعون الأنبياء فقط فيما يخدم شهواتهم العاجلة ، ثم يعتبرون ذلك عملا عظيما.

[23] بعد جـوابهم الفـاتر لأمر موسى سـكت عنهم ، وتولى مهمة إقناعهم بعض الحواريين من أصحابه.

(**قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ**)

إذ انكم أنتم أصــحاب الحق وانكم تتبعــون آنئذ خطة المبادرة بالهجوم ، وتملكون ناصية الموقف بالاقــدام ، ثم انكم تهدفون من وراء الحــرب تحرير شـعب هـذه المدينة من ايــدي الجبــارين ، وبــذلك تنتصــرون عليهم ، بتعــاون الشعوب معكم ضد الجبارين.

(**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

ذلك ان التوكل على الله يزيــــدكم ثقة وروحا معنوية عالية.

القيادة مشعل هداية لا واقع تبرير :

[24] لقد كان هـذا الـرأي موقف رجلين فقط منهم ، حيث حاولا اقناع الآخرين بضـرورة إتبـاع أوامر الرسـول ، اما الأكثرية الساحقة فقد خالفت انطلاقا

من فكـرة سـلبية متخلفة ، حيث زعمـوا ان على الله ان يوفر لهم النصر ويقدمه إليهم في طبق من ذهب.

(**قـالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَـدْخُلَها أَبَـداً ما دامُـوا فِيها**)

واســـــــتخدموا أنواعا من التأكيد اللفظي في رفض دخولهم المدينة لقتال الجبـارين فيها فقـالوا : (لن) الدالة على نفي الأبد ، وأضـافوا إليها كلمة أبـدا للدلالة على ان كل المحـــاولات المبذولة لإقنـــاعهم بضــــرورة الجهـــاد ، ســــتذهب ســــدى ، وان الحل الوحيد هو صــــنع النصر واعطاؤهم إياه جاهزا.

(**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ**)

ان نظرة الناس الى الدين تختلف اختلافا يكـاد يكـون متناقضا فبينما يـؤمن البعض بالـدين ليجـدوا فيه برنامجا للعمل الصـادق ، وأسـلوبا للتضـحية السـخية ، وقيـادة رشـيدة للجهـاد من أجل التحـرر والتطـوير ، نجد آخـرين يؤمنـون بالـدين وبالقيـادة الدينية لتحمل عنهم مشـاكل الحياة وتقوم بدلا عنهم بالعمل من أجل حلها.

وإذا لم تحلّ مشاكلهم بالدّين صبوا عليه جام غضـبهم ، وكفـروا به وبقيادته كما يفعل المسـلمون اليـوم الـذين نبـذوا الـدين لأنه لم يمنحهم التقـدم ، بينما السـبب في تخلفهم انما هو تقاعسهم عن العمل الصادق.

النصـارى الـذين زعمـوا ان المسـيح يفـديهم بنفسه ويخلصهم من شرور أنفسهم ، ومن سيئات أعمالهم كانوا من هذا النوع ، واليهود الذين وكلوا الله عنهم في الحـرب كانوا هكذا أيضا من أصحاب هذه الفكرة.

بينما المسلمون الصادقون استجابوا للرسـول عند ما ناقشهم في الحرب (في

بـدر) فقـال له المقـداد : نحن لا نقـول لك مثل ما قـالت اليهود لنبيهم (**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا**) بل نحن نقـول : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضـناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد.

[25] ان اتباع القيادة بصـدق هو هـذا الاتبـاع لا ذاك ، لذلك تبرأ موسى من قومه ، وقال :

(**قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِـكُ إِلَّا نَفْسِـي وَأَخِي فَـافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ**)

ان اخطر بلاء ينزل على الأمة اللامسؤولة الـتي تلقي بأعبائها على كاهل قيادتها وتتقـــــــاعس عن العمل هو : حرمانها من تلك القيــــــــادة ، حيث ينفصل عنها قادتها المصلحون بعد التأكيد من أن لا رجاء في إصلاحهم.

لقد تـــبرأ موسى من قومه وانفصل عنهم ورمـــاهم بالفسق.

[26] اما الجـزاء الثـاني : فهو البقـاء في التخلف لان هـذه الامة لم تـرض بـدفع ضـريبة التقـدم وهي الجهـاد ، لذلك كان جزاء بني إسـرائيل عند ما تقاعسـوا عن حـرب الجبـارين أن بقـوا في التيه ، كما أن جـزاء كل أمة لا تتبع قيادتها الرسالية ، هو بقاؤها في مستنقع الضلالة والتخلف حتى تعرف أهمية القيادة ، وتعود الى رشدها.

(**قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَـةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَـنَةً يَتِيهُـونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ**)

ان موسى تـبرأ من قومه وطلب من ربه بـأن يفـرق بينهم وبينه ، وقد اســـتجاب له الله وطلب منه ان ينسى هموم قومه ، ولا يأسف على ما يصل إليهم.

وَاتْـــلُ عَلَيْهِمْ نَبَــأَ ابْنَيْ آدَمَ بِــالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْبانــاً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَـــدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَـــرِ قـــالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللــهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَـطْتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِـطٍ يَـدِيَ إِلَيْـكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللـهَ رَبَّ الْعـالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَـهُ نَفْسُـهُ قَتْـلَ أَخِيـهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللـهُ غُرابـاً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي

---

27 [قربانـا] : القربــان ما يقصد به القــرب من رحمة الله من اعمــال البر.

28 [بسطت] : البسط : المد وهو ضد القبض.

29 [تبـوء] : تبـوء ترجع «**وَباؤُ بِغَضَـبٍ مِنَ اللـهِ**» اي رجعـوا ، والبـوء الرجوع بالقود.

30 [فطوعت] : انقادت له وسولت.

31 [يواري] : يقال واريت كذا إذا سترته ، وتوارى استتر.

سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْـلَ هـذَا الْغُـرابِ فَـأُوارِيَ سَـوْأَةَ أَخِي فَأَصْـبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْـلِ ذلِـكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْـرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَـلَ نَفْسـاً بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسـادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَــلَ النَّاسَ جَمِيعــاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعـاً وَلَقَـدْ جـاءَتْهُمْ رُسُـلُنا بِالْبَيِّنـاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِـيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)

[سوءة أخي] : جيفته أو عورته.

دوافع الصراع وآثاره النفسية

بينات من الآيات :

الاستعلاء في قصة الاعتداء الاول :

[27] قصة ابـــني آدم تحتـــوي على عـــبر حقه ، فبالاضافة الى انها بـذاتها قصة واقعية ، فـان الهـدف منها واقعي وحق ، وهو تحقيق السلام بين أبناء أدم.

وكما لا نرضى ان يعتـــدي أخ على أخيه وكلاهما ابنا لآدم ، كــذلك علينا ان لا نــرض اعتــداء بشر على بشر ، لأنهما من أبناء آدم وهما بالتالي أخوان.

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً**) وضحيا بأضحية في سبيل الله.

(**فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَـدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَـرِ قـالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**)

ان الـدافع الـذي بعث قابيل الى ارتكـاب أول جريمة قتل في تاريخ البشرية هو

دافع الحسد ، وهي غريـــــزة الحـــــرص على التفـــــوق والاستعلاء.

إن البشــرية بإمكانها ان تتقاسم بينها خــيرات الأرض دون الحاجة الى الاقتتــــــال ، إذ أن الله وفر للبشــــــرية ضرورات حياتها فهي لا تحتاج الى الصـراع مع بعضـها من أجل الحصول على هذه الضرورات.

ولكن الحروب انما كـانت من ثـورة غريـزة الاسـتعلاء الشيطانية التي يجب لجمها وتحديدها.

ان قابيل لم يقتل أخـاه من أجل الصـراع على البقـاء كما يزعم المذهب الدار ويني ، ولا من أجل الحصول على بنت أجمل كما يــزعم المــذهب الفرويــدي ، ولا من أجل ســوء التربية وضـغوط الاجتمـاع ، أو الصــراع الطبقي أو غيرها مما تزعمها المـــــذاهب الاجتماعية المختلفة ، كلا ، ولكنه قتله لحب الاســــتعلاء والحسد ، وإذا ســــيطرت البشـــرية على غريـــزة الاســـتعلاء في ذاتها فقد وفقت للعيش بســـلام مع بعضـــها وانـــتزعت من نفســـها فتيل الحروب.

لقد كـان موقف هابيل أمـام التهديد بالاعتـداء موقف المسالم.

(**قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**)

عبرتان :

الاولى : ان كثيرا من الحروب تقع بـدافع الخـوف من الاعتداء فمثلا : تخشى دولة معينة من اعتداء جارتها عليها ، فتتسـلح ، وحين تـرى جارتها عملية التسـلح تخشى هي بدورها فتتسلح هي الاخـرى فتخشى إحـداهما من مبـادرة الاخـــرى بـــالهجوم فتهجم ، فتـــدافع الاخـــرى عن ذاتها ، وبالتالي تجد ان كلتا الدولتين

أقحمت في اتـون الحـرب من دون ارادة مسـبقة لها ، بل استسلاما لدافع الخوف.

من هنا تـوحي إلينا قصة ابـني آدم بـأن الخـوف من الاعتــداء ، ليس سـببا معقــولا للاعتــداء حيث ان هابيل (القتيل) أجـاب على التهديد بالقتل بكلام تربـوي ، وصـرح بعدئذ (في الاية التالية) بأنه لن يمد يده لقتل أخيه.

الثانية : ان الاســــتعلاء ليس طريقا للعلو فمن يريد الصـعود الى الجبل لا يكفيه ان يقف على السـفح ويمـني نفسه بالصعود ، أو يعارض من يصعد ، بل عليه ان يحـرك نفسه ويعمل على تغيـير ذاته حـتى يصـعد. والله لا يتقبل عمل أحد ، وبالتــالي لا يباركه ، ولا يوفقه للنجــاح إذا لم يغير ذاته ويتق الله.

فمن يعمل من أجل تحصــــيل العلم ثم لا يصل اليه ، ويـرى الآخـرين أصـبحوا علمـاء فليس الطريق الأفضل له ان يعــارض العلمــاء ويناصــبهم العــداء ، بل من الأفضل والأنفع له أن يراجع نفسه ليجد ان فيها خللا ما منعه عن الوصـول الى العلم ، فيصـححه وهكـذا إذا يكـون منطلق التقدم هو هذا المبدأ (**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللــهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) إذ انهم وحدهم الذين يصلحون أنفسهم فيساعدهم الله على ذلك.

[28] (**لَئِنْ بَسَــطْتَ إِلَيَّ يَــدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**)

وبــذلك صــرح القــرآن بــأن التهديد ليس مســوغا للمبادرة بالجريمة ، وإذا استطاع الإنسان ان يقاوم إغـراء التهديد فلا يقتل النــاس ولا يشن الحــروب الابتدائية ضد الآخــرين ، لأن نصف الحــروب تصـبح بلا مــبرر وبلا دافع إليها.

إذا فما الذي يساعدنا على ضبط الشعور بالخوف من الآخرين ، وبالتالي تحديد غريزة المبادرة بعد التهديد؟

الجــواب : هو الخــوف من الله فهو خــوف يقــاوم الخوف من البشر ، فلأنك تخشى

الناس تريد ان تشن الحرب عليهم ولكنك من جهة اخــرى تخـاف الله فتحجم عن شن الحـرب على عبـادة ، ولـذلك قال هابيل :

(**إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ**)

ولان الله هو رب العبـاد فهو يحبهم ، ولا يرضى لواحد ان يعتدى عليهم.

وكلمة اخيرة ان هـذا الموقف من هابيل لا يـدل على الاستســلام للظلم فالإســلام يــأمر بكل وضــوح وجدية بضـرورة مقاومة الظـالمين ، ولكن بعد ان يبـدؤا فعلا في ظلمهم أو فيما يؤدي اليه بالتاكيد.

وهابيل لم يكن يصــدق ان قابيل قاتله ، بل ربما كـان يظن ان كلامه كان مجرد تهديد أو لا أقل كان يحتمل ذلك ، وقد قتل غيلة.

[29] ثم قال هابيل الـذي لم يشأ ان يصـبح المجـرم. حتى ولو كان ذلك يؤدي به الى ان يصبح الضحية :

(**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ**)

حيث ان القاتل بغـير حق سـيتحمل أوزار القتيل يـوم القيامة ، بينما يغفر الله للقتيل ذنوبه رحمة به.

(**فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ**)

حيث يتضاعف اثمهم بسبب ظلمهم للناس.

[30] النفس الامارة بالسوء تهـون في عين الإنســان الجـرائم الكبـيرة إرضـاء للشـهوات العاجلة ، وقابيل كـان يستعظم في البدء الاعتداء على حياة أخيه ، حيث

أودع الله في فطــرة الإنســان احــترام الحيــاة وتكــريم الآخرين ، بيد ان نفسه طوعت له ، وذللت هذه الجريمة.

(**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

خسر فطرته النقية ، وخسر أخــاه الكــريم ، وخسر حياته الهادئة ، وخسر مستقبله في الآخرة.

[31] قتل أخـاه وتـورط في الأمر ، مـاذا يفعل بجسد أخيه .. بهـذه العلامة الواضـحة لجريمتـه؟! وهنا بعث الله غرابا ، يثير الأرض بمنقاره فانهـار كبريـاء قابيل الكـاذب ، وتهاوى صرح غـروره ، وعـادت اليه فطرته ، وقد خمـدت جذوة الغضب السـابقة الـتي كـانت قد حجبت عنه عقله ، وقال لنفسه : كم انا عاجز وكم كنت مغرورا بنفسي فهذا الغراب عرفني كيف ادفن جسد اخي!!!

(**فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**)

[32] أرايت كيف قضى قابيل على حياة أخيه ، وكيف ندم على فعلته دون ان ينفعه الندم أرأيت كم هي عظيمة ومؤلمة جريمة القتل ، لذلك احترمت الشـرائع السـماوية حياة الإنسان وجعلت حياة كل فرد مساوية لحيـاة النـاس جميعا.

(**مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ**)

حيث يجــوز القتل قصاصا أو لمنع الفســاد كما يبينه الدرس القادم ، اما في غير ذلك فـان قتل نفس واحـدة ، تكون بمثابة قتل النفوس جميعا ....

(**فَكَأَنَّما قَتَــلَ النَّاسَ جَمِيعــاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**)

ان احترام الحياة عند الشـرائع السـماوية ، والإسـلام بالذات ، لا تعود الى حيـاة هـذا الشـخص أو ذاك ، بل الى الحيـاة كحيـاة أيا كـانت خصائصـها وميزاتها ، لا فـرق بين الطفل الرضيع ، ورئيس البلاد ، أو بين المؤمن الصـالح أو الإنسـان العـادي ، أو بين عـدوي وصـديقي ، المهم ان الحيـاة محترمة ، ولو اسـتهان المجتمع بحيـاة واحد منهم فان الحياة كلها في خطر.

(**وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**)

يتجـــاوزون حـــدودهم ، حـــتى ينتهي ذلك بهم الى الجريمة الفاحشة.

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (33) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)

---

33 [ينفوا] : النفي والطرد.
[خزي] : الخزي الفضيحة.

جزاء المحارب

هدى من الآيات :

في الآيات السـابقة تحـدث القـران الحكيم عن القتل الـذي يقع بسـبب الفسـاد في الأرض ، وفي هـذا الـدرس يفصل الحديث ويبين ضرورة قتل هـذه الفئة المفسـدة أو صـلبهم أو إخـراجهم من الأرض ، الا ان الله يـذكرنا بـأن العقوبة لا تكفي وحـدها في ردع المجـرمين ، بل لا بد ان يعرف المجرم ان جزاء عمله الحقيقي هو عـذاب الله في يـوم القيامة ، ثم يفتح الله بـاب رحمته حين يلغي العقوبة لأولئك الذين يتوبون قبل ان يقدر عليهم النظام الاسلامي ، وهـذا بـدوره طريق لـردع المجـرمين عن التمـادي في فسادهم.

بينات من الآيات :

الجريمة والعقاب :

[33] (**إِنَّما جَـزاءُ الَّذِينَ يُحـارِبُونَ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً**)

ما هي محاربة الله ورسوله؟

ان محاربة الله ليست بشهر السلاح ضده سبحانه ، كما ان محاربة الرسول ليست دائما بشهر السلاح ضده ، انما المحاربة الحقيقية هي : مقاومة النظام الاسلامي الذي يقوده الرسول أو خلفاؤه مقاومة مسلحة ، مما يسبب الفساد في الأرض وتغييرا في النظام الذي يصلح الأشياء.

ان فساد المجتمع هو : تغيير نظامه القائم ، واشاعة الفوضى فيه ، وتعكير صفو الأمن ، وإفساد الزراعة بتغيير نظام الري والمساقاة فيها ، وعدم تطبيق واجبات الزراعة من تسميد وتشذيب ، واختيار الموسم المناسب.

ومثل الزراعة الصناعة والتجارة وغيرها من حقول الحياة المختلفة ، وجزاء من يشيع الفساد بمقاومة الانظمة الطبيعية أو التشريعية التي وضعها الله سبحانه هو واحد من الأمور التالية : اما القتل بالسيف أو الصلب أو قطع الايدي والأرجل من اليمين واليسار ، وإما إخراجهم من الأرض.

(**أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا**)

وهؤلاء الذين يقاومون النظام الصالح بالقوة انما يطغون طمعا في العزة ، وهذه العقوبات تسبب لهم خزيا وذلة وصغارا ..

(**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

فان لم يرتدعوا بالعقوبة الدنيوية أو يزعموا انهم يفلتون من يد العدالة في الدنيا ، فان الاخرة قريبة ، وعذاب الله العظيم ينتظرهم.

الهروب الى التوبة أسلم :

[34] ويفتح الله امــام المفســدين في الأرض بــاب التوبة لكي يرجعوا الى رشدهم ولا يهرقوا دماء أبناء الامة ، ويقول سبحانه :

(**إِلَّا الَّذِينَ تــابُوا مِنْ قَبْــلِ أَنْ تَقْــدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

وأمر قبــول توبة هــؤلاء أو ردها انما هو الى الامــام الذي يمثل القائد الأعلى للدولة ، لأنه قد لا تكون التوبة الا تكتيكا مؤقتا لجمع السلاح والأمـوال للعـودة الى القتـال ، وكلمة اخــيرة : ان هــذه الفئة تشــمل قطــاع الطــرق والمتمردين ضد النظـام الاسـلامي بالسـلاح ، كما تشـمل القوات المسلحة التي تـدعم انظمة الطـاغوت المسـتبدة بمصير الشعوب ، والمفسدة في الأرض لذلك لو انتصرت الثـورة الاسـلامية ، سـيكون لها الحق في ملاحقة هـؤلاء جميعا بتهمة الفسـاد في الأرض ، ومحاربة الله ورسـوله ، والنظام الاسلامي الصالح ، وبالتالي إنزال أشد العقوبـات عليهم ، ومثل القــوات المســلحة ، كل أركــان النظــام الطــاغوتي مثل كبــار رجـال الأمن ، والاعلام ، والــوزراء العاملين في بالفساد.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللـهَ وَابْتَغُـوا إِلَيْـهِ الْوَسِـيلَةَ وَجاهِـدُوا فِي سَـبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَـوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً وَمِثْلَـهُ مَعَـهُ لِيَفْتَـدُوا بِـهِ مِنْ عَـذابِ يَـوْمِ الْقِيامَـةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيـدُونَ أَنْ يَخْرُجُـوا مِنَ النّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (37)

---

35 الوسيلة : الوصلة والقربة.

الحسرة الكبرى

هدى من الآيات :

ان النظــام الاســلامي الــذي يصــلح الأرض وما فيها بحاجة الى التعهد والالتزام والتقوى ، وبحاجة الى النشاط في سبيل الله بهدف الوصول الى رضوانه ، والى الكمـال الرفيع الذي هو فيه سبحانه ، وبحاجة الى الجهاد ومقاومة العقبـات البشـرية والطبيعية الـتي تعـترض طريق تطـبيق النظام ، هذه الشروط لو توفرت لأثمرت بالفلاح والحيــاة السعيدة.

اما الذين لا يطبقون هذا النظام الصالح ، ويكفرون به ، فان عذاب الله ينتظـرهم ولا منـاص لهم حـتى لو دفعـوا كل أمـــوالهم فدية ليتخلصـــوا منه ، انهم يحـــاولون عبثا بصــورة مســتمرة التخلص منه ، ولكن عــذاب الله مقيم دائم.

بينات من الآيات :

حقيقة النظام الاسلامي :

[35] النظام الاسلامي الـذي يعـبر عن وحي الفطـرة وسنن الحياة ، لا يمكن

تطبيقه بالقوة ، بل بالالتزام الذاتي (وهو التقوى) فبالحذر من عـذاب الله يتجنب الفـرد المزالق الـتي تـؤدي به الى الهلاك.

الكمال المنشود :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ**)

والتقوى يجب الا تكون طريقا الى الجمـود والسـكون ، بل وسيلة للتحرك المستمر للوصول الى الكمـال الأرفع ، الـذي هو عند الله سـبحانه ، فلله الأسـماء الحسـنى ، والكون كله يسعى من أجل الكمـال الـذي لا يبلغه الا عند ربه ، ولذلك نجد موكب الوجود متصاعدا الى ذلك الرفيق الأعلى ، والإنسـان لا يشذ عن هـذه الحركة لو سـلمت فطرته الاولية ، فهو بفطرته يسـعى من أجل العلم والقدرة والمحبة والجمال وسائر الأسـماء الحسـنى الـتي هي لله وحده.

وعلى البشر الا يـترك طريقه يمكن ان تصل به الى تلك الأسماء الا اتبعها وسـار فيها دون اي تـوان أو كسل ، لان ذلك هو الهـدف الأسـمى له في الحيـاة ، ان النشـاط المكثف والحركة الدائمة في طريق الله وبلـوغ أسـمائه الحسنى هو الكفيل بتكامل البشر وتصـاعده ، لـذلك قـال ربنا :

(**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**)

الوسيلة الى الله :

ترك السـياق كلمة الوسـيلة عامة مطلقة تشـمل كل الوسائل الحقيقية التي تؤدي بناء الى الله ، والى أسـمائه الحسنى من العلم والقدرة والمحبة والجمال.

وغيرها ، فالصــلاة والصــيام والحج والزكــاة والصــدقة والفــداء وســيلة ، والتــأليف والخطابة والتوجيه الى الله وسيلة ، وهكذا.

وكما تتنوع الوسائل الى الله تختلف مواهب الإنســان الــتي يجب على كل شــخص ان يفجرها جميعا والا يــدخر منها شــيئا ... فــان الموهبة الــتي تــدخرها تبلى وتفــنى ، والطاقة التي لا تصرفها اليوم لا تستطيع ان تصــرفها غــدا لأنها فــنيت ، لــذلك يجب الجهــاد ومقاومة كل العقبــات النفسية التي تعترض طريق الإنسـان الصـاعد الى الله ... الى الرفيق الأعلى.

(**وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

لا للفداء :

[36] ان هذه الطاقات والامكانات التي نملكها اليــوم ، انما هي وقود مسيرتنا المتصــاعدة الى ربنا العزيز ، فلو بخلنا بها فلنعلم انها لا تخلد لنا ولا تبقى ، ونبقى نحن وذنوبنا التي نود غدا ـ في يوم البعث ـ ان ينقــذنا منها الله ، حتى ولو كان ذلك بإعطاء كل ما نملك ، ولكن هل نملك في ذلك اليوم شيئا؟!

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَــــرُوا لَــــوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَــةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

اذن دعنا نســـــتخدم ما خوله الله لنا من طاقـــــات وامكانـات في سـبيل الوصـول الى الله ، ونجعلها وسـيلة التصاعد ، ولا نجعلها ـ كما يفعل الكفـار ــ حجابا بيننا وبين ربنا العزيز.

[37] من شدة الألم في عذاب يــوم القيامة ، لا ينفك الكفار المعذبون هناك

من محـــــــاولاتهم اليائسة للخلاص من العـــــــذاب ، وتلك المحـاولات الـتي لو بـذلوا شـيئا بسـيطا منها في الـدنيا ، لأنقذهم الله بها في هذا اليوم.

(**يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُـوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخـارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ**)

مستمر وغير منقوص.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تــابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (39) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللــهَ لَــهُ مُلْــكُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40)

كيف نحقق الأمن الاجتماعي

هدى من الآيات :

في سياق ذكر الجرائم وعقوبتها ، التي بـدأها القـرآن في الدروس السابقة ، يبين القرآن جريمة السـرقة الـتي هي اعتـــداء غـــير مســـلح على أمن المجتمع ، فيحكم بضرورة قطع اليد جزاء لما ارتكبت من جريمة ، نكالا من الله.

ولكن لا يعـــني إنـــزال هـــذه العقوبة الشـــديدة على السـارق الغـاء شخصه من قائمة المجتمع ، بل إذا تـاب وأصـلح ماضـيه فـان الله غفـور رحيم ، وكـذلك ليست العقوبات في الإسلام تشفيا وانتقاما.

ومغفرة الله تتناسب مع مقدرته وملكوته ، وان له ما في السموات والأرض لـذلك يعـذب من يشـاء ويغفر لمن يشاء ولذلك يجب ان لا يبخل البشر في كرم ربه الواسع.

بينات من الآيات :

[38] حين تمتد يد خائنة الى ملك الآخـرين فانها تمتد الى الأمن في البلد

وتجعل كل فـرد قلقا على مصـير جهـوده الـتي حصل بها على هذا المال ، بالضبط كما ان قتل نفس واحــدة بمثابة قتل النــاس جميعا ، لأنه يهـــدد امن المجتمع كله ، وحين ينعدم الأمن في البلد لا يجد الناس ذلك الدافع القوي نحو بناء وطنهم ، وتفجير طاقاتهم ، وتخزين ثروتهم للمستقبل ـ من هنا كان جزاء السارق شديدا في الإسـلام ــ بـالرغم من انه لا يبلغ قســاوة العقوبــات الــتي فرضــتها بعض الانظمة بقتل الســارق ، انما يــوجب قطع يد الســارق لتكون جزاء وعبرة.

(**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَـزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)

حد القطع :

ويقـول الفقهـاء انه تقطع أصـابع اليد اليمـنى فيما لو كـانت السـرقة من حـرز ، ويبـدو لي ان العقوبة يجب ان تقتصر على أقل قــدر ممكن ، وأقل ما في اليد الأصــابع كما ان الســرقة من غــير حــرز قد لا تعتــبر ســرقة في مفهوم العرف.

والدولة الاســـلامية مظهر لعـــزة الله وقوته وقدرته وحاكميته ، كما هي مظهر لحكمة الله وهـــداه وصــــلاح نظامه وتشريعه.

الهروب إلى التوبة أسلم :

[39] في كل جريمة ، الهـــدف الاساسي للإســـلام تزكية المجتمع منها ومن آثارها ، وليس الهــدف الانتقــام من الفاعلين من هنا يفتح الله امام المجرمين بـاب التوبة ، ولكن يشـترط عليهم الا تكـون تـوبتهم لفظية ، بل توبة نصوحا تتجلى في

إصلاح الفساد الذي عملوه بجريمتهم.
(**فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللـهَ يَتُـوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

حقيقة التوبة :

اما من تـرك السـرقة ولم يـدفع الأمـوال المسـروقة الى أصحابها ، أو ترك السرقة لصعوبتها واشتغل بالاحتيال والرشـوة والفسق فـان توبته ليست حقيقية ، ولا تسـعه رحمة الله التي وسعت كل شـيء والله غفـور يطهر قلب الإنسان ووجدان المجتمع ، وصـحيفة الأعمـال ، يطهر كل ذلك من اثـار الـذنب الـذي ارتكبه الفـرد حـتى كأنه لم يرتكب ذنبا ، والله رحيم يتفضل على التائب الذي تستقيم سيرته بالنعم والرخاء والسعادة الـتي زعم انه يجـدها في ارتكاب المعصية.

[40] والله لا يخشى النـاس ، ولـذلك لا يتعامل معهم بظلم أو بقسوة ، والدولة الاسلامية يجب ان تكون كـذلك لا تندفع نحو الإرهـاب خشـية النـاس ، وخوفا من قيـامهم ضـدها. كلا. بل يجب عليها ان تتـوب عليهم إذا أصـلحوا ، وتعتمد على قدرة الله الواسعة.
(**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللـهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَـذِّبُ مَنْ يَشـاءُ وَيَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

ولان قدرة الله واسعة وملكه عظيم ، فعلى الإنسـان ان يـــرهب جانبه ويتقيه ولا يســتهين بـــأوامره وتعاليمه ســبحانه ، كما ان عليه ان يتوكل على الله في اكتســاب المعاش دون خوف من فشل أو انتكاس.

وبكلمة ، ان معرفة أسـماء الله الحسـنى ومن أبرزها .. رحمته وقدرته ، تنعكس

على السـلوك البشـري في صـورة صـفات مثلي. لـذلك يـذكرنا القـرآن بها قبل وبعد بيـان الأحكـام ، وعلينا ان نتذكرها كلما أردنا تربية أنفسـنا أو مجتمعنا على السـلوك الحسن.

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قـالُوا آمَنَّا بِـأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُـؤْمِنْ قُلُـوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَـذِبِ سَـمَّاعُونَ لِقَـوْمٍ آخَـرِينَ لَمْ يَـأْتُوكَ يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْـدِ مَواضِـعِهِ يَقُولُـــونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هـــذا فَخُـــذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَـــوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِـكَ لَـهُ مِنَ اللـهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُـوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَـذابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ

---

43 (**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**) : قابلون له يقال لا تستمع من فلان قوله اي لا تقبل ومنه سمع الله لمن حمده اي تقبل الله منه.

فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْــطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللــهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43)

للسحت : أصل السحت الاستنصال يقال سـحته وأسـحته اي استأصـله ويقال للعالق أسحت اي استؤصل

حواجز تطبيق الشريعة

هدى من الآيات :

في سياق الحديث عن الأحكام الاسلامية يبيّن القرآن الحكيم طائفة من الحــواجز النفســية والاجتماعية الــتي تقف في طريق تنفيذ هذه الأحكام وهي كالتالي :

أولا : النفــاق وانعــدام الإيمــان الحقيقي الــذي يجعل صاحبه يسارع في خرق القوانين ، والعمل بأنظمة الكفر.

ثانيا : الكفر الذي يبديه بعض أهل الكتاب مثل اليهــود الـذين يسـمعون أبـدا الكـذب ، ويسـتلهمون أفكـارهم من الأجـانب. الـذين يحرفـون الكلم بعد ان وضـعت مواضـعها الصحيحة يخططون لهؤلاء ويأمرونهم باتباع أفكار معينة.

وهؤلاء أراد الله فتنتهم وإضلالهم لأنهم سـلفا اختـاروا ذلك ، فلا ينفع معهم

الكلام ، والسبب أن قلوبهم مريضة غـير نظيفة ، ولهـؤلاء خزي وذلة في الدنيا ، وعذاب مؤلم في الاخرة.

ثالثا : ومن صـفات هـذه الفئة أنهم يرتـاحون للكـذب ويأكلون السـحت ، وعلى الرسـول الا يهـادنهم فأما يحكم بينهم بالحق أو يعرض عنهم دون ان يرهب جانبهم ، والله يحب المقسطين الذين يحكمون بالعدل.

ومن الواضح ان مجيء هؤلاء الى الرسول ليس قربة الى الله ، بل لكي يجدوا مهربا من الأحكام الموجودة في التوراة.

بينات من الآيات :

(**لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**) :

[41] حين يكــون الإســلام مجــرد لقلقة لســان نجد الكثيرين يـدّعون الإسـلام ، ولكن إذا حـانت مرحلة العمل تجد الكثيرين منهم يسارعون في الكفر ، ويخالفون تعاليم الســماء ، ويتبعــون الأنظمة الطاغوتية الفاســدة ، وعلى القيادة الا تشعر بـوهن بسـبب مسـارعة هـؤلاء في الكفر لان ذلك لا يـدل على ان جهتها قد ضـعفت الآن ، بل على انها كانت هكذا بسبب وجود هذه الفئة المنافقة فيها.

(**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسـارِعُونَ فِي الْكُفْـرِ مِنَ الَّذِينَ قـالُوا آمَنَّا بِـأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُـؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**)

والكفر في هـذه الاية هو الكفر في الآية 44 حسـبما يــدل عليه الســياق ، والــذين يســارعون في الكفر قد يكونــون من المنــافقين ، أو من الــذين هــادوا (الطــابور الخــامس في المجتمع الاســلامي) وهــؤلاء يســتلهمون افكارهم ومناهجهم من

الأجانب غير الحاضرين في الساحة.

اليهود وصناعة الأفكار :

(**وَمِنَ الَّذِينَ هـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلْكَـذِبِ سَـمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ**)

كلمة (السـماع) تـدل على حالة نفسـية تـدفعهم الى البحث عن الكذب لتقبله ، وذلك بسبب انحرافهم النفسي من الحقيقة ، ووراء هذه الفئة مجموعة اخرى هم كبارهم واسـيادهم وأولئك يضـعون لهـؤلاء ثقافة منحرفة ، ويأمرونهم بـان يتخـذوها مقياسا لهم. فـان كـانت الأفكـار التي يسمعونها من الرسول (ص) تتفق وإياها ، فليأخذوها والا فليرفضوها.

(**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ**)

اي بعد ان اسـتقرت الكلمة في مسـتقرها. مثل ان تكـون الكلمة قد توضح معناها ، ثم يحرفونها أو تكـون الكلمة قد حـرف مصـاديقها الواضـحة ، ثم ابتـدعوا لها مصاديق اخرى غير صحيحة.

(**يَقُولُـونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هـذا فَخُـذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَـوْهُ فَاحْذَرُوا**)

ويبقى سؤال لماذا لم يستفد هؤلاء شيئا من الرسـالة الجديدة ، أليست الرسالة هدى ونـور؟! لأن قلـوب هـؤلاء مملـوءة بثقافـات غريبة وبعيـدة عن الحقيقة قد اختاروها لأنفسهم ولتحقيق اطماعهم وشهواتهم ، لـذلك اختـار الله لهم الضلالة ، ومن اختار الله تضليله فان الناس لا يمكنهم هدايته.

(**وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَـيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ**

يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ)

وتـوحي هـذه الآية بـأن تطهـير القلب شـرط مسـبق لهداية الله.

[42] والفئة الضالة التي تفسد آراء الناس ، هم كبـار الأحبـار الفسـاق ، ورجـال البلاط وكبـار الاقطـاعيين ومن أشبه. وهم بؤرة الفساد الـتي تتجمع فيها ضـلالات الأولين والآخــرين ، لأنهم يبحثــون عنها ليجعلــوا منها حجابا بينهم وبين الرسالة فهم :

(**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**)

لأنهم يعرفون ان الرسالة تحمل هدى ونـورا وبالتـالي تعطي النـاس ثقافة غنية سـليمة ، والنـاس لا يمكنهم ان يعيشوا في الفـراغ ، ولـذلك لا بد من خلق ثقافة باطلة أو استيراد ثقافة باطلة لتملأ فراغ الناس الفكـري ، ولـيزعم الناس : انهم وصاحب الرسالة سـواء في الفكر والعمل ، حتى لا يستهوي علم صاحب الرسالة وهـداه جمـاهيرهم ، وحين يريد الطاغوت صـناعة ثقافة باطلة ليجعل أمـام كل حق رسـالي بـاطلا من نفسه ، فانه يبحث عن الكـذابين والدجالين في كل مكان حتى يستخدمهم في هذه المهمة القذرة. من هنا يصبح سماعا للكذب.

وانما يهـــدف من وراء ذلك الوصــــول الى اهدافه الرخيصة في بعض المتاع الـذي يسـميه القـرآن بالسـحت فيقول :

(**أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**)

السحت لغويا : القشرة العفنة المنفصـلة عن الجسد ، المليئة بالجراثيم الفاسـدة ، وما يأكله هـؤلاء من أمـوال المستضعفين. هو ذلك السحت الذي يفرزه الوضع

الفاسد ، والذي لا يزيد صاحبه الا تبارا.

واجب الرسول :

ويأتي هؤلاء الى الرسول لا لكي يستفيدوا بل ليجـدوا عنده ما يبرر لهم ترك دينهم ، ورفض إحكامه السليمة.

(**فَإِنْ جـاؤُكَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْـرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَـيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)

وامام هـؤلاء يتخذ الرسـول (ص) والقيـادة الاسـلامية موقفا حازما ، فاما يعـرض عنهم دون خـوف من هجـره لهم واسـتهانته بهم ، أو يحكم بينهم بالقسط الـذي هو محض العدالة.

[43] ودليل كذب هؤلاء وريائهم حين يجيئون الرسول (ص) دليل ذلك انهم يـتركون كتـابهم المقـدس (التـوراة) التي فيها حكم الله والتي لم تكن قد حـرفت ذلك اليـوم ، ولكنهم يرفضـون الاحتكـام إليها ويـأتون لينـافقوا مع الرسول (ص).

(**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**)

لأنهم لا يطبقون كتابهم المقدس حين يخـالف آراءهم وأهواءهم.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُـدىً وَنُـورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْـلَمُوا لِلَّذِينَ هـادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبـارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتـابِ اللـهِ وَكـانُوا عَلَيْـهِ شُـهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكـافِرُونَ (44) وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِـالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَـهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

---

44 [الأحبار] : الأحبار جمع حـبر وهو العـالم ، مشـتقة من التحبـير وهو التحسين ، فالعالم يحسّن الحسن ويقبّح القبيح.

وَقَفَّيْنا عَلى آثـارِهِمْ بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُـدىً وَنُـورٌ وَمُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُـدىً وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْـلُ الْإِنْجِيـلِ بِما أَنْـزَلَ اللـهُ فِيـــهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْـــزَلَ اللـــهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (47)

46 [وقفينا] : القفو اتبـاع الأثر ، وانما سـميت قافية الشـعر قافية لأنها تتبع الوزن

وحدة الرسالات الالهية

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث التـوجيهي الـذي بـدأه الـدرس السابق حول أهمية الالتزام بأحكام الشريعة ، يـذكرنا الله بكتــاب التــوراة ، الــذي أنزله الله هــدى الى الصــراط المستقيم ، ونورا يطهر القلـوب ويجلي البصـائر وبالتـالي قيما يحكم وفقها النبيون عليهم السلام الذين أسـلموا لله وخضــعوا كليا لرســالاته ، وجعلت احكــام الله امانة في أعناقهم يراقبون تطبيقها ولا يخشـون أحـدا وهم يطبقونها ولا يساومون عليها أبدا.

وفي مقابل هـؤلاء هنـاك فئة لا تحكم بما انـزل الله ، بل تخضع للقوى أو للضغوط أو للاغراء.

ومن بين ابرز الأحكام الموجودة في التوراة القصاص : (**أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**) ،

(**وَالْعَيْنَ بِـالْعَيْنِ ، وَالْأَنْـفَ بِـالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِـالْأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ ، وَالْجُـرُوحَ قِصـاصٌ**). دون اي علاقة بانتماءات الشـخص وطبيعته وعنصـره وقومـه. بلى يمكن ان يتصدق صاحب الحق على الجاني وهذه الصدقة تعتـبر كفارة لذنوبه ، اما أولئك الذين يخـالفون حكم القصـاص ، ولا يقاصون من الاشراف للضعفاء فإنهم ظالمون ، وجـاء بعد موسى عليه السلام عيسى بن مريم يصدق ما سـبقه من التـوراة ويحمل معه الإنجيل الـذي كـان هـدى ونـورا ، وكان على خط التوراة تماما فيه هدى ومواعظ للمتقين ، بيد ان فريقا من النــــاس لم يطبقــــوا الإنجيل ، وهم الفاسقون.

بينات من الآيات :

التوراة نور وهدى :

[44] لماذا انزل الله التـوراة ومـاذا كـان فيهـا؟ ومن الذي حمل امانتها بصدق؟

اولا : لقد انــزل ربنا التــوراة للهداية الى الصــراط القويم ، وللتزود برؤى وبصـائر ومنـاهج وتوجيهـات يتمكن الإنســان إذا اسـتوعبها ان يــرى الحقــائق بنفسه ، لا ان يهتدي إليها فقط وهكذا كانت التوراة هدى ونورا.

(**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ**)

ولـذلك يجب احـترام التــوراة واحـترام من يعمل بها حقيقة.

ثانيا : كــان النــبيون عليهم صــلوات الله يحكمــون بالتوراة ، ويشرعون الأحكـام الدائمة والتوجيهـات اليومية انطلاقا من قيم التــوراة ، وانما أوتي النــبيون الحكومة والقيـادة لأنهم أسـلموا لله وكـانوا معصـومين عن الخطأ والزلل.

ثالثا : الذين كانوا يخضعون للتوراة هم الـذين هـادوا ، والحكم انما كان لمصلحة هده الفئة وليس في ضررهم.
رابعا : بعد النبـيين كـان الأوليـاء والعلمـاء يحكمـون الناس وفق التوراة.

الائمة والعلماء :

(**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْـلَمُوا لِلَّذِينَ هـادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ**)

والربانيون ـ حسبما يبـدو لي ـ هم أوليـاء الله الـذين ينسـبون الى الـرب ، لأنهم كـانوا في منتهى الإخلاص والتضحية ، وكـانوا يجسـدون روح الرسـالة كأمثـال الائمة عليهم السلام ، والحواريين في التاريخ ، والصفة الظاهرة لهؤلاء هي قيامهم لله ، وتمحضهم في ذات الله ، بـالرغم من انهم كـانوا علمـاء بالـدين أيضا ، وقد جـاء في حـديث مأثور عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة :

(ان مما اسـتحق به الامامة التطهـير والطهـارة من الذنوب والمعاصي الموبقة. الـتي تـوجب النـار ، ثم العلم المنور (وفي نسـخة المكنـون) بجميع ما تحتـاج اليه الامة من حلالها وحرامها والعلم بكتابها خاصة وعامة ، والمحكم والمتشـابه ، ودقـائق علمه ، وغـرائب تأويله ، وناسـخه ومنسوخه).

(يقول راوي الحديث) قلت : وما الحجة بان الامـام لا يكون الا عالما بهذه الأشياء التي ذكرت؟ قال :

قـول الله فيمن اذن الله لهم في الحكومة وجعلهم أهلها :

(**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُـــدىً وَنُـــورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْــــلَمُوا لِلَّذِينَ هــــادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ**)

فهذه الأئمة دون الأنبياء الذين يربون الناس بعلمهم ، واما الأحبار فهم العلمـاء دون الربـانيين ، اما الأحبـار فهم الفقهاء العدول الذين كانوا دون الربانيين درجة لكن وجب على الناس اتباعهم في غياب من الربانيين.

صفات العلماء :

وقد كانت قيادة هذه الفئة للناس على أسـاس وجـود صـفات الفقه والعدالة والتصـدي فيهم اما الفقه والعدالة فتدل عليهما كلمة :

(**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ**)

اي بسـبب انهم كـانوا أمنـاء على كتـاب الله ، وأيضا بقـــدر حفظهم لكتـــاب الله دراسة وتطبيقا فكلما كـــان الشخص أوسع فقها وأشد تقوى كانت قيادته أكـبر وأوسع مدى ، واما التصدي للقيادة فيدل عليها قوله سبحانه :

(**وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ**)

اي شهداء على تطبيقه ورقباء على النـاس في مـدى تنفيذهم له ، ولكن لا يمكن ان يبلغ العلماء هذا المســتوى الأرفع الا إذا تجـــاوزوا عقبــتين الاولى : خشـــية النـــاس والثانية : اغراءات الدنيا.

(**فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْـتَرُوا بِآيـاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**)

شيئا عاليا جدا.

(**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْـــــزَلَ اللـــــهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ**)

اي أولئك العلماء الذين يستسلمون لاغراءات الـدنيا ، أو خشـــية النـــاس فلا يحكمـــون بما أنـــزل الله ، فهم الكافرون ، لأنهم يهلكون ويهلكون الناس.

التشريعات التوراتية :

[45] ما هي احكـام الله الـتي أنزلها في التـوراة هل هي مجـرد الصـلاة والصـيام ـ كلا ـ انها شـرائع ، وانظمة للحيـاة مثل القصـاص الـذي تتجلى في تطبيقه سـائر الأحكــام الاجتماعية مثل المســاواة والعدالة ، ذلك لان المجتمع الطبقي لا يقتص للفقــير من الغــني ، والمجتمع العنصــري لا يقتص للـدني من الشــريف وللأســود من الأبيض ، والمجتمع الحــزبي لا يقتص للفــرد من الكــادر وهكـذا ، اما إذا أجـرى المجتمع حكم القصـاص فهو دليل على ايمانه بالعدالة ، وترفعه عن سلبيات التمايز باي نوع كان.

ولذلك فان بـني إسـرائيل فسـدوا ليس بسـبب عـدم صـلاتهم أو صـيامهم ، بل بسـبب عـدم تطـبيقهم الكامل لحكم القصاص ، حتى إذا قتل الشريف وضيعا لم يقتصـوا منه [1] لذلك جاء في الآية الكريمة :

---

(1) : جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السـلام ان امـرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من اشرافهم ، وهما محصنان فكرهـوا رحمهمـا. فأرسـلوا الى يهـود المدينة وكتبـوا إليهم ان يسـألوا النبي عن ذلك طمعا في ان يأتي لهم برخصة فانطلق قوم منهم. كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسـيد ، وشـعبة بن عمـرو ، ومالك بن صـيف ، وكنانة بن أبي الحقيق وغــيرهم فقــالوا : يا محمد أخبرنا عن الــزاني والزانية إذا احصـنا ما حـدهما؟ فقـال : وهل ترضـون بقضـائي في ذلك قالوا : نعم فنزل جبرائيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا ان يأخذوا به».

(**وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**)

دون ان يؤخذ في الاعتبار الطبقة أو شـرفها أو علمها أو ما أشبه.

(**وَالْعَيْنَ بِـالْعَيْنِ وَالْأَنْـفَ بِـالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِـالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ**)

فكل جرح يمكن تقديره يجب القصاص له.

والقصاص حق من حقوق المجني عليهم ، ويجوز لهم العفو عنه تقربا الى الله وتصـديقا بوعـده ولمن عفا عن أخيه مغفرة وكفارة لذنوبه.

(**فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

حقيقة التبديل :

يبـدو لي ان تبـديل حكم مثل القصـاص في المجتمع يعتبر ظلما اجتماعيا ، لأنه يقضي على العدالة والمسـاواة في المجتمع ، ولكن هـذا التبـديل إذا كـان في مسـتوى التشريع وقام به العلماء والأمـراء فهو كفر كما سـبق في الآية السـابقة ، بينما إذا كـان تبـديل حكم مثل الصـدق والوفاء والامانة وسـائر المواعظ الموجـودة في الإنجيل ، فهو فسق كما ياتي في الآيات التالية.

الإنجيل صنو التوراة

[46] وأرسل الله عيسى بن مـريم عليه السـلام بتبع آثـار النبـيين السـابقين في خط الهي واحد لا ينحـرف وصدق عيسى برسالات الأنبياء ، وجاء بالمزيد منها ،

فمثلا في الإنجيل الذي كان فيه ـ كما في التـوراة ــ هـدى يهدي الناس الى سبل السلام كما كان فيه نور يثـير دفينة العقل ، ويسـتجلى غبـار الضـمير ، ويبلـور قيم الفطـرة ، حتى يرى النـاس بأنفسـهم السـبل الـتي هـداهم إليها الله برسالاته.

(**وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**)

اي جعلناه يقفو ويتبع أثر الأنبياء ..

(**مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ**)

وهـذا يـدل على وحـدة الرسـالة الالهية ، وتكاملها مع الأنبياء وضرورة احـترام أهل الكتـاب وكـان الإنجيل يحمل بين دفتيه تصديقا بما تقدمه من كتب وفيما بينها التوراة ، ويضـــرب الأمثـــال الواقعية ليتـــذكر النـــاس وليتعظـــوا وليعتبروا.

(**وَمُصَـــدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْـــهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُـــدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**)

إذا اتقى الفرد أو لا أقل أراد ان يكون بعيدا عن الشر استمع الى الموعظة واستفاد منها ، اما الشقي فانه يصم عن المواعظ.

[47] وإذا كـانت رسـالات السـماء واحـدة مع اختلاف بسيط في التفاصيل الـتي بـالرغم من اهميتها من الناحية التشريعية ، إلا أن الأحكام اللاحقة تنسخ الأحكام السـابقة لأنها اولى بالظروف المتجددة وهي بـالرغم من ذلك غـير هامة ، إذا لا حظنا محتـوى الرسـالات وروحها التوحيدية ، واهدافها السامية من الاطارات والطقوس ، وكـذلك إذا لا حظنا هـــذه الحقيقة وهي ان خضـــوع البشر لرســـالات السماء يجعله يقترب شيئا فشـيئا الى الايمـان بها جميعا ، فمن امن واقعا

بـــروح رســـالة الله الهابطة على موسى وعيسى عليهما السلام لا يمكنه الكفر برسالة محمد صــلى الله عليه واله ، لأنهما تصــدران من منطلق واحد وتشــعان من مشــكاة واحدة ، لذلك امر الله أهل الكتاب باتباع رسالاتهم.

(**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**)

وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جـاءَكَ مِنَ الْحَـقِّ لِكُـلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهاجـاً وَلَـوْ شـاءَ اللـهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُـونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْـــزَلَ اللـــهُ وَلا تَتَّبِـــعْ أَهْـواءَهُمْ وَاحْـذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْـزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ

---

48 [مهيمنا] : الهيمنة السيطرة [شرعة] : الشرعة ابتداء الطريق.
[منهاجا] : المنهاج الطريق المستقيم.

بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِـقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللـهِ حُكْمـاً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)

فاستبقوا الخيرات

هدى من الآيات :

أنزل الله القرآن ليبين ذات الرسـالة الالهية الواحـدة التي هبطت على موسى وعيسى والنبيين عليهم السلام ، وليكشف الحق القائم في واقع الحياة ، وفي ذات الـوقت الذي يصـدق القـرآن بـالكتب السـابقة فهو يكملها ويهيمن عليها ويحمل من القيم والشرائع أكثر وأفضل منها ولذلك يجب إتباعه ورفض أهواء الناس التي تخالف الحق.

ولقد جعل الله لكل امة شـــــــريعة ومنهاجا وطريقا يصــلون عــبره الى الحق ، وكــان من الممكن ان يجعل الناس في صـورة امة واحـدة ، ولكن لاختلاف إنما هو من أجل ابتلاء النـاس وبهـذا الاختلاف الـذي لو اسـتغل حسب سنة الله ، لأصبح وسيلة للتنافس البنـاء ، وتسـارع الجميع نحو الخيرات ، وغدا عند الله يعرف كل فرد هل كان على حق أو باطل.

وعلينا جميعا إتباع أحكام الله دون أهـواء هـذا أو ذاك من الذين يحاولون تضليل البشر ، أما أولئك الذين يتولون عن الرسـالة ، فـان سـبب ذلك ذنـوبهم الـتي رانت على قلوبهم ، حتى حجبتها عن الحقيقة ، وأنهم فاسقون.

إنهم يريدون تطبيق أحكام الجاهلية التي هي انعكاس عن التخلف والرجعية والظلم ، ويتركون أحكام الله تعتمد على العلم والايمان وبالتالي اليقين.

بينات من الآيات :

الكتاب الحق :

[48] كما أنزل الله التوراة والإنجيل ولنفس الأهداف ، أنزل الكتاب (القرآن) الذي يتصل بالحق اتصالا عضويا ، فهو حق يتطـابق وسـنن الحيـاة وأنظمة الكـون وفطـرة الإنســان ، ووســيلته الحق وهو العمل الصــالح والايمــان والفــداء ، وهدفه الحق وهو فلاح البشر وســعادته ، وربما كــانت لفظة (البــاء) دالة على هــذا التفاعل بل الوحــدة التامة بين الكتاب والحق ، لأنه حق أصلا ووسيلة وهدفا.

(**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ**)

والكتاب يصدق ما أنزل في الكتب السابقة ، مما يدل على وحدتها سـلفا ، ولكنه يهيمن عليها ، ويكمل ما سـبق منها ويسيطر عليها.

(**مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**)

فـاذا كـان الإنجيل غامضا فيما يتصل بمنهج ما ، فـان تفصيله في القرآن.

لما ذا الاختلاف؟!

ويبــدو لي : أن القــرآن الكــريم أخذ يعــالج مســألة الخلافـات البشـرية بصـفة عامة هنا ، بمناسـبة الاختلاف القـائم بين كتب السـماء ، وأتبـاع الـديانات السـماوية ، وأجـــاب على هـــذا الســـؤال لمـــاذا يختلف النـــاس في ممارساتهم؟!

بإجابة واضحة نفصلها في عدة نقاط :

ألف : إنّ كل أمة تتمـــيز بممارســـات حياتية مادية ومعنوية خاصة ، فاقتصاد كل امة واجتماعياتها وسلوكياتها الفردية (وسـائر ما تسـمى بالشـرعة) تختلف عن غيرها ، كما أن لغتها وثقافتها وتطلعاتها (وســـــائر ما يســــمى بالمنهاج) تختلف عن غيرها.

باء : إنّ هـذا الاختلاف فطـري نـابع من خلقة البشر ، وطبيعة اختلاف الحياة ، وانعكاس هذا الاختلاف على كيان البشر ، والا فــان الله قــادر على أن يجعل البشر ـــ كما الطيـور والأسـماك وما أشـبه ــ أمة واحـدة دون اختلاف يذكر فيما بينهم.

جيم : والاختلاف نافع للحيـاة البشـرية لأنه يـدعو الى التنافس والتسارع الى الخيرات ، إذ كلّ طائفة تسعى من أجل معرفة أفضل بأنظمة الحيــــاة ، ووســــائل أفضل لتســخير إمكاناتها بهــدف تحقيق التقــدم على الطوائف الاخرى ، ولـذلك نجد الحضـارات الكـبرى في التـاريخ إنما نشأت بسبب تصارع الطوائف مع بعضها ، تصـارعا خفيا لا يدعو الى التدمير داخل الامة الواحدة.

دال : إن هـذا الاختلاف ينبغي ألا يجعل عـدوا رئيسـيا يستهدف كلّ فريق

القضاء عليه بالقضـاء على صـاحبه أو بالجـدليات الكلامية كلا. بل ينبغي ان يـترك الحكم على عاقبة الاختلاف ونهاية الصراع أن يكون لهذا أو لذلك يـترك ذلك الى الله واليـوم الاخر حـتى لا توجه هـذه الطاقة البنّـاءة (طاقة الصــراع والتنـافس) الى الـدمار والهلاك ، فيصـبح هـدف كل فريق القضـاء على مكاسب الفريق الآخر كلا. بل ليكن هم كـلّ فريق الحصول على مكاسب أكبر من صـاحبه في ميـدان الحياة الرحيب الذي يسع الجميع دون تضايق.

إنّ حكمة الله في إيجاد الناس مختلفين هي اختيارهم في مدى القوى الذاتية ، والامكانات الطبيعية الـتي وفرها لهم لكي يعلم أيّ الفـريقين أكـثر معرفة وعلما بالحيـاة ، وأفضل تســخيرا لها وبالتــالي أكــثر إيمانا ، وأفضل عملا صالحا.

(**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْـزَلَ اللـهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِ**)

ويجعل العلم في القرآن في مقابل الهوى لأن الأهواء هي الحجب الكثيفة الـتي تمنع الإنسـان من الوصـول الى الحق.

(**لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً**)

بـالرغم من ان الشـرعة والمنهـاج بمعـنى واحد وهو الطريقة حتى قالوا : بأنهما مترادفان بالرغم من ذلك فان المنهــاج هو : الطريق المســتقيم ، بينما الشــريعة هي : الطريق العريض الواضح ، فيتبادر ان المـراد بالمنهـاج هو ما يخص الأمـــور المعنوية (والــتي نســميها بالثقافــة) باعتبارها لحـاظ الاسـتقامة في الحكمة ، بينما المـراد من الشريعة هو الأمور المادية والله اعلم.

الأهداف البعيدة للاختلاف :

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ**)

ليخـــرج طاقـــاتكم وطبـــائعكم الكامنة ، ومـــدى استقامتكم.

(**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ**)

وهذا هو هـدف الاختلاف البعيد وهو : التنـافس البنـاء من أجل الوصول الى الخيرات ، اما الخلافات فلان :

(**إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعـاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيـهِ تَخْتَلِفُونَ**)

لــذلك دعوها جانبا ، ولا تتعبــوا أنفســكم في محاولة إنهائها أو إثبات كلّ فريق بأنه أحق من غيره.

[49] ولا يعــني الســلام مع ســائر الأمم وفق هــذه الرؤية الرسالية البنـاءة ، التنـازل لاهـوائهم وانحـرافهم أو الخضوع لضغوطهم بل يعني المزيد من الالـتزام بالاحكـام والتطبيق العملي لاستباق الخيرات والتنافس البناء.

(**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْـــزَلَ اللـــهُ وَلا تَتَّبِـــعْ أَهْـواءَهُمْ وَاحْـذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْـزَلَ اللهُ إِلَيْكَ**)

تسريب الثقافة الباطلة :

إن المنافســين والأعــداء يســعون من أجل تســريب أفكارهم وثقافاتهم الى الامة الاسلامية في حالات الســلم القائمة بينهم وبين المسلمين ، لـذلك فـان القـرآن يوصي بضرورة اتخاذ جانب الحذر حـتى لا يتـأثر المسـلمون بتلك الأفكار.

وعلى المسلمين ألّا ينبهروا بالحياة الآمنة الــتي يظهر وجودها عند الكفــار أو الأمم الاخــرى ، لان هــذه الحيــاة سوف تتحول الى جحيم بسبب ذنوبهم ، ولذلك

يجب التحصن ضد التأثر بهم ، وتقليد أفكارهم أو عاداتهم.

(**فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَـاعْلَمْ أَنَّما يُرِيـدُ اللـهُ أَنْ يُصِـيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ**)

تصدير الإسلام :

[50] إنّ الامة الاســلامية تســعى من أجل تصــدير برنامجها ورسالتها بالنموذج المتكامل الـذي تصـنعه حياتها الخاصة ، ولذلك فهي لا تحتاج دائما الى شنّ الحروب ضد الأمم الاخــرى ولكن هــذا التصــدير غــير ممكن من دون تحصن أبنــاء الامة عن تســرب أفكــار وبــرامج الآخــرين الجاهلية إليها ، وذلك بان تعرف الامة ان حكم أولئك حكم جاهلي عفن قد أكل الـدهر عليه وشـرب وانه لا يمكن ان يستمع اليه المسلمون.

(**أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**)

يريــــدون الجاهلية ، والجاهلية هي الحكم الــــذي لا يســـتمد أصــوله من العلم. والعلم بــدوره نــابع من أحد المصدرين العقل أو الوحي.

(**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)

ايّ لأولئك الــذين يبلغ بهم العلم درجة اليقين ، وهــذا أرقى درجـات العلم بالحقيقة ، فقد يكـون هنـاك علم من دون يقين كأن تطمئن نفسك الى الحق بعيــدا عن دواعي الشهوة والغضب.

والحكم المثــالي في رؤية الإســلام هو : الحكم الـذي تكون برامجه نابعة من العلم

(الآتي بـــدوره من العقل أو الـــوحي) بشـــرط أن يكـــون تطبيق هذه البرامج من قبل النـاس معتمـدا على الالـتزام الـذاتي والـواعي الـذي يـوفره اليقين ، لـذلك أكـدت الاية على أن أحسن أنـــواع الحكومة هو حكم الله بشـــرط أن يطبقه أهل الوعي واليقين لا أن يفرض على الناس فرضا ... أو يتبعه الناس تقليدا أعمى.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (53)

---

52 [دائرة] : الدائرة هاهنا الدولة التي تتحول الى من كانت له عمّن في يده.

الكفار بعضهم أولياء بعض

هدى من الآيات :

بــالرغم من ضــرورة إقامة الســلام ، بين الفئــات المؤمنة بالله ، على اختلاف منــاهجهم وشــرائعهم ــ كما أكده الدرس السـابق ـ فـان ذلك لا يعـني الخضـوع لهم ، واتخــاذهم أوليــاء ، وهم لا يهتــدون الســبيل الأقــوم لأنهم ظالمون لأنفسهم.

وأولئك الذين يسارعون الى اتخاذهم أوليـاء ، مبتلـون بمـرض قلـبي ، وهو الخـوف منهم لكي لا تصـيبهم دائـرة بســبب مخــالفتهم لأولئك ، والســؤال هو : إذا جــاء الله بـالفتح ونصر المسـلمين على أولئك أفليس ينـدم هـؤلاء على ما كتموه؟

وقد يمكن أن يغلب أولئك فيخونــوا بأتبــاعهم لأنهم لا يعتبرونهم منهم ، والذين آمنوا يشـمتون بالمنـافقين. كيف انهم وصلوا الى الطريق المسـدود؟ فهـؤلاء الكفـار دارت عليهم الــدائرة وحبطت أعمــالهم وأصــبحوا خاســرين ، خسروا الصراع كما خسروا أولياءهم.

بينات من الآيات :

الولاء المنحرف :

[51] يزعم بعض ضـعفاء الايمـان من المسـلمين انه يمكن ان يحتموا بقـوة اجنبية لمقاومة قـوة اجنبية اخـرى. مثلا يعتمـدون على النصـارى لمقاومة اليهـود ، وهـذا زعم خاطئ لسببين :

الاول : أن الاجنبي أقرب الى الاجنبي في الواقع منك ، وان اليهــود والنصــارى ســوف يتحالفــان ضــدك ، كما يتحـالف الشـرق مع الغـرب ضد مصـالح المستضـعفين ، وبالنســـبة إليك كمســـلم تملك شـــريعة مختلفة عنهما ومنهاجا متضادا معهما فانه يتساوى اليهود والنصــارى ، أو الشرق والغرب فهما معا بعيـدان عنك ، وعن مجتمعك ... مخالفان لك.

الثـاني : إنك حين تتحــالف مع هـؤلاء أو أولئك تصـبح جزءا من مجتمعهم ، وامتدادا لوجودهم وهذا يفصــلك عن مجتمعك المســلم ، لان أهم ما يحــدد هوية الشــخص هو ولاؤه فلا يجتمع ولاءان لفرد واحد لذلك قال ربنا :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصـارى أَوْلِيـاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**)

وربما يــــزعم مثل هــــذا الرجل انه يتمكن من ربح الجهتين معا فهو في الظاهر من المسلمين ، وفي الباطن يــوالي الاجنــبي ، ولكنه خــاطئ لأنه يظلم بفعله هــذا مجتمعة ، ولـذلك لا يهديه الله لان القلب المليء بالنفـاق والغش والغلّ لا يشع فيه نور العقل.

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

[52] من الذي يوالي الاجنبي؟
إنه الفــرد أو الطبقة المنهزمة نفســيا أمامه ، والــتي تخشى قــوة الاجنــبي ، وســيطرته في المســتقبل على أوضاع البلد فتتعاون معه.
(**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ**)
أي مكروه ، أو سلطة العدو.

انتظار الفرج :

ولكن ربنا يقــول : ان هنــاك احتمــالا وجيها آخر هو الانتصار الكاسح للمسلمين عليهم أفلا يخشون المسلمين إذا!
(**فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ**)
بأن ينصر المسلمين على أعدائهم.
(**أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ**)
كعذاب شديد يصيب الكفار ليس على أيدي المؤمنين ، بل عن طريق زلزال أو خسف أو مرض.
(**فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ**)
لأنهم اعتمــدوا على قــوة ضــعيفة ، وتركــوا ولاءهم المقدس لسراب خادع.
[53] وآنئذ حين ينصر الله المسلمين أو يهلك الكفــار بأمره. يشمت المسلمون بالمنافقين ويقولون لهم : أكـان هؤلاء الكفار هم القوة التي تخالفتم معها بقوة ،

فهـذه مكاسـبهم قد ضـاعت في سـراب الشـرك ، وبقي رأسمالهم الوحيد الخسارة والندم!

(**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَـمُوا بِاللـهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ**)

أي بكل ايمـانهم ، وبأشد أنـواع الحلف وكـان محتـوى حلفهم.

(**إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**)

جميعا لأنهم كانوا مشركين.

(**فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكـافِرِينَ يُجاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْـلُ اللـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشـاءُ وَاللــهُ واسِــعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللــهُ وَرَسُــولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـلاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكـاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَـوَلَّ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ (56)

حزب الله

هدى من الآيات :

وجود عناصر منافقة توالي اليهود والنصارى في الأمة ، لا يعني ان الامة الاسلامية قد انتهت بل ان ربنا سبحانه سوف يهدي جماعة يتميزون بصفات الأعضاء الواقعيين لحزب الله ، وللمجتمع المسلم. أولها : ان الله يحبهم وهم يحبون الله ، والله يتفضل عليهم ، وهم يضحون في سبيله ، وانسجامهم مع بعضهم يبلغ درجة التواضع والإيثار ، فهم اذلة على المؤمنين ، ولكنهم يشعرون بالقوة والمنعة أمام الاجنبي الكافر فهم أعزة على الكافرين ، وجهادهم في سبيل الله دائم ونابع من ايمانهم الصادق بربهم وليس من تيار اجتماعي ، ولذلك فهم لا يخافون لومة لائم ، وهذه الصفات كلها من الله. من الايمان به والتوكل عليه ، وبالتالي من نعمته على البشر التي يتفضل بها على من يشاء من عباده ، والله واسع النعمة عليم بمن يستحقها.

وهؤلاء هم الذين يستحقون الولاية في المجتمع الاسلامي ، لان الولاية

الاساسـية هي لله وثم لرسـوله وثم للـذين آمنـوا الـذين يقيمـون الصـلاة ويؤتـون الزكـاة وهم راكعـون ومن يتخذ هـذه الولاية حقا فانه من حـزب الله ، وان حـزب الله هم الغالبون.

أما الكفار فحرام على المسلمين ان يتخذوهم أوليـاء لأنهم ليس فقط لا يصلون ، بل يستهزئون بالصلاة ، ولا بد ان يلتزم المسلم بعهده مع الله ويتقيه ولا يتولى الكفار أو أهل الكتاب.

وإنما يسـتهزئ هـؤلاء بالصـلاة لأنهم لا يعقلـون واقع الصلاة وعلاقتها بتزكية الإنسان ، وتربية المجتمع الفاضل.

بينات من الآيات :

صفات المجتمع الفاضل :

[54] لا تـزعم انك لو واليت الأجـانب فـان المجتمع الاسلامي سـوف ينطبع بطابعك ، أو سـوف يصـبح أقـرب الى الاجنـــبي ، كلا ... بل انك ســـوف ترتد عن دينك ، وتنفصل عن واقع المجتمع المسلم حتى ولو كنت ذا سمة بارزة فيه وذا منصب كبير ، إذ ان الله سـوف يـأتي بقـوم يجســدون ذلك المجتمع الفاضل الــذي يتسم بالصــفات التالية ..

اولا : ان الله يحبهم ، ولا يحب الله الشخص لذاته بل لتكامل الصفات الحسنة فيه ، من الايمان والعمل الصـالح ، وحين يحب الله أحدا تحبه ملائكته وأولياؤه ، ويســخر له ما في السماء والأرض لأنها مطيعة لله.

ثانيا : وهم يحبـون الله ، ويشـعرون بـان الله متفضل عليهم ، وان عليهم شكر ربهم بالعطـاء وبالصـلاة والزكـاة والجهاد ، وحين يصلون أو يزكون ويجاهدون فان عطاءهم هذا ليس جـبرا عليهم وإكراها بل طوعا واختيـارا لأنه نـابع من حبهم لله.
ثالثا : ولان علاقتهم بالله هي علاقة حب وهي أرفع درجـــات الانســـجام والتوافق فـــإنهم يحبـــون بعضـــهم ويتسـاهلون في علاقـاتهم. حـتى يـزعم النـاظر إليهم من بعيد ان الواحد منهم عبد للآخـــــــرين في علاقة التواضع والإيثار والابتعاد عن الذاتيات ، فهم أذلة على المؤمنين.
رابعا : أما علاقتهم مع الكفــــــار فهي علاقة المنعة والتحدي ، فهم أعزة عليهم صامدون أمامهم غير متـأثرين بأفكارهم ، وغير خائفين منهم.
خامسا : ونشـاط المجتمع المسـلم مكثف ، ويتحـدى الصــعوبات الداخلية والخارجية ، فهم أبــدا يجاهــدون في سبيل الله ضد سلبياتهم الداخلية وضد الأعداء الخارجيين.
سادسا : ان سلوكهم لا يتأثر بما يقوله الآخــرون ، بل بما تمليه عليهم افكارهم السليمة وبصائرهم النافذة لذلك فان الاشاعات لا تنال من جهادهم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ**)

فانه يخسر انتمـــاءه الى المجتمع المســـلم ، بينما المجتمع المسلم موجود ليس به وبأمثاله بل بمن يـأتي به الله.

(**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ**)

عن طريق هدايته لهم.

(**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَـةَ لائِمٍ**)

لان انتمـــاءهم الى المجتمع المســـلم يغـــنيهم عن الارتباط بسائر الناس غير المسلمين ، فلذلك لا تؤثر فيهم الشائعات والـدعايات وما يبثه المغرضـون حـول اهـدافهم المقدسة.

وهذا النموذج المتكامل يصنعه الايمان الصادق بالله ، وتطبيق مناهج الرسالة التربوية.

(**ذلِـكَ فَضْـلُ اللـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ واسِـعٌ عَلِيمٌ**)

ولأنه واسع فـــان نعمه كبـــيرة لا تحصى ، ولأنه عليم فهو يعلم من الذي يستحق بأعماله وبنيته الطيبة ... فضل الله سبحانه.

ولاية الله أهم مظاهر حزب الله :

[55] تلك كانت الصـفات الظـاهرة للمجتمع المسـلم أو بـالأحرى ـ الطليعة المسـلمة ـ أما واقع هـذه الطليعة فهو قبـــول ولاية الله في الســـماء والأرض ... في الغيب والشـهود ... في أمـور الاخـرة والـدين ، كما في شـؤون الدنيا والحياة ، وولاية الله تعني :

اولا : إخلاص العبودية له.

ثانيا : إتباع مناهجه.

ثالثا : أن يكون حب الفرد وبغضه لله وفي الله.
وولاية الله في الدنيا تتجسد في قيادة الرسول وخلفائه الائمة ، والربانيين ، والإحبار الصالحين.
(**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ**)

فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ :

[56] والذين آمنوا ، هم المجتمع الرسالي الأمثل الذي لا يتجاوز انتماء الفرد عن حدودهم ، بل يقتصر عليهم لكي تتشكل هذه الولاية بالاضافة الى تلك القيادة ـ الحزب الإلهي ـ.
(**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ**)
والسؤال : لماذا يغلب حزب الله سائر التجمعات؟
اولا : لأن إرادة الله العليا تشاء ذلك بان ينتصر حزبه على سائر الأحزاب ، وفي صراع المجتمعات الاسلامية والجاهلية شواهد على ان ما نسميه بالصدق (أو بالأحرى القدر الالهي) يلعب دورا أساسيا في انتصار الرسالة ، وما هي سوى ارادة الله العليا التي عبّر سبحانه عنها بقوله :
(**إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**)
ثانيا : إنّ حزب الله يعتمد على أساس القيم الحياتية التي تربي الفرد على اليقين والعمل الصالح والانضباط ، وهذه القيم قادرة على صنع الحضارة ..

ثالثا : أساس التنافس داخل المجتمع الاسـلامي ليس بالشخصـيات ولا الغـنى ولا العنصر ، وانما العلم والعمل ، اللـذان يعتـبران القيمتـان الاساسـيتان في هـذا المجتمع ، بينما أساس التنافس في سائر المجتمعات هي واحدة من تلك القيم الزائقة ، ومن الطبيعي ان يرتقي ذلك المجتمع الذي يتنافس أصحابه على العلم والعمل.

رابعا : أبرز ما يعطي المجتمعات التقـدم والاسـتمرار هو قدرتها على تجاوز التحديات الـتي تتعـرض لها من قبل الآخرين ، والمجتمع الاسلامي يتكئ على الجهاد والشهادة في مقاومة التحـديات وتجـاوز الصـراعات ، فيكـون أقـدر على الاستمرار والتقدم.

من هنا كان حزب الله ـ بالرغم من قلة أبنائه وضـآلة موارده في البداية أقـوى من حـزب الشـيطان على كـثرة عدده وعدته وهو الغالب عليهم.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تَتَّخِــذُوا الَّذِينَ اتَّخَــذُوا دِينَكُمْ هُــزُواً وَلَعِبــاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيـاءَ وَاتَّقُـوا اللـهَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (57) وَإِذا نـادَيْتُمْ إِلَى الصَّـلاةِ اتَّخَـذُوها هُـزُواً وَلَعِبـاً ذلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58) قُلْ يا أَهْـلَ الْكِتـابِ هَـلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59) قُلْ هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللـهِ مَنْ لَعَنَـهُ اللـهُ وَغَضِـبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنـازِيرَ وَعَبَـدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60)

عبد الطاغوت

هدى من الآيات :

لكي يصنع الإسلام سدا منيعا بين المجتمع الاسلامي ، والمجتمعـات الجاهلية ، حـتى لا يبتلى المجتمع بازدواجية الولاء. يحرم اتخاذ غيرهم أولياء من أولئك الـذين يتخـذون الدين الاسلامي هزوا ولعبا ، سواء كانوا كفارا مشركين أو كانوا من أهل الكتاب ، ويأمرهم بالتقوى والخوف من الله ، والحذر من عقابه.

ويذكرهم القرآن بان أولئك يتخذون الصلاة هزوا ولعبا وبسـبب عـدم انتفـاعهم بعقـولهم لم يعرفـوا مـدى اهمية الصلاة ، وهم ينكـرون على المسـلمين ايمـانهم بالله وبما أنزله الله من كتاب ، بينما أولئك أكثرهم فاسقون.

وعند التقييم العـادل يطـرح هـذا السـؤال : من الـذي شر مكانـــا؟ المســـلمون أم اليهـــود الـــذين لعنهم الله ، وغضب عليهم ، وهم يعبدون الطاغوت ،؟

من الطـبيعي ان هـؤلاء اليهـود هم شر مكانا وموقفا في الحياة الدنيا ، وابعد عن

طريق الحق ، وابعد عن الهدى.

بينات من الآيات :

لا توال هؤلاء!

[57] حين يكون مقياس الإنسان في تقييم الأشخاص والمجتمعــات هو مبــدؤه ودينه ورســالته ، يكــون ولاؤه للناس بقدر ولائهم لذلك المبـدأ والـدين أو تلك الرسـالة ، اما إذا كان المقيـاس مصـالحه العاجلة فانه قد يـوالي من يخـالف دينه ورسـالته ، أو حـتى يسـتهزئ بها أو يحـاول الانتقاص منها ، والاسـتهزاء هو أسـوأ أنـواع الانتقـاص من فكـرة أو شـخص ، حيث يـزعم المسـتهزئ ان سـخافة الفكرة أو رذالة الشخص قد بلغت حدّا لا يحتـاج الى دليل لردها ، بل الى كلمــات ســاخرة ينتبه الفــرد بعــدها الى واقعه وواقع فكرته غير الصالحين.

والقـرآن الحكيم ينهى المؤمـنين من تكـوين علاقـات ولائية بينهم وبين من لا يحترم دينهم ويقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُــزُواً وَلَعِبــاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ**)

الهزء : السخرية الظـاهرة ، بـالكلام واللعب ، واتخـاذ الشيء مادة للتلهية عمليا كتقليد حركات الصلاة اسـتهزاء ، أو أداء الصــلاة نفاقا (كما قــال بعض المفســرين) ومن المعلوم ان جميع اليهود والنصـارى أو أهل الكتـاب ليسـوا كذلك بل إن بعضهم هو الذي يستهزئ بالدين.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

فلا تدفعكم المصالح العاجلة الى الارتبـاط بمثل هـذه الفئات ، فان كرامة الإنسـان واسـتقلاله أعز شـيء عنـده ولا يجوز التنازل عنهما لا سباب مصـلحية مؤقته كما تفعل بعض الانظمة في بلاد المسلمين حيث يرتبطـون بـالغرب والشــرق أو بدولة إســرائيل الغاصــبة ، ويعقــدون معهم احلاف الولاء لبعض المصالح العاجلة ، في الوقت الـذي لا تني مؤسسات الغرب الثقافية والاعلامية وأحزاب الشرق العميلة وابواق إسرائيل عن النيل من الإسلام واهله.

والســؤال الــذي يفــرض علينا عــبر التـاريخ ودروس الحضارات البائدة والمجتمعات المتخلفة هو : كيف يحترم العالم مجتمعا لا يحترم نفسه ، وكم يفي العالم لمثل هـذا المجتمع الناقد لكرامته واستقلاله ، وكم يفي له بـالعهود ، والى متى تستمر له هـذه المصـالح العاجلة ، وأساسا هل تعني المصالح شيئا لمجتمع فقد كرامته؟!

[58] وحين ينــادي المــؤذن بالصــلاة تــرى هــؤلاء يستهزئون بها ويتغامزون بينهم ويقولون لبعضهم : انظروا الى المسـلمين يـتركون أعمـالهم لأداء شـيء غـير نـافع ، وهذا مثل ظاهر لما ذكرت في الاية السابقة.

(**وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**)

انهم لا ينتفعـــــون بما وهب الله لهم من نعمة العقل التي تدعوهم الى التفكر في فوائد الصلاة ، ومدى ارتباط سعادة البشر وفلاحه بها.

[59] بل ان هــزء هــؤلاء وإنكــارهم على المســلمين وتناقضهم معهم ليس من أجل المصالح المتضـادة ولا من أجل الاختلاف في الــدم واللغة كما يزعمــون بل من أجل الاختلاف في القيم والمبادئ ، وان المسـلمين امنـوا بالله وبالرسالات.

بينما ظل أولئك كـــــــافرين عمليا بهـــــــا. حيث انهم مع تظاهرهم بالايمان بالرسالة فهم لا ينفذون تعاليم الرسالة الا فسقا وتهاونا.

(**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتـابِ هَـلْ تَنْقِمُـونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْـلُ وَأَنَّ أَكْثَـرَكُمْ فاسِقُونَ**)

سوء العاقبة :

[60] والواقع ان العاقبة للمؤمـــــــــنين المتقين ، اما الفســاق فــان نهــايتهم ســيئة ، ومثــوبتهم وجــزاءهم شر عليهم لأنهم ملعونــون عند الله بعيــدون عن رحمته ، ولان الله غضب عليهم وانزل عليهم العذاب الظاهر حيث جعل منهم القردة والخنازير ، وجعل منهم عبدة الطـاغوت ، اي ابتلاهم بســبب فقــدان كــرامتهم واســتقلالهم بالطــاغوت وبالسلطات الديكتاتورية الظالمة.

(**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ**)

اي جزاء عند الله وعاقبة.

(**مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ**)

اللعنة ـ حسبما يبدو لي ـ الابتعـاد عن رحمة الله بينما الغضب : إنزال العذاب ، وقد تمثل في الدنيا بأمرين :

(**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنـازِيرَ وَعَبَـدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً**)

من الناحية المادية.

(**وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ**)

اي ابعد عن الجادة ... من الناحية المعنوية.

وَإِذا جاؤُكُمْ قـالُوا آمَنَّا وَقَـدْ دَخَلُـوا بِـالْكُفْرِ وَهُمْ قَـدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما كـانُوا يَكْتُمُـونَ (61) وَتَـرى كَثِـيراً مِنْهُمْ يُسـارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُـدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كـانُوا يَعْمَلُـونَ (62) لَـوْ لا يَنْهـاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّـحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (63) وَقالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللـهِ مَغْلُولَــةٌ غُلَّتْ أَيْــدِيهِمْ وَلُعِنُــوا بِما قــالُوا بَــلْ يَــداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْــزِلَ إِلَيْــكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيانــاً وَكُفْــراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا نــاراً لِلْحَـرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّــهُ وَيَسْــعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَســاداً وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

---

62 [الإثم والعدوان] : الفرق بينهما : ان الإثم هو الحرم كائنا ما كان. والعدوان هو الظلم.

وَلَــوْ أَنَّ أَهْــلَ الْكِتــابِ آمَنُــوا وَاتَّقَــوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَــيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنــاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَــوْ أَنَّهُمْ أَقــامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيــلَ وَما أُنْــزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُــــوا مِنْ فَــــوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66)

---

65 لكفرنا : أصل التكفير التغطية.

اليهود : غلت أيديهم

هدى من الآيات :

في مقابل المجتمع الاســلامي نجد المجتمع الفاسد ، الذي يمثله اليهود ، ويتميزون بعدة صفات سلبية :

الاولى : النفــاق ، حيث يتظــاهرون بالايمــان ، ولكن دخــولهم في محضر الرســول (ص) يتم بــالكفر ، كما ان خروجهم يتم بالكفر أيضا ، والله يعلم انهم يكتمون الكفر.

الثانية : انهم يتسابقون الى قـول الإثم والى الاعتـداء على حرمة الناس وعلى أكل أخبث الحرام.

الثالثة : ان رجال العلم والدين قد فسدوا ولم يتناهوا عن الإثم وأكل السحت.

الرابعة : انهم قـــــدريون آيســـــون من رحمة الله ، ويزعمون ان يد الله مغلولة.

الخامسة : ان رسالة الله تزيدهم طغيانا وكفرا.
السادسة : انهم مختلفون بعضهم يعادي بعضا.
السابعة : ان طبيعتهم تنزع الى الحرب والفساد.

ان هذه الصـفات هي الـتي تـدمر الكفـار لأنه إذا آمن أهل الكتاب ايمانا حقيقيا واتقـوا لكفّر الله عنهم سـيئاتهم ولا دخلهم جنـــات النعيم في الاخـــرة ، اما في الـــدنيا فلو انهم طبقـــوا الرســـالة ، ونفـــذوا أوامر الله في التـــوراة والإنجيل إذا ، لعاشوا في الرفاه بحيث يأكلون من فـوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكن منهم امة مقتصدة تطبق تعاليم السماء ، وكثير منهم فاسقون ويعملـون عملا سـيئا لـذلك ابتلوا بهذه الصفات السيئة.

بينات من الآيات :

تارك الرسالة .. صفات وتقييم :

[61] لكي لا يتخذ المؤمنون الأجانب أولياء يعـدد الله صـفات طائفة من اليهـود الـتي تنطبق أيضا على كل امة تــــركت رســــالات الله ، ونــــافقت في ايمانها كالانظمة المسـيحية في العــالم الغــربي ، أو ادعيــاء الإســلام في عالمنا ، وابرز تلك الصفات السـيئة الـتي تنشأ منها سـائر الصفات الرذيلة النفاق.

(**وَإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَـدْ دَخَلُـوا بِـالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**)

فالكفر كان يصاحبهم قبل وبعد دخولهم على الرسول أو في الإسلام ظاهرا.

(**وَاللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ**)

من النفاق والدجل.

والله لا يـرى ظـاهر النـاس فقط ، بل يـرى واقعهم الكامن أيضا.

[62] والايمان يـردع الفـرد عن التهمة والغيبة وقـول الزور وكل الأفكار المفسدة للضمير والداعية الى الكسل والجبن والعداء ... اما المنافقون فلأنهم لا يتمتعون بـرادع الايمان لذلك تجدهم يسارعون في الإثم.

(**وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ**)

اي لا يترددون من قول الإثم والباطل.

كما ان الايمـان وازع نفسي عن الاعتـداء على حرمة الآخـــرين بشن الحـــروب الاســـتعمارية ، أو اشـــاعة جو الإرهاب بالقتل والاعتقـال أو التهجـير كما تصـنعه الانظمة الطاغوتية ، اما من لا يملك هـذا الـوازع فهو يسـارع في التجاوز.

(**وَالْعُدْوانِ**)

وما يستهدفه هـؤلاء من قـول الإثم والعـدوان هو أكل امـوال النـاس الـذي يشـبه قطعة الجلد الـتي تتكـون بعد الجـــرح والقـــرح والمليئة بـــالجراثيم وهـــذا يســـمى ب (السحت).

(**وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

[63] والفساد في هذا المجتمع قد تسرب الى الجهاز الأعلى فيه الى رجال العلم والـدين الـذين من المفـروض ان يكونوا جهازا اصلاحيا في المجتمع ولكنهم يسكتون عن الفساد.

(**لَـوْ لا يَنْهـاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبـارُ عَنْ قَـوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ**)

بل يداه مبسوطتان :

[64] من الأفكار الخرافية الفاسدة الـتي شـاعت في مثل هـذا المجتمع كما عند اليهـود انهم يقولـون : يد الله مغلولة وانه خلق الخلق ثم تركه دون قدرة على تغيـير أو تطوير ، وبهذه الفكرة ألغوا دور الـدين في الحيـاة ، ودور الايمان بالله والتوكل عليه في بناء الحضارات.

(**وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**)

ولان اليهـود زعمـوا بـان قـدرة الله محـدودة فـإنهم جمدوا وتخلفوا ، لان الايمان بقـدرة الله الواسـعة تنعكس على البشر انطلاقا وتقـــدما ، لأنه يســـتتبع الايمـــان بلا محدودية الامكانـــات عند البشر المـــؤمن المتصل ببحر قدرة الله التي لا تحد ولذلك قال ربنا :

(**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**)

فالـذي يتصـور الحيـاة بصـورة جامـدة لا تتطـور الى الأفضل ، والذي لا يؤمن بقدرة الله على إنقاذه من ويلاته هو مغلـول اليـدين ، والـذي لا يتوكل على الله هو الاخر مغلول اليدين يعيش أبدا في أو حال الرجعية والتخلف.

وأكـثر من هـذا فـان اليهـود ملعونـون مطـرودون من رحمة الله وغير قادرين على الانتفاع بالامكانات الحاضـرة لديهم ، لذلك قال ربنا :

(**وَلُعِنُوا بِما قالُوا**)

اي لعنوا وابعدوا من بركات الله بسبب قولهم الفاسد ، اما ربنا سـبحانه فـان قدرته لا محـدودة ، وهو ينفق من هذه القدرة حسبما تقتضيه حكمته البالغة.

(**بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ**)

ان رؤية اليهـود الجامـدة الى الرسـالة الجديـدة والى كل جديد ، وكفـــرهم بامكانية التجديد أصـــبح حجابا بينهم وبين نور الرسـالة لـذلك كلما تليت عليهم ايـات الرسـالة ازدادوا طغيانا.

(**وَلَيَزِيــدَنَّ كَثِــيراً مِنْهُمْ ما أُنْــزِلَ إِلَيْــكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً**)

لأنهم كانوا يزعمــون أنّ كل جديد بدعة يجب محاربته ، فلذلك كانوا يتوغلون أكثر فأكثر في خرافاتهم القديمة.

وربما بســبب الرؤية الجامــدة والثابتة الى الحيــاة ، واعتقادهم الراسخ بان الله لا يطور الحياة ارتبطوا بألفاظ وقــوالب معينة جمــدوا عليها واختلفــوا فيها ، واســتمرت الخلافات هذه بينهم الى يوم القيامة ، ولم يـدفعهم تطـور الحيـاة الى العـودة الى جـوهر رسـالتهم وتـرك القـوالب الجامدة الـتي تشـبث كل فريق بجـانب منها وتعصب لها ، لذلك أعقب القرآن الحكيم على السلبيات السابقة سلبية الخلافات الداخلية وقال :

(**وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَــــداوَةَ وَالْبَغْضــــاءَ إِلى يَــــوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ**)

وإطفاء الله لنـيران الحـرب الـتي أوقـدوها دليل على التــدبير المباشر لربنا لشــؤون الحيــاة ، كما ان كل خطة محكمة تفشل بما يســمى بالصــدفة ، وكل رأي ســديد ينقض بسـبب ما يقـال : بأنه الـدهر والليل والنهـار ، وكل تقدم وانتصار يتحقق

ينسب الى الحظ ، كل ذلك دليل على التـــــدبير المباشر لربنا في الحياة ولـذلك جـاء في حـديث الامـام علي عليه السلام :

«عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم»

(**وَيَسْــعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَســاداً وَاللــهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**)

وفسـادهم في الأرض نتيجة واضـحة لـرؤيتهم الباطلة والجامـدة تجـاه الحيـاة ، فهم لا يؤمنـون بضـرورة العمل لمستقبل أفضل حتى يصلحوا الحياة ، كما لا يؤمنـون بـان فسادهم سوف يتسبب في دمـار الحيـاة وتحـول عيشـهم الى جحيم لا يطاق حتى يرتدعوا عن الفساد.

والواقع ان فكـــــرتهم باطلة ، ذلك لان الله لا يحب المفسدين ، فهو يجازيهم شرا بفسادهم.

[65] ان كل تلك السلبيات التي تـواترت على اليهـود لم تكن بســبب رســالات الله الهابطة عليهم في الكتب ، بل بسبب عدم عملهم بتلك الرسالات.

(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)

وذلك في الاخــرة ، والتقــوى هو الالــتزام بما يوجبه الايمان من العمل الصالح والسلوك الحسن.

[66] كما ان تطــبيق تعــاليم الســماء ســوف ينشر عليهم الرفاه والرخاء.

(**وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقـامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَما أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ**)

كـالقرآن الحكيم ، حـتى لا يكـون تطـبيقهم للتـوراة والإنجيل تعصبا بل لأنه نازل من ربهم.

(**لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**)

حيث تــنزل الســماء بركــات عليهم ، وتنبت الأرض خيراتها ، وسلطاتهم ستكون عادلة ، وكبار القوم يرحمون صغارهم ، والصغار يوقرون كبـارهم ولم تكن تشـيع بينهم الطبقية المقيتة ، ولا ينمو في مجتمعهم الطغيــان بيد ان أهل الكتاب لم يطبق كلهم كتاب الله بل.

(**مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ**)

معتــدلون في تنفيذ الأوامر غــير ســباقين فيها ولا مقصرين.

(**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ**)

فلا ينفـذون واجبـات ربهم ، وعـاقبتهم هي تلك الـتي أشار إليها ربنا في الآيات السابقة.

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (67) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (68) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (69) لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما

---

68 [فلا تأس] : فلا تحزن

لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُـونَ (70) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُـوا وَصَـمُّوا ثُمَّ تـابَ اللـهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَـمُّوا كَثِـيرٌ مِنْهُمْ وَاللـهُ بَصِـيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (71)

الولاية ذروة الأيمان

هدى من الآيات :

بعد ان امر القــرآن الحكيم المســلمين بالولاية التامة للمجتمع الاسلامي ، ونهاهم بشدة عن قبـول ولاية الكفـار والمشركين ، وبين سبب ذلك في الـدرس السـابق ، جـاء في هـذا الـدرس يؤكد للرســول ، وعموما لكل من تحمل تبليغ رسالات الله ، كالربانيين والأحبار بـالّا يهـادنوا أحـدا ، ولا يســـاوموا أحـــدا في تبليغ الرســـالة عموما ، ومن الطبيعي ان يكون سياق الحديث في هذا الموضوع الولاية أو القيـادة لأنها هي الـتي قد يخشى الرســول من تبليغها خوف ارتـداد النـاس ، ذلك ان القيـادة أهم ما تطمح إليها القوى الاجتماعية.

وأكد ربنا سـبحانه على ان التقصـير في هـذا الجـانب يكـون بمعـنى عـدم تبليغ الرسـالة رأسا ، ووعد المبلغين لرســالات الله ، وحفظهم من شر النــاس ، وانه لا يهـدي القوم الكافرين.

ثم حذر أهل الكتاب من انكم لستم على شـيء حـتى تقيمــوا التــوراة والإنجيل والقــرآن ، ثم بين ان الرســالة الجديدة سوف تزيد الكفار طغيانا وكفرا فلا تحزن عليهم.

ولكن ذلك كله لا يعـــني ان اليهـــود والنصـــارى أو الصابئين يدخلون النـار ، لأنهم أصحاب كتب. كلا. بل انهم لو آمنـوا بالله واليـوم الآخر وعملـوا عملا صـالحا فانه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بينات من الآيات :

وهل الدين الا الولاية

؟ [67] السياسة في اي نظام اجتماعي هي القمة ، والقيـادة في السياسة هي سـنام القمة ومن دون سياسة صالحة فان سائر الانظمة الاجتماعية لا تعني أكثر من حبر على ورق ، كما انه من دون القيـــادة الصـــالحة فـــان السياسة لا تعني شيئا لذلك فان الله سبحانه يـذكر نبيه ــ هنا ـ بان اي تقصير في امر تبليغ اي بند من بنود الرسـالة يعتبر وكأنه لم يبلغ الرسالة أساسا. يقول ربنا :

(**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ**)

وهنا يطرح سؤالان : الاول : لما ذا جـاء هـذا التحـذير في هذا السياق؟

الثــاني : لما ذا ارتبط تبليغ رســالة جــزء مما انــزل بسائر الاجزاء ..؟

للاجابة على الســؤال الأخــير لا بد ان نعــرف : ان تقصير الرسول أو اي مبلغ لرسالات الله انما يكون بـدافع اجتماعي. مثل الخوف من ذوي البطش ومراكز القوى أو الطمع في جـــذب النـــاس وعموما لا يكـــون ذلك الا في القضايا الحساسة مثل القيـادة أو مخالفة عـادات راسـخة أو ما أشــبه ، وإذا لم يبلغ الرســول رســالة ربه في مثل هذه القضـايا فـان الرسـالة لن تحقق هـدفها إذ ان هـدف الرسالة هو مقاومة السلبيات الاساسية في المجتمع ، اما القضايا البسيطة فان إصلاحها لا يغير من

واقع المجتمع شيئا.

ثم ان الرســـالة الـــتي تعجز عن مقاومة ســـلبيات المجتمع ، أو معالجة القضـايا الاساسـية فيه لا تنفع شـيئا لان كل ظـاهرة تخالفها الرسـالة قد تصـبح في يـوم من الأيام ذات حساسية في المجتمع ولا تستطيع الرسالة انئذ من مخالفتها ... حـتى الصـلاة قد تصـبح ذات يـوم قضـية تستتبع الخوف والاستهزاء فعلى الرسالة التنازل عنها؟!

ومن هنا نعـــرف الاجابة على الســـؤال الاول ، إذ ان الســـياق القـــرآني يحـــدثنا عن الولاية ، والولاية قضـــية حساسة بل هي أهم قضية حساسة لذلك أكد القرآن على هـذا الحكم في هـذا السـياق بالـذات ... لـذلك جـاء في الحديث المروي عن الامام الباقر عليه السلام.

(ان الله اوحى الى نبيه (ص) ان يســـتخلف عليا (ع) فكـــان يخـــاف ان يشق ذلك على جماعة من أصـــحابه ، فـانزل الله تعـالى هـذه الآية تشـجيعا له على القيـام بما امره الله بأدائه)

والمعـنى : ان تـركت تبليغ ما انـزل إليك وكتمته كنت كأنك لم تبلغ شـــيئا من رســـالات ربك في اســـتحقاق العقوبة.

(**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**)

موقف أهل الكتاب من الولاية :

[68] والقضية لا تخص المســلمين فقط ، إذ ان على جميع أهل الكتب

السماوية ان يطبقوا كل تعـاليم الرسـالات السـماوية والا فان مثلهم مثل الـذي لا يملك رسـالة أبـدا ولا فـرق بينهم وبين الكفار.

(**قُـلْ يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لَسْـتُمْ عَلى شَـيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**)

بينما أهل الكتـاب أصـبحوا يتخـذون موقفا معاديا من رسالات ربهم لذلك فهم يزدادون بها طغيانا وكفرا.

(**وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِـيراً مِنْهُمْ ما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**)

اي لا تحزن عليهم.

[69] وإذا طبق أهل الكتـاب كل ما انـزل عليهم من ربهم فان رحمة الله واسعة ... وفضله عظيم فهو يدخلهم جناته كالمسلمين.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هـادُوا وَالصَّـابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صـالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

[70] لقد أمر بنو إسـرائيل ، وكل أهل الكتـاب ان يؤمنـوا بـالحق أنّى كـان ، واين كـان ، ومن دون تجزئته ، ولكنهم لم يطبقوا ذلك وخانوا عهدهم.

فأخـذوا يبعضـون ايمـانهم بالرسل حسب أهـوائهم المصـلحية ، أو حسب تصـنيفاتهم العنصـرية فـاذا جـاءهم رسول يخالف مصالحهم ، أو من غير عنصرهم ، كفروا به مما يـدل على أنّهم لم يؤمنـوا أساسا بـالحق ، بل آمنـوا بالأهواء والعنصرية.

(**لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ**)

عملية التكذيب للرسول هي قتل له لان أهم شيء عنده هي رسالته فلو أنها كذبت فكأنه قد قتل قتلا.

[71] وكان يزعم هؤلاء : أنّ قتل الأنبياء أو تكذيبهم سوف لا يخلف اثارا سلبيه عليهم ، فاندفعوا الى ذلك دون ان يبصروا الحقائق بأنفسهم أو يسمعوها من ذوي النصيحة.

(**وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ**)

ان الدعاة والمصلحين هم عيون الامة فاذا قتلوهم ، فكأنهم أعموا أعينهم ، وأذا أعمى الإنسان عينه ، فهل يعني ذلك ان الحقائق تزول ، أو تتغير لمجرد أنه لا يراها. كلا ، بل يعني انه سوف يتناقض معها ويدفع الثمن غالبا أمامك صخرة تراها عينك وتخبرك بذلك ولكنك بدل ان تصدق عينك وتنحرف عن الصخرة تغرز بمسمار في عينك فتعميها جزاء نصيحتها لك بما لا يرضاه غرورك وتكبرك وطغيانك ثم ماذا ، هل تنتهي المشكلة ـ كلا بل بالعكس بعد لحظات تجد نفسك وقد ارتطمت بالصخرة وتكسرت ساقك وتحطم رأسك ، كذلك فعل أهل الكتاب بأنبياء الله الذين أسروا إليهم النصح فقتلوا الناصحين ، وزعموا انّ ذلك يخلصهم ، مما يحذرهم الناصحون منه ، فاذا بهم يجدونها امامهم ، هنالك تاب فريق منهم ، ولكن توبة أكثرهم كانت وقتية ، إذ أنهم ما لبثوا أن عادوا الى عنادهم مرة اخرى.

ان هذا بعض اثار الكفر بالحق ، الذي مارسه اليهود ، وعلينا الا نتولى اليهود لهذا السبب.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ وَقــالَ الْمَسِــيحُ يا بَنِي إِسْــرائِيلَ اعْبُــدُوا اللــهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللــهَ ثــالِثُ ثَلاثَـةٍ وَما مِنْ إِلـهٍ إِلاَّ إِلـهٌ واحِــدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُــوا عَمَّا يَقُولُــونَ لَيَمَسَّــنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلا يَتُوبُـونَ إِلَى اللـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَــرْيَمَ إِلاَّ رَسُــولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُــلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ

---

75 [صديقة] : الصديقة المبالغة في الصدق كما يقال رجل ســكبت أى مبالغ في سكوته.

انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77)

[يؤفكون] : يقال أفكه يأفكه إفكا إذا صرفه ، والافك الكذب لأنه صرف عن الحق. وكل مصروف عن شيء مـأفوك عنـه. وقد افكت الأرض إذا صرف عنها المطر.

انحرافات النصارى شرك وغلو

هدى من الآيات :

الأمة الاسـلامية طليعية المتمثلة في حـزب الله هي امة طليعة مسـتقيمة على الحق وعليها ان تبقى كـذلك ، وتتجنب المزالق ، ولا تتـولى اليهـود أو النصـارى ، الـذين انحرفـوا عن الحق ، كل باتجـاه ، ولكن ما دمت منحرفا عن الطريق فلا فرق أن تكون يمينا أو يسارا.

لقد رأينا في الدرس السـابق كيف أن اليهـود أصـيبوا بـالجمود باسم المحافظة على التقاليد ، وتحـدوا الحق الجديد وطغوا عليه وكفروا به.

وها هم النصـارى نـراهم في هـذا الـدرس يخـالفون الحق بصـورة أخـرى ، حيث أنهم يؤمنـون بالأسـاطير ويميعون الحق ، فهم يشـركون بالله ، ويرفعـون مسـتوى المسيح الى مستوى الربوبية ، تقليدا للكفار الـذين ضـلوا الطريق من قبلهم انهم انفتـاحيون ولكن دون مقيـاس صحيح واصيل.

والقرآن يندد بهذه الفكرة ويقـول بأنها شـرك تسـبب حرمان الجنة ، ثم أنها

تؤدي الى الكفر بالله رأسا. ولماذا نشرك بالله ، هل لكي نجد من يخلصنا من عـذاب اللـه؟ أو ليس من الأفضل ان نعود الى الله لنجد عنده المغفـرة الواسـعة ، اما المسـيح فلن يغني شيئا عن الله. انه بشر مثلنا يأكل الطعام ، وهو لا يضر ولا ينفع من دون الله ، والواقع ان تأليه المســـيح جاء نتيجة تقليد الأساطير الكافرة : وهو غلو مرفـوض في الدين.

بينات من الآيات :

دوافع الشرك بالله لدى النصارى :

[72] لماذا انحرف النصارى عن المسيحية الصـحيحة ، ولماذا قالوا : ان الله هو المسـيح ، هل لأنهم لم يفهمـوا حقيقة الايمـان بـالغيب؟ ولم يرتفعـوا الى مسـتوى هـذا الايمان فحسـبوا ان الله هو المسـيح؟ ، أو لأنهم أرادوا ان يتمسكوا بالـدين تمسـكا شـديدا فغـالوا فيه فضـلوا فلكي يرفعـوا منزلة المسـيح اشـركوه بالله سـبحانه؟ أو لأنهم انفتحـوا على الثقافـات المشـركة ــ خصوصا ــ الثقافة اليونانية ، التي عشعشت في الاسكندرية ، وتسـربت منها الى المسيحية؟ أو لأنهم تصوروا عظمة الله ، وشدة بأسه وصـرامة احكامه فلكي يجـدوا لأنفسـهم مخلصا يسـمحوا لأنفسهم به فعل الـذنوب قـالوا : ان الله أكـثر من واحد ، وانه إذا أراد أحدهم عقابنا فسوف يخلصنا الثاني؟

كل هـذه الـدوافع قد تكـون وراء الشـرك عموما ، وشـرك النصـارى خصوصا ، وقد لا يكـون الشـرك نوعا واحـدا ، إذ ان الضـلالة والانحـراف قد تكـون عـبر آلاف الطرق ، اما صراط الحق فلن يكون سوى صراط واحد.

وفي الآيـات التالية إشـارات إلى كل هـذه الـدوافع التحريفية التي علينا ان

نتحذر منها عند ما نريد ان نبني أمتنا.

(**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قـالُوا إِنَّ اللـهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**)

كيف ينهي الله عن عبادة نفسه؟فاذا كان المسيح هو الله فكيف أمرنا بعبادة غيره؟

كلا. انه داعية اليه قالها بكل صـــراحة : (**اللــــهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**) ثم حذر من الشرك بالله ، وبين جزاء المشـرك ، وأكد بأنه لا هو ولا غـيره قـادرين على مقاومة إرادته الله في نصرة الظالم ، وإنقاذه من النار.

ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ :

[73] إن المسيحية المنحرفة ، انقسمت على نفسـها في أن الله هو المســيح أو أنه شــريك للمســيح ، وذلك انطلاقا من اختلاف الأفكار الجاهلية القديمة ، الـتي قـالت حينا بوحـدة الوجـود ، وحينا بتعـدد الوجـود ، وسـواء كـان قولهم الأول أو الثاني فهو كفر.

(**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ**)

إذ ان الله يعني الأحدية المطلقة التي لو أنكرها الفرد فقد أنكر الالوهية ذاتها.

(**وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ**)

لذلك فمن أنكر التوحيد ، فقد أنكر الله ، إذ ليس هذا الـذي يتقبل الشـريك إلهـا. أإله هـذا الـذي لا يقـدر على شـريكه؟! أم إله هـذا الـذي يعجز عن بعض الأعمـال من دون شريكه؟! وإذا ما الفرق بينه وبين خلقه؟! وإذا لمــاذا أساسا نؤمن بالإله؟!.

إننا حين نـرى عجز الخلق عن بعض الأفعـال ، نعـرف أن هنــاك إلها لا يــدخل في طبيعته العجز ، ولا تحد قدرته حدود.

وإذا رأينا الإله عاجزا أيضا ، فلا يبقى مبرر للايمان به.

(**وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُــوا عَمَّا يَقُولُــونَ لَيَمَسَّــنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

تخصص العـذاب بالكفـار منهم بـالرغم من ان هـذه الفكـــــــرة تنسب الكفر لكل من يتقبلها ولكن تخصص العذاب ببعضهم. لان من يقول بهذا الكلام دون وعي كاف قد لا يحكم عليه بــــالكفر ، مثل بعض المتصــــوفة من المســلمين ، الــذين بغــالون في أوليــائهم حــتى مرتبة الألوهية من دون شــعور منهم بحقيقة ما يقولــون ، وإنه لكفر بالله العظيم.

عيسى ليس باله :

[74] يزعم بعض النصارى أنهم يحتمـون بعيسى (ابن الله) عن عذاب أبيه ، لأنه ارحم منه بنا ويفند الله سبحانه هذا الزعم بطريقتين :

الاولى : جذرية ، حيث يقول :

(**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

ان لا يجد من هو أرحم به من الله وأكثر غفرانا. فلما ذا يتصور ان هناك من يخلصه من الله ما دام الله لم يسد عليه أبـــواب رحمته ... فليعد الى ربه ليجد في رحابه كل خير.

[75] الثــاني : ان المســيح ليس ســوى بشر ، وهل البشر قادر على أن ينقذ الناس من غضب الله.

ان المسيح كـان قد ولد من أم وهـذا أول وأبـرز أدلة عجــزه ومحدوديته ، وبالتــالي فهو مخلــوق ، ثم انه كــان يأكل الطعـام ومن دون الطعـام كـان سـيموت مما يـدل أيضا على انه لم يكن سـوى بشر ، وهل يقـدر من يحتـاج إلى الطعـــام ، أن يقـــاوم إرادة الله ، خـــالق الطعـــام ، والشراب ، ومالكهما.

(**مَا الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ إِلَّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**)

لـذلك لا تصـبح معـاجزه أو علومه دليلا على أنه إله ، لأن كل الرسل أيضا مثله يملكـون معـاجز ويعلمـون بعض الغيب.

(**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ**)

فليس هو أو أمه من نوع الآلهة الذين لا بد ان يكونـوا بغنى عن الطعام.

(**انْظُــرْ كَيْــفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيــاتِ ثُمَّ انْظُــرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**)

[76] ثم مـاذا يغـني عنكم المسـيح ، ما دام لا يغـني عن نفسه غائلة الجـــوع ، إلا بالجهد وبوســـيلة مادية اي بالطعام.

(**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِـكُ لَكُمْ ضَـرًّا وَلا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

وهل بامكانكم ان تحتمـوا به عن الله الـذي يسـمع ما تقولونه ظاهرا ويعلم ما في قلوبكم

الغلو محراب الشرك :

[77] ان أهم الــدوافع وراء تأليه المســيح عيسى بن مريم ، كـان الغلو في الـدين ، وبقـدر ما تكـون اللامبـالاة بالــدين خطــرا فــان الغلو خطر بقــدره ، لأن هــذا وذاك مخالفـان للحق والحق هو محـور الكـون ويجب أن يكـون محور حياة الإنسان أيضا.

(**قُـلْ يا أَهْـلَ الْكِتـابِ لا تَغْلُـوا فِي دِينِكُمْ غَيْـرَ الْحَقِ**)

وحين أراد قادة الكنيسة دعم المبادئ الدينية توجهــوا إلى الغلو في الدين سعيا وراء ترسيخ مبادئه في النفوس ، ولكن الغلو بحاجة الى إيديولوجية تدعمه لــذلك اتجهــوا إلى الثقافات الجاهلية ، وطعموا دينهم بها ، الــتي لم تكن سوى خرافات ، أملتها أهواء أهل الضـلالة كمثل خرافـات اليونانيين عن تعدد الآلهة ، ووجود قـدرة غيبية لكل شـيء هي وراء ما نـرى في الطبيعة من تناقضـات ، أو تفـاعلات إن هـذه الخرافـات ، هي الـتي تسـربت الى المسـيحية ، فحولتها إلى دين المغالين.

والله نهى عن ذلك بشدة قائلا :

(**وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَـلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ**)

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (78) كانُوا لاَ يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (80) وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81)

تأثير الولاء على قيم الرسالات

هدى من الآيات :

جــدد القــرآن الكــريم في نهاية هــذه السلســلة من الدروس تنديده بتوّلي الكفار ، محذرا ان من يتولى الكفار سيكون مثلهم ، حتى ولو كان منحـدرا من سلسـلة مؤمنة كبني إسرائيل.

فهذا داود ـ النبي الملك ، وهذا عيسى الزاهد ، كلاهما يلعنـان طائفة من بـني إسـرائيل. علما بـأن داود وعيسى كانا من بــــني إســـرائيل أيضا ، ولكن اللعنة على بــــني إسرائيل انما كانت بسبب عصيانهم واعتدائهم ...

لقد مـاتت في مجتمعهم ، قيم الرسـالة فلم يعد أحد يهتم بها أو يـدافع عنها ، ولـذلك ضـاعت وحـدتهم الفكرية وتشرذم مجتمعهم.

فأصبح فريق منهم يتولى الكفـار بكل صـراحة ، ويجر الى نفسه سخط الله العظيم.

وإذا كـــانت قيم الرســـالة حية في قلـــوبهم ، إذا لم يــــزدوج ولاؤهم ، ولم يكونـــوا يخونـــوا مجتمعهم ولكن نفوسهم خوت من الايمان وعملوا بالفسوق والعصيان.

لقد جاء هـذا الـدرس منسـجما مع الـدروس السـابقة الــتي كـــانت تؤكد على اهمية الــولاء للمجتمع المســلم والحزب الله الواحد.

بينات من الآيات :

لعنة بني إسرائيل :

[78] اللعنة لا تلحق البشر بســـــبب طينته ، كما ان الرحمة لا تصيبه بهذا السـبب ، بل كل ما يصـيب الإنسـان فهو بسبب عمله ... وبنو إسـرائيل كـان فيهم مسـلمون ، وكان فيهم كفار ـ طـردهم أنبيـاء بـني إسـرائيل ـ ويمثل القرآن بمثلين من أنبياء بـني إسـرائيل داود (ع) وهو ملك وحــاكم ـــ والمفــروض أن يأخذ الملك رعايــاه بالسياسة واللين ، خصوصا وان داود كان صاحب الزبور ، ويدعو أبدا الى الرحمة والصـــــلاح ــــ وبعد داود لعنهم عيسى عليه السلام ، بالرغم من أن دعوته كانت الى السـلام والرحمة ، وكان سبب طردهما الكفار بني إسرائيل هو : ان الكفار منهم كانوا يعصون الله ويعتدون على الناس.

(**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِســانِ داوُدَ وَعِيسَـــى ابْنِ مَــرْيَمَ ذلِــكَ بِما عَصَــوْا وَكــانُوا يَعْتَدُونَ**).

عوامل انهيار المجتمع :

[79] وانهيــار المجتمع ، يبــدأ بعـدم الـتزام كل فــرد بواجبه ، وبالتالي عصيان

الله فيما يخص نفسه (تـرك الصـلاة ـ الكـذب) ثم يتطـور الى الاعتـــداء على حقـــوق الآخـــرين ، ثم يتطـــور الى اللامبالاة بالقيم ، وينتهي بتشرذم المجتمع وتعدد الولاءات فيه. خصوصا الولاءات الأجنبية.

(**كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ**)

كان لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر ، مما يـدل على انهم لم يعـودوا يحـترمون القيم حـتى على صـعيد الحيـاة الاجتماعية.

(**لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ**)

ان ترك النهي عن المنكر يعجل في انهيار الامة.

[80] وأدى عدم الاهتمام بالقيم الى اهتمـام كل فـرد بمصـالحه وشـهواته الـتي وجـدها عند غـير قومه ، فبـاع نفسه لهم ، وخان قومه .. لعدم وجـود رادع من ضـمير أو قيمة من دين ، وكـان يجد في أفكـار الأجـانب ما يملأ بها فراغة الفكري ، لذلك كان ينتمي إليهم.

(**تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَبِئْسَ ما قَـدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُـهُمْ أَنْ سَـخِطَ اللـهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ**)

[81] ان كل ذلك الانهيار الذي حصل في مجتمع بـني إسرائيل كان بسبب عدم الايمان إذ أن الايمان هو المحور السليم لربط الناس ببعضهم.

(**وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ**)

أي غير مؤمنين حقا ، ولذلك تشرذم مجتمعهم وأصبح مجتمعا ذيليا ...

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبانـاً وَأَنَّهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ (82) وَإِذا سَـمِعُوا ما أُنْـزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَـرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُـوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُـونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَـعَ الشَّـاهِدِينَ (83) وَما لَنا لا نُـؤْمِنُ بِاللـهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَـقِّ وَنَطْمَـعُ أَنْ يُـدْخِلَنا رَبُّنا مَـعَ الْقَـوْمِ الصَّـالِحِينَ (84) فَأَثابَهُمُ اللهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها وَذلِـكَ جَـزاءُ الْمُحْسِـنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86)

المسلمون بين

عداوة اليهود ومودة النصارى

هدى من الآيات :

اليهـــود تطرفـــوا في المحافظة على أفكـــارهم وتقاليـــدهم ، فاســـتكبروا عن الحق ، وعانـــدوا صـــاحب الرسالة ، ولم تزدهم الرسالة الجديدة الا جحـودا وإنكـارا. اما النصـــارى : فقد انحرفـــوا عن الحق بطريقة مغـــايرة حيث انهم فقـــدوا مقيـــاس الحق والباطل فـــآمنوا بكل الأفكـار الـتي وجـدوا عليها صـبغة دينية ، وبـالرغم من أن هذا الانفتـاح الواسع الـذي جـرهم الى الضـلالة ، فأنه من الممكن ان يصـــبح وســـيلة للهداية الى الحق .. حيث انهم يســـتقبلون الأفكـــار الجديـــدة بصـــدر رحب ، ويســـتعدون للايمان بها فور سماعها.

من هنا نجد عند النصـــارى اســـتقبالا يكـــاد يـــوازي في المقدار عناد اليهود ، ولذلك فاليهود هم أشد الناس عداوة للذين امنوا ، بينما النصارى أقربهم مودة ، اما المشركون فهم كاليهود في استكبارهم وعنادهم ، وبالتـــالي عـــداوتهم للرساليين الجدد.

والانفتاح عند النصارى ـ وبالذات عند علمائهم الأبـرار ـ ولعدم الاستكبار عن الحق .. تراهم إذا سمعوا ايات الله الجديدة فاضت أعينهم بالدموع للتأثير الكبـير الـذي تخلفه آيات القرآن في أنفسهم.

ان بعض قسـاوة النصـارى لا يسـتهدفون (كاحبـار اليهـود) الـذهب والفضة ، بل ان منتهى تطلعهم تزكية الذات وإصلاح النفس ، لذلك حين يجدون وسيلة الى ذلك يتسارعون اليه.

بينات من الآيات :

أشد الناس عداوة وأقربهم مودة :

[82] (**لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**)

اما اليهود فلأنهم تركـوا الحق جانبا ، وتمحـوروا حـول ذواتهم ، فـألهوا عنصر بـني إسـرائيل واعتـبروه عنصـرا مقدسا يـدور معه الحق أنى دار ، وليس العكس ، ولـذلك فهم لا يقيمـون أنفسـهم بمقيـاس الحق ، بل يقيمـون الأفكار بمقياس ذواتهم ، لـذلك فهم لا يمكن إلا ان يعـادوا الذين آمنوا بالحق.

وأما المشركون ، فهم بدورهم تركـوا الحق ، واتبعـوا الهـوى فعبـدوا الـثروة ، والسـلطة ، وكل ما يرمز الى الثروة أو السلطة.

هـؤلاء أيضا انحرفـوا عن الحق ، عن سـابق تصـميم وبإصرار ، فهم أيضا يعادون المؤمنين.

(**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ قـالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ**

(**قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**)

هـؤلاء كـانوا يفتشـون عن الحق ولكنهم لا يجدونه ... لذلك تجدهم لا يستكبرون على الحق إذا سمعوه وتوفرت لديهم فرصة الهداية.

[83] (**وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ ، تَـرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ، مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ**)

ان تأثير الحق في النفوس الطيبة شديد بحيث يحرك كل المشاعر الخيرة فيها ، فتلتهب النفس إيمانا وشـوقا ، وأملا ، وخشــية ، وتتفجر العيــون دموعا وبريقا ، وروعة وجمــالا ، اما الألسن فهي الاخــرى لا تســتطيع ان تخفي المشاعر الجياشة.

(**يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ**)

انهم يخشــون ان يفــوتهم قطــار المؤمــنين لــذلك يسـارعون إلى الايمـان ، ويـدعون الله بـان يحسـبهم من المؤمنين.

[84] والسبب الذي يـدعوهم الى الأيمـان انهم كـانوا يبحثون سلفا عن الحق والصـلاح. وان هـدفهم في الحيـاة لم يكن تأليه ذواتهم ، والبحث عن العلو في الأرض ، والفساد ، (كما كان اليهـود) كما لم يكن هـدفهم الوصـول الى شهواتهم العاجلة بالثروة والسلطة ، إنما كان هـدفهم إصــلاح أنفســهم وإرضــاء ربهم ، فنيــاتهم كــانت طيبة وقلوبهم نظيفة.

(**وَما لَنا لا نُــؤْمِنُ بِاللــهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَــقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**)

انهم يهدفون الصـلاح ويعرفـون أن الوسـيلة الى ذلك هو الايمان بالله وبالحق لذلك فهم يسارعون الى الوسيلة التي تحقق هدفهم.

[85] ووفى الله بما وعدهم فجـزاهم بايمـانهم الـذي عبروا عنه بالقول الصادق جنات يخلدون فيها.

(**فَأَثـابَهُمُ اللـهُ بِما قـالُوا جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ**)

[86] اما أولئك اليهـود ، والمشـركون فـأنهم كفـروا بسـبب عبـادة ذواتهم ، واتبـاع شـهواتهم ثم كـذبوا بـالحق نتيجة لكفرهم ، لذلك كان جزاؤهم جهنم.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ**)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

---

89 [باللغو في ايمانكم] : لغو اليمين هو الحلف على وجه الغلط من غير قصد مثل قول القائل لا والله.
[عقدتم] : وثّقتم بالقصد والنية.

ابدأ بنفسك يصلح مجتمعك

هدى من الآيات :

في هــذه المجموعة من الآيــات نــرى تبيانا لأحكــام الإســلام في الســلوك الشخصي ومــدى علاقته بالســلوك الاجتماعي.

فالخمر ـ مثلا ـ ليس شرابا يتناوله الشخص باختياره ، بل هي ـ في الواقع ـ ممارسة اجتماعية إذ تسبب الإضرار بالمجتمع ، واعتداء الناس على بعضهم ، وكـذلك الميســر. ان هـذه العلاقة الوثيقة بين الســلوك الشخصي والمجتمع تفــرض على الإنســان مزيــدا من الانضــباط فيما يتعلق بحياته الشخصــية ، بيد أنّ المحرمــات ليست هي الأصل في سـلوك الإنسـان كما تـزعم الشـعوب المتخلفة الـتي تحسب كل شـــيء حراما الا بعض ما يتلي عليهم ، وينص على حليته ، بل بــالعكس ، يــرغب الإســلام في ممارسة الحياة بحرية وانطلاق ، حتى يثبت بالدليل القـاطع ان الله حرم هذا الشيء المعين.

وهذه الفكرة فكرة الحلية العامة حتى يثبت العكس ـ هي مجمل ما توحي

اليه هذه الدروس التي سوف نشير إليها.

بينات من الآيات :

تحريم الطيبات

[87] جاء في حديث

ان الله يحب ان يؤخذ برخصة كما يؤخذ بعزائمه

انّ هذا الحـديث المـأثور ليـدل دلالة حاسـمة على ان المبالغة في تحريم الطيبات التي ولع بها بعض المنتسـبين الى الدين انما هي من عمل الشيطان إذ انها تسبب :

اولا : في التشريع الحـرام عند الله : وهو نسـبة حكم الى الشريعة ، ما انزل الله بها من سلطان!

ثانيا : تسبب في ابتعاد فريق من النـاس عن الـدين ، لأنهم يرون تناقضا بينه وبين فطرتهم ، التي تــدعوهم الى التنعم ، بما وفره الله للإنسان من طيبات.

وقد كانت المسيحية المنحرفة هي السبب في نشـوء التيار المناهض للدين في أوروبا مع بداية التقدم العلمي ، لأن المسيحية المنحرفة كـانت تحـرم طلب العلم وتنسب ذلك الى الــدين ، وطائفة من علمــاء الــدين المســلمين ساعدوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون هذا التيـار الغـربي على النفوذ في البلاد الاسلامية ، لهذا السبب بالذات.

من هنا حرم القرآن وبكل إصرار تحريم ما أحل اللـه. سواء كان التحريم

قوليا أو عمليا وقال :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تُحَرِّمُـوا طَيِّبـاتِ ما أَحَـلَّ اللهُ لَكُمْ**)

بيد ان الاســتفادة من الطيبــات ينبغي ان تكــون في حدود الحقوق الواجبة. فهناك حقوق للجسد يجب الوقوف عنـدها وعـدم تجاوزها في الاسـتفادة من الطيبـات ، مثلا الإسراف في الاكل نوع من الاعتـداء على حق الجسد في ان يبقى سالما.

كما أنّ هنـــاك حقوقا للنـــاس ، تجب رعايتها عند ما يســتفيد المــرء من الطيبــات ، من هنا أكد القــرآن على الحقوق في سياق حديثه عن الطيبات وقال :

(**وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**)

[88] والاستفادة من الطيبـات. كل الطيبـات يجب الا يتحدد الا بحدود الشـريعة الـتي جـاءت لمصـلحة الإنسـان كفرد وكمجتمع ، وهذا هو التقوى.

(**وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبـاً وَاتَّقُـوا اللـهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**)

كفارة العهد واليمين :

[89] وهناك حد آخر للاستفادة من الطيبـات ، هو حد الالتزام الشخصي بعدم الاستفادة من واحدة من الطيبات لسبب أواخر ، وهذا يسمى باليمين.

فلك ان تحلف ألا تســــــتفيد مثلا من نعمة الفواكه ، وذلك لمصلحة الفقراء والمسـاكين ولكن لا يعـني ذلك ان تحرم على نفسك كل شيء ... ولمجــرد التقشف والتزهد ومن دون مصلحة أو رجحان أو سبب معقول ، آنئذ يحــرم عليك شرعا ان

تعــود الى ذلك الشــيء. لأنه يعــني التنــازل عن عهــدك ، والتنازل بالتالي عن أرادتك وعن نفسك بذاتك.

بيد ان هناك مشكلة هي ان بعض الناس ، يستعجلون الحلف بالله ، وهم لا يقصــدون الالــتزام الحقيقي والارادة الثابتة.

من هنا بــدأ القــرآن حديثه عن حل هــذه المشــكلة ثم أوجب الالتزام باليمين وقال :

(**لا يُؤاخِــذُكُمُ اللــهُ بِــاللَّغْوِ فِي أَيْمــانِكُمْ ، وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعـامُ عَشَـرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْـوَتُهُمْ ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَـةِ أَيَّامٍ ذلِـكَ كَفَّارَةُ أَيْمـانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُـوا أَيْمـانَكُمْ كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

تشـــــــــكرون الله على هدايته لكم ، وتبيانه طريقة الاستفادة من الطيبات.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّـيْطانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (90) إِنَّما يُرِيـدُ الشَّـيْطانُ أَنْ يُوقِـعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِـرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَنْ ذِكْـرِ اللـهِ وَعَنِ الصَّـلاةِ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُـونَ (91) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَـوَلَّيْتُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُـولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ جُنـاحٌ فِيما طَعِمُـوا إِذا مَا اتَّقَـوْا وَآمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَـوْا وَآمَنُـوا ثُمَّ اتَّقَـوْا وَأَحْسَـنُوا وَاللـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

90 [الأنصـاب] : الأصـنام وسـميت بـذلك لأنها كـانت تنصب للعبـادة ، والانتصاب القيام.

[رجس] : الـرجس في اللغة اسم لكل ما اسـتقذر من عمل ، ويقـال رجس يرجس إذا كان عملا قبيحا.

بينات من الآيات :

البشر عقل وارادة :

[90] في البشر عقل وارادة تقابلها الشـــــــــهوات والجهل ، وعلى الإنســـان ان يحكم عقله على شـــهواته بقدرة الإرادة ، وقد جـاءت رسـالات السـماء بهـدف تنمية قـدرة الإرادة في البشر وتنمية قـدرة العقل حـتى يتمكن من ضبط شهواته ، وتوجيه حياته حسب هدى عقله.

وقد حــــرمت رســـالات الســـماء كلما يضر بالعقل وبـالإرادة ضـررا بالغـا. لأنه يتسـبب بـالطبع في سـيطرة الشهوات على حياة الإنسان.

وفي طليعة ما حرمته الشــــرائع الســـماوية الخمر والميسر لأنهما يهبطـان بـإرادة الإنسـان وعقله إلى أدنى مســـتوى ، وهما بالتـــالي رجس وحـــرام لأنهما من عمل الشـيطان الـذي يثـير الشـهوات وينقص العقل ويضـعف الإرادة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِنَّمَا الْخَمْـــرُ وَالْمَيْسِـــرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ**

الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

ان الفلاح الذي هو الهدف الأسمى لكل ابن أنـثى في الحياة لا يتحقق إلا بالسـيطرة على شـهوات الـذات بقـوة الارادة.

اما اللهو فانه يضـعف هـذه الارادة ويثـير المشـاكل للبشر واللهو هو ذلك الرجس الذي يدعمه الشيطان.

الخمر والميسر من جنود إبليس :

[91] والخمر والميسر يسـببان الفرقة بين النـاس ، بينما الإسلام يأمر بالوحدة ويدعم هذه الوحدة بتحريم كل أسباب الفرقة.

(**إِنَّما يُرِيـدُ الشَّـيْطانُ أَنْ يُوقِـعَ بَيْنَكُمُ الْعَـداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ**)

العداوة تأتي بسبب سيطرة الشهوات على الإنسان ، فيحـاول كل واحد ان يعتـدي على حقـوق الآخـرين ليحقق هو شهواته ، بينما يجب أن يقف غريمه في موقف الدفاع ، فان لم يسـتطع دفع الظلم عن نفسه انقلب ظالما لمن هو أضعف منه.

وهكـذا يتحـول المجتمع الى سلسـلة من الظـالمين والمظلومين ، والعداوة تتحـول إلى بغضـاء إذ سـرعان ما يبحث كل طـرف عن تـبرير نفسي لظلمة ، فينشر الحقد في كل قلب فكل من يصبح مظلوما يحقد على ظالمة.

ولكن المشـكلة : ان هـذا الحقد قد يتحـول الى غـير الظالم ، بل إلى كل أبنـاء المجتمع فيبحث له عن متنفس يصب حقده فيه فاذا به يظلم الناس بلا سبب ،

وبلا مصلحة ذاتية بل متشفيا لنفسه الحاقدة ويبقى سؤال : كيف تتسبب الخمرة في العداوة؟

الجواب : ان الخمرة تذهب بالعقل ، وتضـعف الارادة ، فيفقد الإنسان السـيطرة على شـهواته فتصـبح شـهواته هي المسيطرة عليه ، تسوقه الى حيث الاعتداء والظلم.

اما الميسر فانه يعتمد على محاولة كل فريق التغلب على الآخــرين ، ليس بالعمل الصــالح وانما بالصــدفة أو بالمكر والشطارة.

ومعلـــــوم كيف تنتهي حالة مجتمع تســــود علاقاته : المغالبة والمنافسة المـاكرة؟! وسـبب أخر لحرمة الخمر والميسر هو : الإلهـــاء عن ذكر الله ، وذكر الله هو طريق فلاح الإنسان.

ان الشــيطان الــذي يجسد قــوى الشر في الطبيعة ويثير قــوى الشر في النفس ، لا يريد توحيد كلمة البشر ، بل يحـــاول تقوية شـــهوات البشر ، ودعم أهوائه الذاتية ، وليس هدف الشيطان الذي يدعو الناس الى اللهو واللعب والى معاقرة الخمر ونسيان المسؤوليات ، ويـدعوهم إلى لعب القمـار والابتعـاد عن العمل الصـالح ، وكـذلك فهو لا يهدف أبدا الى إسعاد البشر.

والله يريد من الإنسـان ان يكـون واعيا لمسـؤولياته ، عالما بـان هنـاك رقابة مشـددة عليه من الله حـتى يطبق واجباته متذكرا أبدا تلك الرقابة.

اما الشيطان فيريد تناسي الله والابتعـاد عن ذكر الله بالخمر والميسر.

ومن هنا قـــال الله عن هـــدف الشـــيطان من الخمر والميسر :

(**وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْـرِ اللـهِ وَعَنِ الصَّـلاةِ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**)

هل أنتم منتهـــــون عن الســــير في خط اللاوعي والتناسي والغفلة ان اثمن ما في البشر هو ذكر الله ، وتذكر المسؤولية والتعهد بأدائها.

والشــيطان يــدفع بالبشر في الخط المعــاكس. أفلا نتــوب الى الله ونطــرد الشــيطان ونهجر كــأس الغفلة ، وأدوات العداوة؟!

طريق العودة :

[92] ونعـــــود الى حظـــــيرة الطاعة والالـــــتزام بالمسؤولية.

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**)

وبــدلا من الغفلة والتناسي نلــتزم بالحــذر ونتســلح بالتقوى.

إذا كنت في غاية كثيفة الظلمات كثـيرة السـباع فهل من الصحيح ان تنام وتتناسى واقعك ، والاخطــار المحدقة بك فالشـــيطان يـــدفع البشر باتجـــاه الغفلة ، وخط الله يدعوا الى الحذر.

(**وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُـولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

نحن لسنا مسئولين عنكم ، ولا رسولنا مسئول عنكم ، انما أنتم المسؤولون عن أنفسكم ، وانما على رسـولنا : مســـئولية ابلاغكم فقط بما يجــــري ثم تتحملـــون أنتم المسؤولية.

كل شيء حلال :

[93] ولا يعـني تحـريم الخمـرة أن الله يريد للإنسـان ان يعيش في ضنك

العيش ، لان الله لم يحرم الطيبات على الإنسان.
(**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ جُنـاحٌ فِيما طَعِمُوا**)
انما يعـني ذلك التحـريم ان يبقي الإنسـان في حـذر دائم من ارتكـــاب الجـــرائم ، وفي وعي دائم ، وتحمل للمسئولية والحذر ، لذلك قال الله :
(**إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)
ان الهـــدف من التقـــوى هو العمل الصـــالح ، ولكن العمل الصالح لا بد ان يسبقه الايمان ، والايمان يـأتي قبل وبعد العمل الصالح اما قبله فلكي يدفع بالبشر الى اختيار العمل الصالح ، اما بعده فلان العمل الصالح يدعم الايمان ويقويه في القلب مما يمهد لمرحلة متقدمة جديـــدة من العمل الصالح. من هنا جـاء الايمـان هـدفا للتقـوى عند ما قال ربنا :
(**ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا**)
ان التقـــوى (اي التحسس بالمســؤولية) تـــدعو الى العمل الصالح وتـدعو في ذات الـوقت الى مسـتوى جديد ومرتفع من مستويات الايمان.
ذلك المسـتوى هو الإحسـان الى النـاس لـذلك جـاء الإحسان نتيجة للتقوى في هذه الآية :
(**ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)
وهكذا يتدرج المؤمن عبر المراحل التالية :
1 / التقوى بهدف العمل الصالح.

2 / التقوى بهدف تقوية الايمان.

3 / التقوى بهدف الإحسان الى الناس.

وعموما. الطعام هو وقود الإنسان المادي للقيام بهذه المراحل ، بينما التقوى هي وقوده المعنوي.

وفرق كبير بين الطعام في المفهـوم التوحيـدي حيث يكـون تحت سـيطرة التقـوى ، وبهـدف تحمل المسـؤولية والإحسان.

والطعــام في المفهــوم الشــيطاني حيث يكــون ضد التقوى وضد تحمل المسؤولية.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

---

96 [للسيارة] : السيارة المسافرون.

الصيد في الحج

هدى من الآيات :

الطعام يجب ان يكون بهدف العمل الصالح والايمان والإحسان الى الناس ولذلك يحرم من الطعام ما يخالف هذا الهدف مثل الخمر.

وقد يكون الطعام وسيلة لدعم اهدافه بصورة النفي مثل ترك الطعام في الصيام. حيث انه يقوى التقوى والاحساس بالمسؤولية ، وبالتالي الإحسان والعمل الصالح وكذلك ترك الطعام في الحج.

فحرمة الصيد في الحرم أو خلال القيام بمراسم الإحرام لا تعني أن في الطعام جرثومة ، بل تعني ان الطعام ذاته أصبح مادة لاختبار ارادة الإنسان ولدعم قدرتها على ضبط الشهوات.

في هذه المجموعة من الآيات يبيّن الله فلسفة حرمة الصيد في الحج.

ويضع مجموعة من الروادع المادية لمن يصطاد في الحج أو في الحرم حيث يجب

عليه ان يكفر عن ذنبه بمثل ما اصـــطاد من الحيـــوان ، وبالتـــالي يجب عليه ان يقهر شـــهواته الـــتي حـــاولت الاستفادة من الحيـاة بالعطـاء لها مجـددا حـتى يعـرف ان اتباع الشهوات يؤدي الى الوبال.

وفي الـوقت الـذي حـرم صـيد الـبر ، أحل الله صـيد البحر في حالة الإحرام لان الهدف هو تنمية الارادة وتربية روح التقوى ، وليس الهدف تجويع الإنسان.

بينات من الآيات :

الصيد وامتحان الإرادات :

[94] بـــالرغم من ان عملية الاصـــطياد في الحج تتم بصورة مشروعة وليست اسـتثمارا لجهد الآخـرين ، إذ ان صـاحب الصـيد هو صـاحب العمل ، بـالرغم من ذلك فقد حرم الله هذا الصيد لا لأنه استثمار لجهد النـاس (كما في حرمة الربـــا) ولا لأنه يضر بعقل الإنســـان ، ولا لأنه يضر بجســـمه (كما في حرمة لحم الخـــنزير) ، ولكنه لمجـــرد اختبار ارادة الإنسان وتنمية روح التقوى فيه.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَيَبْلُـوَنَّكُمُ اللـهُ بِشَـيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْـدِيكُمْ وَرِمـاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللـهُ مَنْ يَخافُـهُ بِالْغَيْبِ**)

إذا ، فهو امتحـان ، والهـدف منه معرفة الـذي يخشى الله بـالغيب ، وهو ذلك الـذي اسـتفاد من نـور عقله في اكتشاف عاقبة عمله ولم يحدد رؤيته بما يراه امام عينه ، بل نظر بعيـدا بعيـدا. نظر الى الله الـذي يـراقب عمله ، ويحصي عليه ذنوبه ، فيجازيه عليها فخشيه.

(**فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

من اعتــدى على حرمــات الله بعد ان بينها ربنا فانه يستحق عذابا أليما.

اهداف الحرمة :

[95] الحكم الــذي جعله الله مقياسا للامتحــان هو : حرمة قتل الصــــيد في حالة الإحـــــرام ، أو في منطقة الحرم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**)

لماذا هذا الحكم؟

لان الإحــرام يهــدف التجــرد عن الــذات ، وتنمية روح التقــوى. ولا تتناسب هــذه الحالة مع الانتشــار في الأرض طلبا للصــيد بما يحمل ذلك من اهتمامــات بين الوافــدين من مختلف بقـــــاع الأرض من أجل أداء فريضة الحج فلو اهتمـــوا ـــ وهم يســيرون الى مكة بالصــيد إذا لازدادت احتمالات الصراع بينهم على الصيد ، وبالتالي تنـاقض ذلك مع هدف الحج الذي هو توحيد الامة الاسلامية.

كفارة الصيد :

(**وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**)

ذلك لان لكل حيوان وحشي يصاد مثيلا من الحيوانات الآهلة ونظيرا له في الحجم والشكل والفصيلة.

من هنا يجب دفع الكفـــــارة حسب حجم الحيـــــوان وشباهته ، فمثلا الغزال نظير الشاة في الحجم.

والمرجع القـانوني لتميـيز المثيل المناسب للصـيد هو الناس أنفسهم (العـرف العـام) الـذي يعـبر عنه اثنـان من العدول.

(**يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ**)

ويصرف هذا الجزاء للكعبة وزوارها الحجاج إليها.

(**هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ**)

وبإمكـان الشـخص ان يـؤدي التعـويض المـادي وذلك بإطعام المساكين ، حسب الصيد ، وبعدد ما يشـبع الصـيد أو كفارته (من الناس) فلو كان الصيد يشبع عشـرة اطعم عشرة مساكين.

(**أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ**)

وباستطاعته ان يصوم بقدر الأيام التي يشبعها الصـيد فمثلا : بدل ان يقدم شاة تشـبع عشـرة رجـال ، أو يطعم عشرة رجال مسـاكين ، بـدل هـذا وذاك ، باسـتطاعته ان يصوم عشرة أيام كفارة لصيد الغزال الذي يعادل الشاة.

(**أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ**)

وخلاصة القـــول : ان على الإنســـان ان يعـــوض عن صيده بقدر ما استفاده من ذلك.

اما إذا كـان الصـيد قبل الحكم بحرمته ، أو قبل العلم بهذا الحكم فانه يعفى عنه.

(**عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ**)

بيد ان من اصـــطاد ، ثم كفّر ، ثم اصــطاد بصـــورة متعهـدة فـان الكفـارة لا تزيل ذنبه بل يبقى مـذنبا حـتى يلاقي ربه فيجازيه على ذنبه.

(**وَمَنْ عــادَ فَيَنْتَقِمُ اللــهُ مِنْــهُ وَاللــهُ عَزِيــزٌ ذُو انْتِقامٍ**)

أحل لكم صيد البحر :

[96] ليس الهـــدف من حرمة صـــيد الـــبر تجويع الوافدين الى البيت الحـرام ، بل تنمية إرادتهم وتقـواهم ، ومنع التشـــاجر بينهم من هنا أحل لهم صـــيد البحر لأنه لا يسبب عداء عادة.

(**أُحِــلَّ لَكُمْ صَــيْدُ الْبَحْــرِ وَطَعامُــهُ مَتاعــاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**)

اي متاعا لكم أنتم المقيمـون في الحـرم ، وللسـيارة المسافرين الى الحرام.

(**وَحُـرِّمَ عَلَيْكُمْ صَـيْدُ الْبَـرِّ ما دُمْتُمْ حُرُمـاً وَاتَّقُـوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**)

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّـهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللـهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ شَـدِيدُ الْعِقـابِ وَأَنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (98) ما عَلَى الرَّسُـولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللـهُ يَعْلَمُ ما تُبْـدُونَ وَما تَكْتُمُـونَ (99) قُـلْ لا يَسْـتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَـوْ أَعْجَبَـكَ كَثْـرَةُ الْخَبِيثِ فَـاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

97 [الهدي والقلائد] : الهدي ما يهدى من الأنعـام الى الكعبة ، والقلائد ما يقلد به الهدي علامة له.

الحج أيام الحرية

هدى من الآيات

كـان القـران الكـريم يـبين لنا طائفة من الأحكـام المرتبطة بتنظيم الحياة الاجتماعية وطائفة من المحرمات التي استهدفت المحافظة على وحدة الناس.

ومنها ضـرورة الالـتزام بالايمـان وحرمة نقضـها ، وحرمة الخمر والميسر باعتبارهما معولي هـدم للمجتمع ، وحرمة الصيد في الحج.

في هذه المجموعة من الآيات يبيّن لنا :

اولا : الهـدف من الحج الـذي يلخصه في أمـرين يلتقيـان بالتـالي ليصـبحا امـرا واحـدا وهما : اقامة حيـاة الناس ، وتنظيمها تنظيما صالحا.

ثانيا : إيجـاد وازع داخلي لـدى النـاس يـأمرهم باتبـاع هدى الله وقبول أوامره ، ذلك الـوازع هو العلم بالحقـائق التالية :

اولا : بان الله رقيب عليهم ويعلم ما يجري عندهم.
ثانيا : الرســول ليس مســئولا عن أعمــالهم بل هم المســؤولون اولا وأخـــيرا ، وما على الرســـول الا أداء الرسالة إليهم.
ثالثا : بــأن هنــاك طيبا في الحيــاة وخبيثا ، وانهما لا يســتويان. فليس الإنســان طيبا بذاته وخبيثا بذاته بل قد يكــون طيبا وقد يكــون خبيثا ، وعليه ان يختــار لنفســه. وعلى الإنسان ان يستخدم عقله ويختار لنفسه اما باتجـاه الطيب أو الخبيث.
وبمناسبة الحديث عن هذا الـوازع يحـدثنا القـران في الدرس القادم عن العلم بالاحكام الشـرعية حسـبما نـأتي الى ذكره :

بينات من الآيات :

رموز الحرية :

[97] لماذا الكعبة ولماذا الحج إليها ، هل الكعبة مقام عبـادة يتقـرب بها النـاس الى ربهم أم هي مدرسة تـزكي النفس البشرية .. أم هي أكثر من ذلك (مركز تجمع للامة الاسلامية) تنظم حياتهم على الأرض وتعدهم لدخول الجنة في الاخرة؟ هي في الواقع كل ذلك.
يقول الله عن الكعبة :
(**جَعَـلَ اللـهُ الْكَعْبَـةَ الْبَيْتَ الْحَـرامَ قِيامـاً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ**)
هـذه المناسك تجعل الكعبة كمنطقة حـرة ، والشـهر الحرام أيام الحرية ، والهدي

والقلائد كاشــياء مادية محترمة (اي محــررة لله لا لعبــاد الله).

هذه الأمور كلها رموز الحرية جعلها الله للنــاس قياما اي تنظيما لحياتهم إذ ان الحرية هي أساس تنظيم الحيــاة الاجتماعية ففي المنطقة الحرة تجتمع الجماهير لتعبر كل طائفة عن رأيها الصـريح ، ويتفق النـاس فيما بينهم حـول ما يشــاءون ، ويتعــاونون من أجل بنــاء حيــاتهم الكريمة ، ويتحدون من أجل مقاومة الطاغوت.

اما الشهر الحرام فهو الوقت الذي يحرم فيه التجـاوز على الآخـــرين ، ويجب ان يســـمح لكل الفئـــات خلاله بالمسير الى الحج ، ولا يتعرض أحد ، لهم بسوء انى كانت الدوافع الى هذا التعرض.

اما الهدي والقلائد فهذه الأشياء لا يجوز لأحد الاعتـداء عليها لأنها ليست لأحد بل هي لله وللجميع ، اي لكل الوافـــــدين الى الحج. انها رمز الملكية الجماهيرية ، انها رمز التعاون في الاستفادة من أشياء هذه الأرض من أجل رفاه الناس جميعا.

الحرية بين الفوضى والتحرك :

ويبقى سؤال : كيف تصبح الحرية سببا لقيام المجتمع ونحن نعلم ان الحرية قد تسبب الفوضى؟

الجواب :

اولا : ان الحرية تعني ان كل النـاس أحـرار ولا يعـني بـالطبع ان تكـون طائفة واحـدة أو شـخص واحد فقط هو الحـر. وإذا طبقنا هـذه القيمة (اي الحرية للمجتمـع) فـان ذلك يعني انضباط الجميع في نفس الـوقت. إذ لا يجـوز لا حد ان

يسلب حرية الآخرين بل عليه ان يحترمها.
وهذا الاحـترام المتبـادل لحقـوق الآخـرين هو أكـثر ما يوفر الانضباط والتقيد.
من هنا تصبح الحرية نظاما عادلا ومستقرا.

معنى الحرية :

ثانيا : سـمى القـران الحرية هنا بـالإحرام والحرمة (البيت الحرام الشهر الحرام) وهذا يعـني ان الحرية هي : الكف عن الاعتداء قبل ان يكون المطالبة بالحق.
فأنت حر إذا لم تتجاوز على حقوق غيرك ، والحقـوق هـذه يحـددها الله ففي الحـرم انظمة جعلها الله ، وعلى الجميع ان يلـتزموا بها حـتى تتـوفر لهم جميعا الحرية الكافية.
هذا هدف من اهداف الحج ، ولكنه ليس كل اهدافه ، إذ ان هناك قضية تزكية الذات التي لا يمكن أن تحـدث الا عن طريق وجود وازع في القلب ، وهذا الـوازع يـاتي عن طريق احسـاس كل فـرد انه مـراقب من قبل الله رقابة شاملة ، وبذلك يزداد شعورا بالمسـؤولية وبالتـالي التزاما بها ، من هنا يقول ربنا :
(**ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)
[98] والله لا يراقب الناس فقط بل ويجازيهم بشـدة ، أو يرحمهم برحمته الواسعة ، فالعبد بين ان يسـقط الى الحضيض مرة واحدة أو يحلق في السماء عاليا.
(**اعْلَمُوا أَنَّ اللـهَ شَـدِيدُ الْعِقـابِ وَأَنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

وهذه المعادلة تجعل النفس تندفع بســرعة هائلة الى الامام. إذ تجد انها بين قطبين متضادين بقوة ، فاما عقاب شــديد واما مغفــرة ورحمة فيصــبح الإنســان وكأنه في معركة حاسـمة تـؤدي اما الى نصر مـؤزر وإما الى هزيمة نكراء.

فكيف يكون انـدفاع هـذا الشـخص وحـذره وتحسسه بمسؤولياته وبالتالي تقواه؟!

من المسؤول :

[99] وليس من الممكن ان يلقي الإنســــــــــان بمسؤولياته على الآخرين ، فمثلا يقـول : ان الله ورسـوله هو المسؤول عني ، وعن تربيتي وتزكيـتي وهـدايتي. كلا ، ان المسـؤول الاول هو الإنسـان نفسه ، اما الرسـول فهو مسئول في حدود الدعوة فقط.

(**ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ**)

فاذا بلغ الدعوة الى الشخص فان مسئوليته قد انتهت ويبقى الإنسان مسئولا أمام الله.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ**)

[100] والنـــاس فريقـــان ، طيب وخـــبيث ، وبينهما مسافة بعيدة وعلى المرءان يختار لنفسه أحد الفـريقين ، ولكن ليعــرف مســبقا ان الفريق الطيب هو الأفضل على رغم قلة ابنائه.

(**قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**)

والتقوى هو زاد الإنسان للوصول الى مستوى الطيب فعلى الإنسان ان يتقي الله ويحتمل كل مسئولياته بــوعي وحذر إذا كان عاقلا وإذا أراد السعادة.

(فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْـئَلُوا عَنْ أَشْـياءَ إِنْ تُبْـدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْـدَ لَكُمْ عَفَا اللـهُ عَنْها وَاللـهُ غَفُـورٌ حَلِيمٌ (101) قَـدْ سَـأَلَها قَــوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْــبَحُوا بِها كــافِرِينَ (102) ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِـيرَةٍ وَلا سـائِبَةٍ وَلا وَصِـيلَةٍ وَلا حـامٍ وَلكِنَّ

---

103 [بحيرة] : أصل الباب السّعة ، وسمّي البحر بحرا لسعته ، وفرس بحر واسع الجري وفي الحديث انه (ص) قال لفرس له وجـدتها بحـرا ، (الناقة إذا ولدت عشرة ابطن يشقون أذنها ويسيّبونها).

[السائبة] : السائبة فاعلة من ساب المـاء إذا جـرى على وجه الأرض ، ويقـال سـيّبت الدابة اي تركتها تسـيب حيث شـاءت ، وأصـلها المخلاة وهي المسـيّبة ، وأخـذت من قـولهم سـابت الحبة وانسـابت إذا مضت مستمرة (والسائبة هي التي تسيّبت في المرعى فلا تردّ عن حوض ولا علف إذا ولدت خمسة أبطن).

[وصيلة] : إذا وصلت بمعـنى الموصـولة كأنها وصـلت بغيرها ويجـوز ان يكون بمعنى الواصـلة لأنها وصـلت أخاها وهـذا أظهر في الآية (وهو ان يكون أحدهم كان إذا ولدت له شاته ذكرا أو أنثى قالوا وصلت أخاها فلا يصبح من أجلها).

الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ وَأَكْثَـرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ (103) وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا إِلى ما أَنْـزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْـهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَـدُونَ (104) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ إِلَى اللـهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعـاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

[حام] : هو العجل إذا ضرب عشرة ابطن يحمى ظهره فلا يركب.

الجهل والتقليد آفة الصلاح

هدى من الآيات :

العلم بالحكم الشرعي يورث الإنسان مسئولية العمل به ، ولحكمة الله سـبحانه فانه يتـدرج في بيـان الأحكـام الشرعية حتى يستوعبها الناس بصورة مرحلية.

ولكن بعض النـاس يسـتعجلون في الأمر فيحـاولون معرفة الأحكام أو الحقائق مرة واحدة ، وقد لا يستوعبون فيكفرون بالحقائق أو لا يطبقون الأحكام فيكفرون بها.

انما على الإنسان ان ينتظر الوحي حتى يهبط بالحكم الشـرعي أو بالحقيقة فيسـأل عنها لان الله لا يـنزل العلم الا في حينه ، وبقدر استيعاب الناس له.

وبسبب الاستعجال بالعلم بالاحكام تـرى بعض النـاس يصـدرون احكاما من عند أنفسـهم ثم ينسـبونها الى الله ، أو يتقبلون التقاليد الجاهلية كأحكام ، ثم لا

يتركونها بالرغم من مخالفتها لهدى العقل والعلم.

ان تقليد الآبـــــاء عقبة كـــــأداء في طريق تحمل المســؤولية ، كــذلك تقليد المجتمع حيث ان بعض النــاس يتخـــذون من المجتمع عقبة لأعمـــالهم فيـــتركون بعض الواجبات لمجرد ان الناس لا يستحسنونها.

ان القـــران في هــذه المجموعة من الآيــات يقـــوم بتصفية العقبات النفسية من امام المسؤولية وهي العجلة وعدم المرحلية ، وتقليد الاباء ، واتباع المجتمع.

بينات من الآيات :

المرحلية في التشريع القرآني :

[101] الاســتعجال في فهم الحقــائق ســواء كــانت مرتبطة بالاحكــام الشــرعية أو التقاليد الاجتماعية ، وقد لا يكون القلب مســتعدا لتقبل تلك الحقــائق فيســبب كراهية القلب لها أو قد يســبب كفر المســلم بهــا. لــذلك نهى الله عن السؤال المبكر عن الحقائق قائلا

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْــياءَ إِنْ تُبْــدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**)

انما علينا ان نســـأل عن تلك الحقـــائق حين يحين موعدها اي حين تشاء ارادة الله بيانها وبما ان الله لا يريد ذلك الا حين تقتضي حكمة المرحلة : اي حين يســـــتعد المجتمع لتقبل ذلك الحكم أو تلك الحقيقة العلمية ، فـــان وقت نزول القران يكون ملائما للسؤال.

(**وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**)

ثم ان القران لا يــبين الحكم في مرحلة فحسب ، بل ويدعم ذلك بـذكر الموعظة المناسـبة للحكم ، والفلسـفة الـتي اسـتوجبته. كـذلك يـبين أن الله قد عفى عما سـلف من الأعمال السيئة التي تأتي الأحكام الشرعية لا صـلاحها وتزكية الإنسان منها.

(**عَفَا اللهُ عَنْها وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**)

ومن ايات غفرانه .. عفوه عن سـابق الـذنوب ، ومن دلائل حلمه انه لا يبين الحقائق الا حسب المراحل.

الاستعجال طريق الكفر :

[102] ثم بين ربنا ســبب نهيه عن الســؤال المبكر وقال :

(**قَــدْ سَــأَلَها قَــوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْــبَحُوا بِها كافِرِينَ**)

انهم كفروا بتلك الحقـائق لأنها جـاءت قبل موعـدها ، وفوق مستواهم المرحلي لادراك تلك الحقيقة.

ان الله انزل الأحكام بصـورة تدريجية حـتى انه حـرم الخمر عــبر ثلاث مراحل ، ولم يشــرع فريضة الزكــاة الا متأخرا ولم يأذن بالجهاد الا بعد فترة حـتى يكـون المجتمع مهيأ نفسيا للحكم الشرعي.

تحريم الطيبات :

[103] ومن الامثلة الـتي كـان الجـاهليون لا يكفـون عن السؤال عنها هي

تلك النعم الـتي كـانوا يحرمونها على أنفسـهم بسـبب من الأسـباب ... مثل البحـيرة والسـائبة و.. وحيث انها كـانت تنـذر للالهة ، ثم بعد ان يـذبحها أصـحابها تـترك في ارض الله لا يمسها أحد بسوء.

وقد بين القـــرآن الحكيم ان هـــذه النعم حلال على الناس ، وان الله لم يحرمها عليهم وذلك :

اولا : لان النذر للالهة حرام ، وحـرام كل شـيء يمت بعبادة الأصنام ، وحتى الذبيحة إذا كـانت باسم الآلهة فانها تحـرم حـتى لو اسـتوفت سـائر شـروط الـذبح الاسـلامية لمجرد انها ذبحت باسم الأصنام.

ثانيا : لان ذلك تشـــريع من دون اذن الله ، وهو بدعة وضلالة وشرك.

ثالثا : لان الله لا يحـرم على البشر الطيبـات وحـتى الهدي والقلائد ليست محرمة على النـاس بل هي للنـاس جميعا ، وفرق كبير بين التشريع الجاهلي الذي كـان يـذبح البهائم الحلال باسم الآلهة ، وبين التشريع الاسلامي الذي يأمر بذبحها من أجل استفادة جميع أبناء المجتمع منها.

الإســلام يحــرر الطيبــات من الملكية الخاصة ـــ في بعض المناسبات ـ من أجل ان تكون فوائدها مشاعة ، اما الجاهلية فانها تحرمها على كل النــاس وتــدعها بلا فائــدة على أحد :

(**ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ**)

لأنها جميعا تخـالف سـنة الله في الحيـاة الـتي تقضي بتسخير الأشياء لخدمة الإنسان.

ولأنها تخالف تشريع الإسلام بالاستفادة من الطيبات.

(**وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**)

ودليل ذلك انهم يحرمـون على أنفسـهم الطيبـات بلا سبب معقول.

رسالة السماء لا تقليد الآباء :

[104] ان الله يريد من الإنسان الاستفادة من موهبة العلم والعقل ولكن الكفر يغل قلب صـــاحبه ويدعه مغلقا لا يدخله نور العقل ، لـذلك تجـده لا يسـتفيد من عقله بل يروح يقلد من هم أقل عقلا منه وهدى.

والواقع ان التقليد ســـواء كـــان من المجتمع أو من الاباء فهو أكثر ما يصد البشر عن التقدم والرقي.

(**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا إِلى ما أَنْـزَلَ اللـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ**)

هـــذا ما أنزله الله على رســوله الجديد يــأتيكم نقيا صافيا.

(**قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا**)

انظر انهم يقولـون حسـبنا (اي نكتفي بما نجـده عند الاباء) ان حركة الحياة قد تـوقفت في أنفسـهم وأصـبحوا يكتفون بالماضي دون أي إبداع أو تطوير.

(**أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**)

اي حتى لو أن آباءهم كـانوا قد ضـلوا الطريق بسـبب غيـاب مصـدري التقـدم عن حيـاتهم وهما العلم : وهو ما يكتشفه الإنسان بنفسه ، والهدى : وهو ما ينزل

عليه من ربه.

مع ذلك يقلـــدونهم وقد تـــوفرت لهم فرصـــتا العلم والهدى.

الإنسان بين الهداية وتحدي المجتمع :

[105] وتقليد المجتمع هو الاخر يقف امـــام تطـــور الإنســان وتقدمه وكم من النــاس كــانوا يكتشــفون طرقا جديدة لحيـاتهم تركوها خشـية المجتمع أو حـتى حيـاء من الناس.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**)

ان الـــذي يضل الطريق يجب ان يخشى على نفسه السـباع ، كما ان عليه ان يقلد الـذي اهتـدى الى الطريق وليس العكس.

ان المهتدي يسير وفق حركة الحق ، ووفق سـنة الله في الكـون وبالتـالي فهو الـذي سيصل عـاجلا أم آجلا الى اهدافه ، وعندئذ يخسر الضالون وينـدمون على تفـريطهم في مصالحهم.

ثم ان نهاية حركة الإنســـــــــان هي الى الله مالك الســموات والأرض حيث يــبين لنا من ضل ومن اهتــدى ، وذلك من خلال جزائه العادل ، وفيعاقب من ضل ، ويـثيب من اهتدى.

(**إِلَى اللــهِ مَــرْجِعُكُمْ جَمِيعــاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

قد يصل الإنسان الى جزائه دون ان يعرف ان هذا هو جزاء عمله.

فمثلا : يشرب الماء الملوث فيصـاب بمـرض دون ان يعـرف ان سـبب مرضه هو ذلك الشـراب ، بيد ان الله لا يدع الإنسـان يضل أو يهتـدى حـتى ينبئه ويخـبره به يقينا ، أنه كـــان على ضــلال وان ما يعانيه من عقـــاب هو ثمن ضلالته أو انه كـان على هـدى وان ما اكتسـبه من الثـواب هو جزاء هداه.

اننا كبشر نخشى لـوم النــاس ، فــاذا سـخر منا أحد انهزمنا نفسيا امام سخريته وقد نفقد الثقة بأنفسنا ونفقد الاطمئنان الى ديننا لمجرد ان أحدا سخر منا.

وقد يــترك البعض طريق الهــدى لمجــرد ان النــاس يقولون له ان هذا ضلالة.

والقــرآن يــبيّن لنا هنا بــان المســتقبل كفيل ببيــان صـاحب الحق وصـاحب الباطل ، فلما ذا ننظر الى أقـوال النـاس ، ولمـاذا لا نثق بعقولنا وبما نكشـفه بأنفسـنا من حقائق ، ولمـاذا لا نهتـدي الى الصـواب بحجة ان الآخـرين لم يهتدوا اليه؟! دع الآخرين يتبعونك لأنك أنت وليسوا هم على صواب ولا تخش أقوالهم لان الحقائق ستظهر قريبا.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

الاشهاد والتوثيق

هدى من الآيات :

بمناسبة الحديث عن المسـؤولية وعن دور العلم فيها (إذ العلم لا ينفصل عن المســؤولية) جــاء الحــديث في الآيات هذه ، عن الشهادة التي ليست بعلم ، ولكنها قائمة مقامها في إيجـــاد المســـؤولية الدينية ، وحسب منهج القرآن ، الـذي لا يتحـدث عن حقيقة إلّا عـبر الحـديث عن واقعة خارجية متصـلة بالحيـاة مباشـرة ، وبالتـالي يعطي مثلا حيا للأحكام وللحقائق.

حسب هذا المنهج تحدث القرآن هنا عن الشـهادة بعد الموت ، حيث ينبغي ان يشهد الشخص إذا اقترب المـوت منه ، شخصـين عـادلين ، وينقل إليهم مسـئولية الشـهادة بعد المــوت ، وإذا كانا موضع تهمة فعليهما ان يحلفا بالله بعد أداء الفريضة قسما بأنهما لا يكذبان في الشهادة.

وإذا تبين كذبهما فلا يمكن الحكم بكذبهما الا إذا حلف اثنان من المعارضـين المـدعين عليهما الإثم يحلفـان على التهمة الموجهة للشاهدين ، كما

يحلفــان على انهما ليسا بظــالمين في توجيه التهمة الى هذين الشخصين.

إن هذا العمل أفضل طريقة لصدق الشهادة وعدم رد الأيمان.

وعلى الإنســــــــان إذا أراد أن يصل الى الحقيقة ، وبالـــــــذات على القاضي ، إذا أراد أن يتوصل الى الحق فعليه أن يقوم بأمرين :

الف : تقوى الله وإتباع أوامره.

باء : أن يستمع الى كلّ الآراء.

وأما إذا افتقد القاضي التقوى ، فانه لا ينتفع بالسماع أبدا.

بينات من الآيات :

الشهادة والشهود :

[106] كيف يثبت الحكم الشرعي؟

اولا : بالعلم البعيد عن تقليد الآبــاء ، أو تقليد المجتمع ، أو اســتعجال الأحكــام الشــرعية ، وهــذا ما تحــدثت به الآيات السابقة.

ثانيا : بالشــهادة وهي تختص بالعــدل من المؤمــنين ، وهو الرجل المســتقيم الــذي ينفذ تعــاليم ربه ، ولا يكفي في العــادل (كما تــوحي به كلمة العــدل ذاتهــا) أن يكــون مؤمنا أو حـــتى متقيا ، بل عليه أن يكـــون مســـتقيما في تفكيره وسلوكه ، فلو كان الشخص سريع الاقتناع بســيطا في فهم الحقــائق مما يضر بالشــهادة فــان شــهادته غــير مقبولة.

ومن أبرز موارد الشهادة. الشهادة على الوصية حيث ينبغي أن يستشـــهد المــرء حين تحضــره الوفــاة رجلين عــادلين على وصــيته ، والأفضل أن يكونا من المســلمين وان لم يكن فيكفي أن يكونا عادلين.

إثبات الشهادة :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا شَـــهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَـــرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِـيَّةِ اثْنـانِ ذَوا عَـدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**)

أما إذا وجهت تهمة الى هـــذين الشـــاهدين كما إذا حصـلت الوفـاة في السـفر ، فجـاء الشـاهدان من غـير المســلمين من رفـــاق الميت في الطريق وشـــهدا على وصية معينة ، فهنا تطرح عادة علامة استفهام إذ قد تكون الوصـــــية ملفقة رأسا فهنا لا نكتفي بالعدالة الظـــــاهرة (الشهادة) بل نطلب منهما أن يحلفا عقيب الفريضة أنهما صادقان :

(**إِنْ أَنْتُمْ ضَـرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصـابَتْكُمْ مُصِـيبَةُ الْمَوْتِ**)

وجاء اثنان من غير المسلمين فهنا :

(**تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِـمانِ بِاللـهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ**)

إذا كانت طريقة إدلائهم بالشـهادة أو حـتى ملابسـات الوفاة الـتي يتحـدثون عنها إذا كـانت مثـيرة للشك ، ولأنه ليس هنـاك أي دليل عيـني على أنهما كاذبـان ، وبما أنهما ينكران التهمة الموجهة ضدهما ، فعليكم ان تســتحلفوهما حلفا مغلظا بعد الصلاة ويكون مضمون الحلف هو اننا :

(**لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى**)

أيّ حتى ولو كـان الأمر في صـالح بعض أقاربنا فانا لا نكذب للحصول على بعض المال ليس ذلك فقط بل :

(**وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ**)

إذ قد لا يكـذب الشـخص بـالكلام ، بل قد يكـذب بالصمت كأن يسكت عن الحقيقة التي يعرفها وبسكوته لا يدع الحقيقة تظهر ، وبذلك يرتكب إثما مبينا.

(**إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ**)

فآخران يقومان مقامهما.

[107] فاذا تبين ان هذين الشخصـين قد ارتكبا إثما ، فهناك لا يمكن إثبات الإثم هذا الا إذا شـهد رجلان ضـدهما ، وفي مصلحة أصحاب الحق المهضوم.

(**فَـإِنْ عُثِـرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْـتَحَقَّا إِثْمـاً فَـآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما**)

أي يقفـان على منصة الشـهادة ، ويشـهدان لمصـلحة صاحب الحق أن عثر على دليل خيانتهما.

(**مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ**)

أي من أصـحاب الـدم أو أولى النـاس به من ناحية القرابة.

(**فَيُقْسِمانِ بِاللهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما**)

أي يجب أن يحلفا قبل الشـهادة بصـدقهما ويشـهرا على أن الشاهدين غير صادقين في الشهادة.

(**وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**)

اي ما ارتكبنا عـــدوانا ، وإذا كنا قد ارتكبنا عـــدوانا أو تجاوزنا الحد فــــان ذلك يثبت علينا صــــفة الظلم ونحن سوف نستعد لمواجهة العقوبة المفروضة على الظالم.

[108] ان هـذا النـوع من الاستشـهاد سـيكون أفضل أنـواع الشـهادة. لأنها تسـتنهض ضـمير الشـاهد وتثـير فيه وازعه الديني.

(**ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها**)

أي أقرب الى الشهادة المأتية على الوجه الصحيح.

وفي ذات الوقت سيكون ذلك سببا لاطمئنـان النـاس بالشهادة إذ أن الشهادة تتأكد بالحلف.

(**أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ**)

أي يخشـــــــوا من عاقبة ردّ اليمين على الورثة بعد شـــهادة الشـــاهدين فيفتضح أمرهمـــا. وعلى العمـــوم ، الشـــهادة طريق الإنســـان الى العلم ، ولكنها بحاجة الى التقـــوى والســـماع من قبل المســـتمع للشـــهادة ، إذ أن التقوى ستمنع المستمع من الحكم المسبق على الشـــاهد أو في القضـــية من دون دليل ، وســـتمنعه من الميل نحو أحد طرفي القضية لان صاحبه من أقـارب الميت ، أو لأن مصلحته ستكون في ذلك أو لمجرد الاستعجال في الحكم من دون معرفة ان ذلك يخالف روح التقوى.

أما السماع فانه الشرط المادي لمعرفة الحقـائق بعد توفر الشرط النفسي والعقلي وهو التقوى لذلك قـال ربنا :

(**وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا**)

ثم أكدّ القـرآن على أهمية التقـوى في فهم الحقـائق وقال :

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**)

فاذا كان الإنسـان ظالما لحقـوق النـاس فـان ظلمهم سـيكون حجابا أمـام عينه فلا يـرى الحق حقا لأنه يحـاول دائما أن يـــبرر ظلمه أمـــام النـــاس ، وليتخلص من وخز الضمير الذي يقضّ مضجعه.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللـهُ الرُّسُـلَ فَيَقُـولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قـالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قـالَ اللـهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِـرُوحِ الْقُـدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْـدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُـكَ الْكِتـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَإِذْ تَخْلُــقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْــرِ بِــإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِـإِذْنِي وَتُبْـرِئُ الْأَكْمَـهَ وَالْأَبْـرَصَ بِـإِذْنِي وَإِذْ تُخْـرِجُ الْمَـوْتى بِـإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْـرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُــوا بِي وَبِرَسُــولِي قــالُوا آمَنَّا وَاشْــهَدْ بِأَنَّنا مُسْــلِمُونَ (111) إِذْ قــالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَــى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ

يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (112) قـالُوا نُرِيـدُ أَنْ نَأْكُـلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَـــدْ صَـــدَقْتَنا وَنَكُـــونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قـالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنا أَنْـزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّـماءِ تَكُـونُ لَنا عِيـداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قـالَ اللـهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُـرْ بَعْـدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115)

---

14 [عيدا] : العيد اسم لما عـاد إليك من شـيء في وقت معلـوم حـتى قالوا للخيال عيد ، ولما يعود إليك من الحزن عيد.

الأنبياء في حضرة الله

هدى من الآيات :

أنى كـــانت نتيجة المحاكمـــات على وجه الأرض في الــدنيا في صــالح أصــحاب الحق أم في صــالح أصــحاب الباطل فــان هنــاك محكمة اخــرى تعــدل ولا تجــور وهي محكمة الله في الآخرة.

وهناك لا يهـدي الله القـوم الفاسـقين ، وهنـاك يجمع الله جميع النــاس وفيما بينهم رسل الله ، فيســألهم ما ذا كان جواب الناس لكم (وبذلك لا مناص من المحكمة حتى لأنبيــاء اللــه) فهــذا النــبي العظيم عيسى بن مــريم عليه السلام يسأله الله هناك هل انه قال للنــاس اعبــدوني من دون الله بالرغم من ان الله عالم بأن عيسى لم يقل ذلك أبدا.

ولكن قبل أن يسأله الله يذكره ويـذكر النـاس بـالنعم التي أنعم بها عليه وعلى أمه. حيث انه أيده بروح القـدس ، وعلمه الكتــاب والحكمة ، واجــرى بيــده المعــاجز مثل إحياء الموتى ، وحفظه من كيد بني إسرائيل.

وأمر النـــاس بالايمـــان به ، ودعم موقف عيسى في بني إسـرائيل بـأن أنـزل عليهم مائـدة من السـماء بطلب من بني إسرائيل وهكذا.

والهدف من سرد القصة هذه في نهاية سورة المائدة ، ليس فقط بيـان مسـئولية العـالم الشـاهد الـذي عليه ــ حين إدلائه بالشهادة ـ أن يتصـور موقفه أمـام الله ، ليس هذا هو الهدف ، بل إنّه مجرد مناسبة للحديث.

أما الهدف فهو أعمّ منه ، وهو بيان مسئولية الإنسـان في الحياة ، ولعله يشعر بتلك المسؤولية التي تتجسد يوم القيامة في محكمة العدل الالهية.

بينات من الآيات :

الرسل بين يدي الرحمن :

[109] يوم القيامة تظهر حقائق الأمور فهناك حقائق موجودة وثابتة ولا تنتفي بمجـرد نفيها أو بالسـكوت عنها ، إنها حقائق إن سكتنا عنها تزداد قـوة ورسـوخا ، وبالتـالي تحيط بنا وتدمرنا.

والاحســاس بوجــود الحقيقة وظهورها في يــوم من الأيام يدفع صاحب العلم بـان يكـون شـاهد صـدق لعلمه ، ولا يكتم من العلم ما يخالف مصالحه.

إن أبــرز العلمـــاء هم الرسل ، الـــذين حملهم الله رسـالاته ، وعلمه وحكمته ، وهـؤلاء سـوف يسـألون عن نتائج عملهم ، بالرغم من عظمتهم :

(**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ**)

إن الله بعث الرسل بهداية النـــــاس ، وبتبليغ دعوته إليهم ، والآن يسألهم عن

نتيجة أعمـــالهم؟ ولكن بما ان عمر الرسل قصـــير في الحيـاة ، وربما أن علمهم ببـواطن النـاس كـان في حـدود تعليم الله لهم لذلك :

(**قالُوا لا عِلْمَ لَنا**)

أي إن علمنا ليس كـــاملا بـــالجواب الحقيقي الـــذي تلقيناه من الناس.

(**إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**)

إذا : لو خدعنا الرسل ـ فرضا ـ ولو تظاهرنا أمـامهم بالايمـان كـذبا ونفاقا ، فسـكتوا عنا ، يجب الا نتصـور أننا طمسـنا الحقيقة .. كلا. فالله هو علام الغيـوب وسـوف يحاكمنا.

[110] وهذه قصة عيسى مع الله انظروا كيف يسأله الله باعتبـــاره الشـــاهد على قومه ، وكيف يكشف زيف دعاوي أتباعه : بأن قال لهم اعبدوني من دون الله.

(**إِذْ قـالَ اللـهُ يا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ اذْكُـرْ نِعْمَتِي عَلَيْـكَ وَعَلى والِـدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِـرُوحِ الْقُـدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً**)

كلّ تلك نعم الله سبحانه على عيسى الـتي من دونها لم يكن عيسى شيئا.

إن روح القدس ، وهو الروح الـذي يعصم صـاحبه من المعصـية ، والـذي يؤيد به الرسل والائمة فقط ــ عليهم جميعا صلوات الله ـ إنه أهم نعمة يـزود الله بها عبـدا من عباده ، وحينئذ لا يرتكب خطيئة فيزعم الجاهلون : انه ابن الله أو ابن فيه روح من ذات الله سبحانه .. كلا.

إن الله هو الذي أيد عيسى (ع) بهذه الـروح ، ولـولاه إذا لهبط في الزلات ، كما

يهبط غــيره من النــاس ، إنّ الله أو كل يــونس بن متّى لحظـــات الى نفسه (لحكمة بالغـــة) فـــدعا على قومه ، فسجنه الله في بطن الحوت جزاء لزلته (التي لم تصل ــ بـالطبع ــ الى مسـتوى الـذنب) وكـذلك معجـزة عيسى الظاهرة وهي كلامه في المهد لم تكن دليلا على ألوهيته ، بل على عبوديته لله ، وكذلك علمه وحكمته :

(**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ**)

يبدو ان الكتـاب هو الدسـتور التشـريعي المتمثل في التـــوراة ، بينما الحكمة هي المواعظ الســـلوكية المتمثلة في الإنجيل.

(**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِـإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُـونُ طَيْـراً بِـإِذْنِي وَتُبْـرِئُ الْأَكْمَـهَ وَالْأَبْـرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي**)

لقد كـرر القـرآن الحكيم كلمة بـإذني للدلالة على أن عيسى عليه السلام إنما كان عبدا لله.

(**وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْـــــرائِيلَ عَنْـــــكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ إِنْ هـذا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ**)

لقد حــاول بنو إســرائيل محاربة عيسى عليه الســلام بكل طريقة ممكنة ، وكان عيسى كأي شخص عــاجزا عن مقاومة ذلك لو لا أن الله أيده ، إذا فليس عيسى إلها كما يزعم النصارى.

معجزة المائدة بين الايمان بـالغيب والشـهود :

[111] وأهم من ذلك أنّ الله اعتمـده اعتمـادا وجعله رسولا.

(**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَـــــوارِيِّينَ أَنْ آمِنُــــوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ**)

[112] ودعم الله موقف عيسى (ع) بـان اسـتجاب دعاءه حين طلب منه بنو إسـرائيل بـأن يـأتيهم بـالمعجزة البينة ، وذلك للدلالة على أنه نبي فعلا.

(**إِذْ قـالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ هَـلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّـماءِ قـالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

أمـرهم عيسى عليه السـلام بـالتقوى ، لأن التقـوى ، تزيد الإنسـان يقينا ، وايمانا وصـدقا وإذا زكى الإنسـان نفسه استطاع أن يفهم الحقائق بدون معاجز إضافية.

[113] ولكن بني إسرائيل ازدادوا إصرارا في طلبهم :

(**قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُـلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ**)

انهم قـالوا : اننا بحاجة الى اطمئنـان القلب وليس غيره ، كما قـال إبـراهيم عليه السـلام لربه : (**بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**).

ثم نريد أن تطمئن قلوبنا بصـدق الرسـالة وصـدق الرسول قالوا : اننا نريد أن يكون موقفنا في الـدعوة الى الله ، موقفا حاسما. إذ فرق بين أن يكون الإنسـان مؤمنا بشـيء إيمانا غيبيا وبين أن يكـون إيمانه إيمانا بالشـهود ، فآنئذ يستطيع أن يكون كلامه أكثر حسما وقاطعية إذ قليلا ما يشك الناس في صـدق المؤمـنين إذا ادّعـوا بـأنهم رأوا الـبراهين بعينهم ، بينما قد يتشـككون في الايمـان الغيـبي وقد ينسـبون ذلك الى صـفاء النية ، وبسـاطة الفكر ، وسذاجة النفس.

[114] (**قالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنا أَنْـزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا**

(**عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا**)
أيّ يكون يوما مشهودا يتذكره الناس ويجددون ذكراه عاما بعد عـام ، لتبقى ذكـرى المائـدة عالقة في أذهـان الجميع ، وبالتالي تكون القصة عبرة لكل الأجيال.
(**وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**)
إنها آية تـدل على معجـزة الله ، ولكن عيسى عليه السلام طلب الرزق الدائم لقومه.
[115] (**قالَ اللـهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُـرْ بَعْـدُ مِنْكُمْ فَـإِنِّي أُعَذِّبُـهُ عَـذاباً لا أُعَذِّبُـهُ أَحَـداً مِنَ الْعالَمِينَ**)
لأن هنـاك فرقا بين الكفر الصـريح بعد الأيمـان النـابع من الشهود العيني ، وبين الكفر بعد الايمان الغيـبي الـذي قد لا يكون عميقا.
إن الله ينعم على عبـاده ليمتحن مـدى شـكرهم له عليها ، ومدى تقديرهم للنعم واستفادتهم منها فاذا كفـروا بالنعمة فانه سـبحانه لا يسـلبها منهم فقط ، بل ويسـلب منهم سـائر النعم حـتى يقولـوا يا ليت الله لم ينعم علينا بهذه النعمة قطّ.
مثلا : النفط في بلادنا نعمة كبـيرة من الله ، ورزق عظيم لشـعوبنا ، فـاذا شـكرنا هـذه النعمة بـأداء حقـوق المحرومين ، وتقسيم الثروة بين الناس بالقسط فسـوف تستمر هذه النعمة وتزداد.
أما إذا كفرنا بهذه النعمة ، فاستأثر بها الكبار ، وحـرم منها المستضـعفون ، واتـرف فيها الأغنيـاء ، فـانّ الله لا يسلب ثروة النفط منا فقط ، بل وأيضا يسلط بعضنا على بعض فينتشر بيننا الحقد والبغضـاء فيقتل بعضـنا بعضا ، حتى يأتي يوم

نتـــــبرأ فيه من النفط ومن ثرواته ونقـــــول : يا ليتنا كنا مجتمعا زراعيا تسود فينا المحبة والوئام.

وَإِذْ قالَ اللـهُ يا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُـبْحانَكَ ما يَكُـونُ لِي أَنْ أَقُـولَ ما لَيْسَ لِي بِحَـقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُـهُ فَقَــدْ عَلِمْتَــهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِـــي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَــرْتَنِي بِــهِ أَنِ اعْبُــدُوا اللــهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَــذِّبْهُمْ فَــإِنَّهُمْ عِبــادُكَ وَإِنْ تَغْفِــرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ (118) قــالَ اللــهُ هـذا يَـوْمُ يَنْفَـعُ الصَّـــادِقِينَ صِـــدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْـــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِـدِينَ فِيها أَبَـداً رَضِـيَ اللـهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْهُ ذلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

عيسى : اعبدوا الله ربي

بينات من الآيات :

[116] في حواريين الله وبين عبـده ورسـوله عيسى بن مـــريم ســـأل الله عيسى : هل انه قـــال لأتباعه أن يعبــــدوه؟ والله يعلم أن عيسى (ع) لم يقل ذلك أبــــدا ، ولكنه يسأله ليـبين لنا أن عيسى عليه السـلام ليس بعيـدا عن المسؤولية بالرغم من أنه عبد مخلص لله ، ولرسـوله مبعوث الى خلقه.

فيكف بنا ونحن عباد الله المذنبون؟

(**وَإِذْ قـالَ اللـهُ يا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ**)

أنَّ أولئك الـــذين اتخــذوا عيسى وأمه الهين من دون الله ، انما أرادوا التهرب من مسئولية أعمالهم ، والادعــاء : بـأن عيسى وامه سـوف ينقذ انهم من عـذاب الله حـتى ولو عملوا بـالجرائم ، فـأراد الله ان يـبيّن لهم : ان هـذين العبدين لا يمكنهما ، تحدي

أوامر الله ، فيما يخصـــــــهما فكيف بما يتعلق ببعض من يدعون أنهم أتباعهما.

(**قالَ سُبْحانَكَ**)

اي انك أجل من ان يعبد أحد من دونك ، بل أنت أجل وأعلى من ان يدعي أحد أنه ندلك.

(**ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍ**)

إذ أني مجــرد رســول من قبلك للنــاس ، ومســئولية الرسول هو التقيد بتعاليم من أرسله بلا زيادة ولا نقيصة ، حــتى ولو كــان كلام الرســول حقا فــان حــدود مسـئوليته تســتوجب الا يتجــاوز حـــدود ما أمر الله بتبليغه ، فمثلا : رسول الله لم يكن يسـتطيع ان يشـرح من القـران ما لم يحن وقته ، بـــالرغم من ان القـــران ذاته كلام الله الحق المبين.

(**إِنْ كُنْتُ قُلْتُـهُ فَقَـدْ عَلِمْتَـهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِـي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**)

إن مسـئولية الإنســان أمــام ربه ليست كمســؤوليته أمام شخص كعيسى عليه السلام ، أو أمام نظام أو قانون ، إذ قد يغيب على الشــخص العلم ببعض أعمــال الفــرد ، بينما الله ســبحانه علّام الغيــوب ، لا يعلم فقط أعمـــال الإنسان ، بل يعلم أيضا خلفيات هذه الأعمال.

دور الرسول :

[117] إن دور الرسـول هو دور المبلّغ والشـهيد ، أما التبليغ ، فانّ مسئوليته هي : نقل رســالة الله بلا زيــادة أو نقيصة ، وأما الشهادة فتعني : مراقبة مدى تطبيق

الإفـراد لهـذه الرسـالة ، ومحاولة هـدايتهم الى الصـراط المستقيم ببيان طريقة تطـبيق المبـادئ ، وقد أدى عيسى عليه السلام هاتين المسؤوليتين بأمانة وقال :

(**ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَـرْتَنِي بِـهِ أَنِ اعْبُـدُوا اللـهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ**)

بيد أن شـهادة الرسـول هي شـهادة محـدودة ، إنها شـهادة وقتية ، تختص بأيـام حياته أما بعدئذ فـان الله هو الشهيد.

(**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**)

تراقب أعمالهم لتحاسبهم عليها في الـدنيا والآخـرة ، أما رقابة الله لأعمال العباد فتنعكس في جزائه لهم عليها جـزاء عـاجلا في الـدنيا ، أو آجلا في الآخـرة ، من دون أن يقدر أحد على الفرار منها ، وهذا يـدفعنا الى فـرض رقابة ذاتية على أنفسـنا الا تصـدر منا غلطة ، يسـجلها ربنا ويحاسبنا عليها سريعا.

(**وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)

شهادة الله هي : هيمنته المباشـرة على الحيـاة الـتي تتجسد بنصر المؤمنين المخلصين في أعمـالهم ، وخـذلان الكافرين والمنافقين ، وهداية المجاهدين والمحسـنين. إن الله هو السـلطان الحقيقي للحيـاة وعلينا ان نتوكل عليه ولا نخشى أحدا أبدا من دونه.

سلطان الله :

[118] إن سـلطان الله ليس سـلطانا فعليا فقط بل ويمتد الى المستقبل ، فبيده العذاب والمغفرة.

(**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

في مواجهة الفكرة الخاطئة الـتي اعتقد بها النصـارى في عيسى وأرادوا أن يتهربوا من المسؤولية تحت غطائها ، وهي : أن عيسى وأمه إلهان يخلصانهم من عذاب الله ، في مواجهة هـذه الفكـرة ، نجد القـرآن يشـرح لنا حقيقة المسـؤولية ، ويـبين أن الإنسـان مسـئول أمـام ربه على أعماله ، وعلامة مســـئوليته علم الله به ، ورقابته عليه ، وشهادته عليه ، وجزاؤه على أعماله.

[119] وأكد الله هذه الفكـرة وبين الجـانب الايجـابي من المسـؤولية وهو الجـزاء الحسن الـذي أعـده ربنا لمن أحسن عملا.

(**قالَ اللهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**)

وبذلك بين أن الصدق هو الابتعاد عن التـبرير والنفـاق والتهرب من المسؤولية بأسلوب أو آخر ، ان هذا الصــدق ، هو أهم عمل صالح يقوم به الإنسان ، إذ انه يـدفعك الى تحمل مسئولياتك وأدائها أداء حسنا.

(**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

لأنهم ســعوا من أجل تطــبيق أعمــالهم حسب أوامر الله والتزموا الصدق ، ووافقت أفكارهم وأقـوالهم الحق ، فان الله جزاهم بالرضا ، فهو رضي عنهم وهم رضوا عنه. إنّ تبـادل الرضا بين العبد وبين ربه ، يـأتي نتيجة انسـجام العبد مع الحق ، في ممارســته ... وفي تفكــيره .... في كلامه ، وفي عمله.

[120] الله هو الحق .. الله هو ضمير الكون الشــاهد .. الله هو مدبر الكون وربه ، وحين ينفذ العبد أوامر الله ، فان الله يسخر له الكون. إذ انه يتصل

بالحق .. يتصل بالضمير الشاهد .. يتصل بالقدرة .. بالعلم .. بالعزيمة.

أما حين يخـــالف العبد ربه فانه ســـيواجه كل ما في الكون فهل يقدر على ذلك؟

(**لِلَّهِ مُلْــكُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُــوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

الفهرس

سورة النساء

سورة المائدة